الفيشاوي

غادة العبسي

رواية

دار الساقي

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الفِيشَاوِيّ

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

غادة العَبْسِي

الفِيشَاوِيّ

دار الساقي

© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-835-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى أبي... سر وجودي وصانع ذكرياتي والحكّاء الأعظم في حياتي.

إلى أمي... ملكة جمال الكون، الأخت التي لم تلدها لي.

إلى محمود... حبيبي المُلهِم وإِلْف روحي.

إلى شهداء مصر.

شكر وامتنان

د. أميرة عبد الفتاح: أنا مدينة لكِ بكل حرف كتبتُه وسوف أكتبه.
أ. أسماء إبراهيم: أنتِ التي تؤمنين بي فصدّقتُ نفسي فيكِ.
مختبر السرديات بمكتبة الإسكندرية: أ. منير عُتيبة وأعضاء المختبر أعز الأصدقاء، شكراً لتشجيعكم ودعمكم.
أ. د. حسن عبد راضي أستاذ الأدب المقارن بجامعة بغداد: أستاذي، شكراً لحماسك وتشجيعك وملاحظاتك...
الفن البديع،
والمحبة،
والمِحَن.

أخذ "تحوت نخت" غصناً من الأثل الأخضر وأوجع به الفلاح "خنوم أنوب" ضرباً فى كل جسمه، وقبض على حميره وساقها إلى ضيعته. وعندئذٍ أخذ الفلاح يبكي بكاءً مرّاً من الألم ، فقال "تحوت نخت":

– لا ترفع صوتك أيها الفلاح. انظر، إن مصيرك سيكون مسكن رب الصمت.

فقال "خنوم أنوب":

– أنت يا رب الصمت! أعد إليَّ ماشيتي حتى أسكت عن الصياح الذي يزعجك!

بداية قصة **الفلاح الفصيح**

الفصل الأول

فيشا

عيني رأت بنت بيضا والندى نازل
والشعر الأصفر على الخد الجميل نازل
طلبت منها الوصال قالت لي يا جدع
ارجع لتموت قتيل المحبة والندى نازل.

أغنية شادوف (تراث مصري)

علي صانع الذكريات

في "هاتور"، (أبو الذهب المنثور)، كنتُ أنكفئ على الطين اللين، أدفن بذور القمح بأصابعي ثم بالشّقرُف[1] عندما تجاوزتُ السادسة عشرة. تنعجن قدماي الصغيرتان في المادة السوداء. يلفح وجهي الخمريّ وهج شمس "بؤونة" وأصبر، حتى تقذف أمي سرورة في فمي قطعة الشمع الصغيرة الغارقة في العسل خلسةً أوان قطف النحل. يُرجِف صقيعُ "طوبة" جسدى النحيل ومن فوقه جلبابي البالي. أمرض بشدة. تسعى أمي سَعي الصفا والمروة بين مقام سيدي هارون ومقام سيدي البهلول في قريتنا "فيشا النصارى" وتنذُر دجاجة إذا اشتدت عليّ الحمّى أو من البيضات خمساً إذا اشتد الحال بؤساً. تعود لتضعني في حجرها وتحمد الله ثم تجمع إخوتي وتقصّ الكرامة التي لا أنساها.

طلب البهلول من أخيه هارون أن يدعو له بدعوة تُستجاب، فدعا: "اذهب فكُل ثم تغوّط"، فاستنكر أخوه الدعوة قائلاً: "ألا تدعو لي بأخرى أفضل منها؟" فقال: "إذاً اذهب فكُل ولا تتغوّط"، فحُبس عنه الغائط ثلاثاً، فرَجاه أن يكرر الدعوة الأولى فبرأ مما كان يعاني.

كانت أسعد لحظات حياتي عندما يجلسني أبي الشيخ عبد الله فوق

١ الشُّقْرُف: أداة زراعية مصنوعة من الحديد ولها يد خشبية.

كرسي "النورج"[1] مع إخوتي بعد انحسار الفيضان في "بابَه"، ثم يدور بالجاموسة السوداء، التي تجرّنا حارثةً أرضنا الصغيرة. هناك، بالقرب من جامع "زينيا"، حيث حقول الكروم التي يمتلكها إلياس جاد الرب، كانت مغامراتي لأسرق عنقود عنب أحمر من الجنّة. وفي ليلةٍ قمراء استطعنا أنا وأخي رجب نبش الأثر الذي وجده إيليا، راعي كنيسةً العذراء، بالقرب من سورها الضخم، والتقطنا منه لوحةً من النحاس الأصفر منقوشاً عليها الوصايا العشر بالقبطية القديمة كما سمعناه يردّد، خبّأناها بعيداً عن الكنيسة تحت الطمي وكنا بجهلٍ نعتقد أنها مسحورة فنلهو معها بشعاع الشمس الذي ينعكس على وجهينا من خلالها.

سوط ذلك الرجل التركيّ فوق ظهري أيقظني من الحلم الذي كنتُ أبصره أمام ناظريّ: أشجار المانجو برائحتها الشهية التي ملأت أنفي في الأوسية[2] المعفاة من عادة الفلاحة؛ برتقال وسفرجل وبرقوق يتعاقب كل منها على جِنان الأورفللي باشا.

ضَمُّ القمح في "برمودة" ، ويوم الدِّرَاس، وصدري يعلو ويهبط من كثرة القفز فوق التبن مع إخوتي. أبي يكسو لحمنا: ستة أبناء. في هذا الموسم تطبخ لنا أمي سرورة الضأن، ثم تجمعنا حول حساء النابِت نحتسيه بنهم، تحكي عن أبيها "أبو حديد" – أقوى رجال قريتنا – عندما انطلق وراء شيخ البلد "بهنس" يريد النَّيل منه إذ وشى بابنه "التوبة" ووضعه في كشوف السخرة. اختفى الرجل يوماً وليلة من القرية بأكملها. وقف أبو حديد على حافة الزراعية غاضباً وضرب النابوت بقوة في الأرض فغاص

١ النُّورج: آلة زراعية خشبية تستخدم لفصل القمح عن القش.

٢ الأوسية: هي الأرض الزراعية المعفاة من الضرائب في قرى مصر وكان يتم إجبار الفلاحين على زراعتها واستخدام مواشيهم وآلاتهم الزراعية وتُعتبر شكلاً من أشكال السخرة آنذاك.

فيها حتى الثلثين، عاد إلى بيته في كمد ثم لم يصحُ من نومته الأخيرة.

لم أكن أعرف لماذا ينادون أبي بالشيخ إلا عندما بدأ في تحفيظي القرآن، وكان يصطحبني معه لأداء صلاة الجمعة في مسجد المعاركية، أما باقي الصلوات فكان يؤديها في الزاوية القريبة من دارِنا. ظل أبي يرتدي الجلباب والقفطان فيبدو مثل الأزهريين وهو ليس منهم. عندما كنتُ أجسر وأنظر في وجهه، ولم تكن قامتي قد تجاوزت ركبتيه بعد، كنت أرى وجهه المستدير وشعره بلون الكستناء يزحف إلى فوديه من تحت العِمّة البيضاء، تمتد شعيرات كثيفة من فتحتي أنفه الكبير الممتلئ، كذلك ذات الشعيرات تخرج من أذنيه. أتخيّل شجرة كبيرة من الشعر تسكنه ويشرب الماء ليرويها فتكبر، وكنتُ أحسب شعرَ أنفه يمتد من الداخل حتى صنع شاربه المفتول، وظللتُ أبحث طويلاً عن لحظة يتّصل فيها شارب أبي بشعيرات أنفه قبل أن يقصّ ما بينهما، فلم أظفر بهما أبداً.

كان نحيلاً وبشرته ليست على لونٍ واحد، تزداد سمرةً عند قدميه وكنت أحدّق من خلفه في طست الماءِ الكبير عندما يضعهما فيه وأرى تقرّح جلدهما وامتزاجهما بقيح أصفر يقشعرّ له بدني. انشغلتُ كثيراً بقدميّ والدي المريضتين، وكنتُ أراقب تدليك أمي يومياً لهما في الماء المملح. آهات أبي المكتومة وهو يتألم باتت تربكني، بين شعورٍ عميقٍ بالحزن وبين آخر مدهش: أن أرى له وجهاً آخر سوى تلك القوة والصلابة اللتين ترعبانني. لم أكن أتصوّر أن يبكي مثلنا! في الحقل، لم يكن يستطيع الارتكاز على كعبيه، فيجلس القرفصاء معتمداً على أصابع قدميه.

حجب الطين كل شيء، كل دماءٍ سالت أو قيح أفرز، حجب حتى تلك الدمعة التي لم تكن لتهبط إلا فوق صدر أمي فيً جوف الليل.

سرورة عُرفت بأنها أجمل بنات فيشا الصغرى والكبرى مجتمعتين، أجمل من بنات الجوار في "تلوانة" و"جروان" و"كفر سنجلف"، لم

يكن ينافسها في تلك المكانة سوى فتاة "هيت" التي لم نكن نعرف اسمها، واشتهرت بحكايتها مع عاشقٍ أحبّها فشقّ نفقاً طويلاً عبر سنوات من قريته "سِرو" وحتى قرية معشوقته في "هيت"، فصار اسم النفق مع مضي الوقت "سرب هيت".

سرورة، الفتاة ابنة الثلاثة عشر عاماً، لم يفلح رداءٌ في إخفاء مفاتنها، لم تكن هناك طرحةً أطول من ضفائرها، كانت مثل قلب الزهرة بين بتلاتها، أو ماء عين في الصحراء القاحلة. ريحُ سرورة تعطفُهُ على من تمرّ بهم نسمة الصيف في قيظٍ لا يفلح معه ظلٌّ ولا ماء، رحمةً لبشرٍ هالكين في دار الفناء، سلوى في فقرٍ لا يغنيه من شيء، كلمةً ينتظرها الجميع لتُسكن فوضى قلوبهم. طرفُ ثوبها وقد انبرى وتآكلت استدارته تنورةُ درويش الحضرة الملونة، تلفّ الدنيا بالذاكرين... أسمتها والدتها "سرورة" حتى تخزي عيون الحسّاد في إلماحٍ منها لبشرةٍ سوداء تكسو لحم الطفلة الرضيع، وذلك على اسم جارية والدة الأورفللي باشا الحبشية.

أن يولد طفل، لم يكن حدثاً مهماً في أي يوم من أيام فيشا، كان الأطفال يتساقطون من أرحام أمهاتهم الخصبة المخصّبة مثل ثمارٍ من شجرٍ اكتظّ وضاق بحمله. وحدهم الذكور يبهجون الآباء ويرفعون رؤوس الأمهات، أما الإناث فكنّ يجلبن الأحزان وهواجس العار المبكرة. بين هذا وذاك، كانت سرورة فأل خير وولدت في ضمّة قمحٍ لم تشهد فيشا مثلها من قبل، في فسحةٍ من وطأة الأوبئة التي كانت تتخطّف الأنفس في المجاعة، وقد فاض النيل بعد نقصانه عاماً كاملاً جفت فيها الأراضي وصار كل شقٍّ فيها يتّسع لاثنين... ترك الزمن سرورة ذكرى لوجه فرنسيّ المعالم أبيض مشرئبٍ بحمرة، بعينين زرقاوين واسعتين وشعرٍ أصفر طويل ناعم مثل صفحة نهرٍ هادئ، كأنه يخلّف وراءه خضار الأرضين ويمنح السماء زرقتها.

بَنَى أبي بيت سرورة بفرح غامر، ودّ لو غرف بيده من النجمات في الأعالي ودسّ بين اللبِنات، لم يعد يناديه أحد بعد زواجه منها سوى بالشيخ "عبد الله حَظ". قصّت عليّ أمي كيف كان زواجهما في ليلة ليلاء، وكيف صكّت وجهها خجلاً وهي تسمع دبيب رجليه قادماً باتجاهها بصحبة القابلة والبلاّنة، وكيف انسحبا في هدوء بينما تقدّم أبي ورفع عنها نقابها، وكيف شهق وهو يخلع عنه العمامة في جزع وظلّ يسبّح بحمد الله ثم يقول "لا حول ولا قوة إلا بالله" ضارباً كفاً بكفّ. اندهشت أمي ثم قالت في نفسها: "زوّجوني من شيخٍ مجنون!".

سُرُورة: قرينة فتاة هِيت

كان ما يأكل قلبي حفاء أولادي. الثوب البالي قد تحييه رقعة من الجوخ، قد ألصقهم ببعضهم البعض وأجمعهم أمام فوهة الفرن كي أدفئَ أجسادهم الصغيرة، قد آخذ ما استطعت من لحمهم وأضمّه في لحمي، أما المراكيب فكيف أصنعها لهم؟ كنتُ أعلم من قبل زواجي أنها حكر فقط على الشراكسة والإفرنج، وحتى "البابّوش" التي ينتعلها الشيخ قدّمها إليه أحد أعيان قريتنا عندما حفظ ابنه القرآن على يديه، كنتُ أقلّبها ذات اليمين وذات الشمال أحاول أن ألتقط كيف صُنعت، فلا أجني سوى الدهشة وأعود لحيرتي وعجزي.

في تلك الأيام الجافة كنتُ منشغلة دوماً بسدّ شقوق فاقتنا، رغم أن العُري لم يكن شيئاً مشيناً في فيشا، ولا في أي مكان آخرَ حول وادي النيل في القرى المجاورة، ولكن المرء يخجل من عريه، يخجل من أسماله البالية التي تكشف عن أجزاء من جسده. كنّا جميعاً نعاني من لفحة الحرّ وعضة البرد ولم نشكُ قطّ؛ من استطاع إلى كساءٍ سبيلاً حقّ له أن يختبئَ من لواحظ المحرومين. بطوننا شبه خاوية أحاول حشوها بالعجّور والخسّ والسريس[1]، أملأ خواءها بالفول وأحياناً كثيرة بالترمس

١ السريس: الهندباء.

المدمّس، أُحكم إغلاقه جيداً بالليمون النيلي وطين الطفل كما علّمتني الأم ماريانا في كنيسة السيدة العذراء. ما يؤلمني أنني لا أستطيع أن أُطعم أبنائي من "العجوة"، أجمل شيء ذُقتهُ في هذه الدنيا.

عندما حاضت زاهية ابنتي الكبرى قررتُ أن أصنع "السّخينة"[1]، وقد كلّفني هذا سمناً وسكراً فوق طاقتي، ولكنها زاهية، ابنتي التي ستفارقني بعد أيام، تماماً مثلما حدث لي. كان القلق يأكل والدتي "تحية"، تأخرّتُ عن قريناتي وقد زاد هذا في طولي، أتذكر جيداً أرغفة الخبز الساخنة تضعها أمي بين نهدَيَّ الناتئين قليلاً كي ينضجا مبكراً. أتذكر أيضاً صلواتها ودعواتها ونذوراتها لكلّ وليٍّ تعرفه، بل وزيارتها للأم ماريانا لتأخذ من حنوط الشهداء وتُرقيني، كانت ترسم الصليب فوق كعبي وتبكي لمريم البتول وتبثّها حزنها، لم أكن أفهم شيئاً، وعندما حضتُ وهرعتُ إليها أسألها في رعبٍ عمّا يهطل مني بغزارة، زغردَت وتورّد خدّاها، ثم صنعت السخينة وأطعمتني وَإخوتي منها، ثم بكت أبي "أبو حديد"، رحمه الله، آخر الليل.

لو أن كل شيء في هذه الدنيا ثقبٌ نعمل على رتقه فحسب!

لم أستطع خطف إخوتي ومن بعدهم أولادي الأربعة من براثن الموت. عاجزة أنا كل ليلة تحت قدمي الشيخ المتقرحتين بلا أمل في التئام. لم أقدر على ترقيع وجوه فلذات كبدي الغارقة في الدموع جوعاً وبرداً ومرضاً. لم أكن يوماً سداً منيعاً في وجه الفيضان الذي يغرق أراضينا وبيوتنا كل عام... كل شيء يهون إلا المهانة، إلا كرابيج السادة ومراكيب رجالهم وسباب حريمهم، تلك النظرات التي تلتهم جسدي الذي أستره بالكاد، أي عارٍ بإمكان ماء النيل محوه عندما امتدت يد عبد الراضي، شيخ البلد،

١ السِّخينَة: أكلة مصرية من العسل الأسود والحلبة والخبز والسمن.

تريد أن تمسك بصدري وأنا منهمكة على الرحاية أطحن القمح؟ صوته الهامس وهو يقول لي "أنتِ أميرة" كأنه خرق بكارتي للمرة الأولى لا أذني، كان عليّ كتمان الأمر وإلا راح الشيخ في سجونهم أو علّقوه على مشانقهم... يجب على المرأة منا أن تحاذر من لسانها، وتعرف متى تحكي ومتى تصمت.

عادةً لا يمهل الجوع ألسنتنا فنربط على البطون كي نكمّمها، لا أريد أن أشقّ على الشيخ، لا أريده مكدّراً فلا أظهر له حاجتي، وإن لاحت وفضحتني قلتُ له: "سرورة مستورة والحمد لله"... على أية حال، تركض كل الأيام، حلوها ومرها، يمضي بنا العمر وينتهي كل شيء حتماً في ليلة ما. مذ رأيتُ رقاب أطفالي تتأرجح بين يديّ جيئةً وذهاباً بلا صوت لم يعد هناك سوى الخوف على من تبقّى منهم والحسرة على من واريته التراب من بينهم.

يؤرّقني ولدي علي، يطيل النظر إلى أعلى، يسرق فاكهة "جاد الرب"، يشكو إليّ منه طين الأرض، يسلم ساقيه للرياح كلما هممتُ بتأديبه، أمسك بتلابيبه بيد وبالأخرى أُحرِّضه على الهرب. عندما بلغ العاشرة كان ينسلّ من بيننا ليشاهد من كثب مجالس الإنشاد المتكررة في بيت عمدة البلد، يعود متأخراً ويتحمّل ضرب الشيخ المبرح. يشبه علي أباه في كل شيء إلا في حب اللهو، لم يكن يوماً طفلاً مطيعاً، ولم يفلح تأديبنا له لا بعصا أو بفلكة، حتى جاء يومٌ تتبعته فيه إلى مجلس الإنشاد كي أعيده إلى الدار قبل قدوم أبيه إشفاقاً عليه، أبصرتُ جبهة علي العريضة عن بعد داخل الساحة الكبيرة أمام بيت العمدة عند رأس المجلس، بثيابه البالية وقدميه العاريتين، يشدو بصوتٍ جميل ورؤوس الحاضرين تتمايل وهو يقول:

إن كان بدّك تنول السعد م الدارين

إترك هوى النفس والشيطان سوا الاتنين
وصوم وصلِّ وكتّر م الصلاه ع الزين

كتمتُ شهقتي وأنا أسمّي وأصلّي على الزين نبينا محمد جدّ الحُسين، ابني علي يمتلك مثل هذا الصوت العذب؟ ماذا تراه يفعل أبوه الشيخ لو استمع إليه؟ خشيتُ عليه، من عيون البشر حوله يستحسنون صوته، ومن كِبر نفسه وانفلاته من طوعنا، ومن غضب أبيه معلّم القرآن، ومن ذرية لَا تحرص على الأرض التي نأكل من خيرها، من مستقبلٍ مجهول صارً بعيداً وقد تجاوز اليوم والليلة حيث لا يذهب شرودي عادةً أبعد منهما...

"الولد علي صاحب هبة"، قلتُها للشيخ وقلبي يرتجف. نظر إليّ محمرّ الوجه ثم صفعني، قال: "كنتِ تعلمين وتكتمين عني الخبر، كنتُ أنتظر متى تخبرينني!". قلت وأنا أمسح عن فمي الدماء: "علمت اليوم فقط!". قام عني يريد أن يذهب إليه فتشبّثتُ برجليه أرجوه كي لا يؤذيه. فوجئتُ بعلي يدفع باب الدار ببطء وراقبت انطفاء ابتسامته التي كانت تملأ وجهه الخمري عندما أبصرنا. انهال عليه الشيخ ضرباً وسباباً. دموعي لن تجف. تكوَّم إخوته يرتعشون في إحدى الزوايا لا يجسر أحدهم على زفير مسموع. يصرخ علي، طفل الثالثة عشرة، طالباً الرحمة، ثم يصعد بكلّ برود على الدكّة الخشبية بجوار إبراهيم وفاطمة وعزيزة، وقبل أن يستسلم لنوم عميق، ودون أن ينطق بكلمة واحدة، قذف في يدي "عُشر قرش" فدسَستُه في صدري وشعرتُ لأوّل مرة بأن عليّاً ولدي قد صار رجلاً كبيراً. يبدو أن ابن سرورة سيطعم أمه وإخوته وأباه شهداً، هل سنخلص أخيراً من المرارة التي لا تفارق ألسنتنا يا علي؟

"عبد الله حظّ" وشريعته

"السعيد من يعيش في ظل شريعتك يا نبي"، تلك الجملة الأثيرة التي نردّدها في كل أفراحنا هنا في فيشا الصغرى هي خلاصة ما أعتقد في تلك الحياة.

هي "فيشا الصغرى" بالطبع، وليست كما يسمّونها أحياناً باسمها القديم "فيشا النصارى"، ولو أُوكِل إليَّ الأمر لأسميتها "فيشا المسلمة"، فمنذ رأيتُ أبي يُجلَد في فناء دار المباشر القبطي "بولس"، كي يأخذ منه العادة التي تُفرض علينا فرضاً، وأنا أكره ذلك الاسم القديم، أحياناً يمر بخاطري أن أجهز على كبيرهم هذا في الكنيسة وأصرعه بيدَيّ، أو أشقّ بطنه على مرأى من تابعيه، انتقاماً لأبي المظلوم...

ولكن الله غالب على أمره، فهيهات أن يطفئوا نور الله. قد حكى لي أبي "محمد"، رحمه الله، عن قصة طانيوس، وكان أحد قساوسة كنيسة العذراء في قريتنا منذ سنوات طويلة، وافته المنية فأقامت له الكنيسة مراسم الدفن المناسبة، ووضعوه في تابوت من خشب الأكاسيا، ونقشوا بالذهب اسمه فوق مقبرته، حتى جاءت ساعة الدفن. وصل جدي الأكبر صدّيق، إمام مسجد المعاركية، وصاح في الحاضرين أن طانيوس أوصى بدفنه في مقابر المسلمين لأنه كان على دين الإسلام. توقفت النذّابات عن العويل، وتجمّدت الدموع في أحداق النساء من ذويه، واستشاط الرجال

غضباً ودارت مشاجرة كادت تودي بحياة الشيخ صدّيق، حتى احتكم الجميع إلى شيخ البلد فقرر أن يستمر دفن طانيوس في مقابر النصارى. انصرف صدّيق وقد أسرّ في نفسه نية نقل جثمان طانيوس سراً إلى مقابر المسلمين تنفيذا للوصية.

عندما انتهى مع رفاقه من الحفر لم يجد الجثمان، فتهللت أساريره وشعر أنه على أعتاب كرامة لطانيوس المسلم سراً. انطلق الرفاق كي يبحثوا عنه في مقابر المسلمين، ويا لعجبهم! وجدوه في إحداها، فصاح صديق: "طانيوس اختار والله هو الجبار". وعندما اكتشف النصارى الأمر تجهّزوا بالسلاح ليأخذوا الجثمان بالقوة، فتركه لهم صدّيق في تحدٍّ مؤكّداً أنه سيعود مرة أخرى إلى المكان الذي ترتاح فيه روحه. هنا قرر المسلمون في فيشا أن يرفعوا مقاماً للولي طانيوس، وعمل النصارى على طمسه مع مرور الزمن.

"بدير النايل"، ذلك المرابي الجشع، لا يرحم مكروباً أو محتاجاً، أي شريعة تحلّل ذلك؟ وتلك الملعونة المقيتة "ميمونة" الرافلة في النعيم والذهب لا تتنازل أبداً عن مليم واحد أمام توسّلات المساكين، كل هؤلاء النصارى أغنياء غنىً فاحشاً، ويتطلّع أولادنا في حسرة إلى ما في أيدي أولادهم، بينما لا ينقص من مالهم شيء، ولا يزداد في قوتنا من شيء... أين تلك الأيام الخوالي التي يحكي عنها أهالي فيشا؛ أيام الخديوي سعيد، رحمه الله، عندما ملكنا أراضينا وفاض الخير ورفعت الضرائب الباهظة عن كاهلنا؟ صحيح، الموت نقّاد، يأخذ الخديوي سعيد الطيب ويترك أولئك الفجرة يحكمون بلادنا؛ يختطف منا الزعيم مصطفى كامل في عزّ الشباب، سمّوه الخونة... في غمرة الأمل في الجلاء والدستور!... صدق المثل الذي يقول: "ما يفضل ع المداود غير شرّ البقر"!...

ما زلتُ أتذكّر حمادة أفندي وهو يقرأ لنا في جريدة **مصر** عن تلك

الواقعة الشهيرة، إذ أوسع الضباط المصريون نوبار باشا وولسن وزير المالية ضرباً ولكماً أمام مبنى الوزارة، وكيف كنا نُصفّق ونضحك فرحاً بما فعله هؤلاء الشجعان، وبعدها بقليل قامت ثورة عرابي ورفاقه من أجلنا، من أجل كل المصريين. آه يا بلد! كان حلماً جميلاً، سرعان ما انطفأ وهجه في قلوبنا وصار بداخلنا مثل رماد الفرن في دارٍ نفد منها الطحين.

اشتعلت فيشا فرحاً عندما ألغى اللورد كرومر السخرة والكرباج، صرخ فينا وقتها حمادة أفندي قائلاً: "يا أهل فيشا، ما كل احمرار لحمة، ولا كل بيضاء شحمة". فهمنا فيما بعد مقصد الرجل الفطن، عندما فُرضت علينا ضريبة إعفاء من السخرة بحجة أن الدولة تستأجر أحراراً ليقوموا بتلك الأعمال، ولأن منا بالفعل من بقي مسخراً جَبراً، ومَن هوى الكرباج على ظهره مثل الحيوان.

كنت أحلم بضمّة قمح لا يشاركني فيها شركسي ولا إنجليزي، أضمن للعيال عيشة كريمة، تكفيهم وتقرّ بها عيونهم، أكسو سرورة من حرير المحلّة وأشتري لها جنيه ذهب وأعوّضها عن ماشيتنا التي اضطررنا إلى بيعها لتسديد الدين لحكومة الظلم. سرورة... تُرى ماذا كنت أفعل من دونك؟ ما زلت أذكر أول مرة أبصرتُ فيها وجهك، تخيّلتُك الجنيّة التي كانت تظهر في العصاري سابحةً في النيل، تلك التي لا يقوى رجل على أن يصرف نظره عنها، فتقفز من الماء وتختطفه وتغوص به إلى الأعماق. كنتِ أجمل من رأت عيناي، أصابني حظٌّ كبير عندما تذوقت عسلك، وما زلتُ أموت غيظاً منهم عندما ينادونني بـ"عبد الله حظّ"، أشعر في كل مرة بحسدهم وحقدهم وتلميحاتهم القذرة، وأنا الشيخ حافظ كتاب الله. أحياناً كنت أعود ناقماً عليها، أصبّ فوقها غضبي كله وأضربها ثم أمنعها من الخروج إلى الغيط. وسوس لي الشيطان مئات المرات كي أطلّقها فأخلُص من غيرتي عليها ومن أحاديث أهل فيشا عنا، ولكن لساني – في

كل مرة – كان ينعقد، فينزّ علقماً، أبتلعه فيكوي صدري وتجلس هي عند قدمَيّ المريضتين باكية.

أشعر بخيبة أمل في أبنائي، كنتُ أتمنى لهم مصيراً آخر، ولكن، على أية حال، تلك إرادة الله، لا رادّ لقضائه. إلحاق رجب وإبراهيم وعلي بالمدرسة كان يلحّ علي، ولكن الأرض، مَن يرويها ويخضرها ويحميها؟ وها قد تزوج من جودها رجب وإبراهيم ومن قبلهم زاهية قرة عيني، وتستعد فاطمة للزواج من سلمان، ابن الحاج عبد الكريم، بعد أيام قليلة. لم يفارقني الولدان بعد زواجهما، برغم كل شيء تكفي داري للجميع، بيت سرورة الذي صنعتُه بيدي براح وسيظل دائماً متّسعاً للجميع. لم يتبقّى سوى عزيزة الصغيرة وعلي، ذلك الشيطان الذي لا يشبهني أبداً... سأزوِّجه قريباً أيضاً لعله يهتدي.

اخترتُ له "ودودة" ابنة صالح، أتمنى أن يقوّمه الزواج ويصرفه عن تلك الغواية التي تمكّنت منه. هذا الذي كان ينقصنا يا علي، أن تهرب من البيت إلى الموالد المجاورة وتتبع الغجر والعوالم؟ خسارة! عندما كانت أمك حاملاً بك جاءها سيدنا علي في المنام ببردة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وقال لها: "سمّيه علياً يا سرورة"، فاستبشرتُ خيراً وقلتُ "سيحمل ولدي كتاب الله من بعدي"، غير أنه قد وافق الاسم هوىً في نفسي لأنني كنت أحب "علي بك الكبير"، وكان أبي يقصّ عليّ حكاياته فأراه فارساً عظيماً وبطلاً مغواراً، معاركه مع الهوارة وعربان "سعد" و"حرام" ملأت أحلام طفولتي، ولكنك خيّبت ظنّي فيك يا علي بطراوتك...

أنت مزارع بالفطرة رغم أنفك، هبطت من رحم أمك على الطين، وقعت منها وقد جاءها المخاض في الحقل، وقبل أن تأتي القابلة كان رأسك الكبير قد انزلق في صرخةٍ مكتومة أطلقتها سرورة. رأيتك عارياً

فوق حشائش البرسيم النضرة، والدماء تقطر من أمك، شعرت للحظة بأنكما قد دنستما أرضى، ثم تأملتُ ملامحك وأنت تبكي فابتسمتُ ورأيتك تكبر وتزداد قسمات وجهك اقتراباً مني، فأفرح، أنتشي بعلامات الذكورة التي شرعت في الظهور عليك يوماً بعد يوم، بطول قامتك، ببشاشة وجهك، أحاصر انفراج شفتي عندما يمتدحون صوتك أمامي وأكتم أمر الضحكة التي تنفلت مني!

العمر يركض، ولا يزال القلب يركض في صدري مثل فرسٍ آبق من كرباج سيده. لستُ قوياً كما يظنون... قوة الأيّل الذي يهرب من الفهد الجائع ليست بقوة!

يا حلاوة التوت يا ودودة

أشعر بالطمأنينة، أضاءت الدنيا من حولي فجأةً بعد عتامة طويلة، كأنما نبتت لي عينٌ أخرى. جسدي مبتلّ تماماً من رأسي حتى أخمص قدميّ، يبدو أن الحمّى قد زالت عني. أفرك بين أصابعي طين الحنّاء الذي يخضّب جبيني وفروة رأسي، عصابة الرأس تؤلمني، كم بقيتُ من الوقت محمومةً لا أشعر بالدنيا؟ لا أذكر، أذكر فقط أنني وضعتُ حملي وأنني هممتُ بإرضاع ابنتي، ولكن فجأةً انبجسَ دمٌ غزير من تحتي، ملاءات بيض تهرع النسوة مِن حولي ويحشون بها عورتي، الملاءات صارت حمر، أبصرتُها تطير في الهواء، ظلّت تتطاير أمامي حتى شعرتُ بروحي خفيفةً تطير معها. صراخ... بكاء... علي زوجي يهزّني بقوة: "ودودة... ودودة"، أريد أن أردّ، لا أستطيع . ولدي عبد الرحمن يقف على عتبة الباب، أريد أن أقوم إليه، شيء ما يجذبني من بينهم، شيء لا يُدرك كلّه، لا آخر له. ابنتي الرضيعة تبكي... جائعة... كيف أتركها؟ لم يُسمِّها أبوها بعد، كنتُ أودّ لو أسميتها "عفيفة"، كل شيء صار بعيداً رويداً رويداً...

يمتلئ أنفي الآن برائحة الخبز الساخن، خالتي سرورة تعلّمني طريقة العجين وكلتا يداي تغوصان في مادتها الحانية الباردة. علي يتشاجر

مع أبي الشيخ عبد الله. عبد الرحمن يضع "المصلحة"[1] المعلّقة بآخر عصا الفرن في فمه الصغير. زوجتا إبراهيم ورجب يتغامزان على حداثة عهدي بالعجن والخَبز. أكوام الذباب تتكالب فوق أقراص روث الماشية المتروكة كي تجفّ في الشمس. الفجر ونسيمه البارد يتخلل جسدي النحيل كأنه قُبلة علي الأولى في فمي...

لم يكن هناك من هو أسعد حالاً مني في فيشا عندما اختارني علي. أعلم أنه لم يكن اختياراً، وهل يختار أيٌّ منا هنا في فيشا أي شيء؟ إنها القسمة والنصيب. أشرق وجهه الصبوح أمامي، رأسي بالكاد يصل إلى أسفل ذراعه، رقبته رشيقة وذقنه رفيع وبشرته في حمرة رغيف الخبز من أعلى، أسرفت النار قليلاً في إنضاجه ولكنها لم تحرقه بعد. عندما تحدث بصوته العذب، كنت أراقب تفاحة آدم تعلو وتهبط في دهشةٍ مني، كأنني لأول مرة أبصر رجلاً أمامي. وهل كان علي أي رجل؟

واضعاً كفّه على صدغه الأيمن يصدح لي وحدي، يمدّ رقبته إلى أعلى علّها تتجاوز كيزان الذرة بين أوراقها الطويلة:

"الكمال في المِلاح صُدَف"

الله يا علي!

ترك عبد الرحمن "بِيت الولد" بصعوبة. كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، وعندما زغردت خالتي سرورة والقابلة التي حملته إلى جدّه شعرتُ بالزهو يملأني، بيّض ابني وجهي وثبّت قدميّ في كنف علي والشيخ. أمّا أبوه فبكى فرحاً وسجد لله شكراً، وجلس إلى جانبي رغم نظرات خالتي اللائمة له، همس في أذني: "مبروك يا أم عبد الرحمن".

بنت السابعة عشرة بحِملها أكثر جمالاً: "في بطنك بنت يا ودودة"

١ المصلحة: قطعة من القماش تستخدم لتنظيف الفرن.

قالت خالتي سرورة. أتمنى لو كان صحيحاً، أريد فتاة بعد سقوط حملين متتالين، أعقبهما حزني وبكائي؛ ضحكةً تعوّضني عما تحمّلتُ من لوم وتكدير؛ فرحةً من أجل عيون علي الحنون؛ أختاً لعبد الرحمن، لا تذرهً فرداً في الدنيا يا كريم. "عفيفة" ابنتي لم أشبع من وجهها مثلما لم أُشبعها من صدري... هل يغني لكِ أبوكِ: "يا حلاوة التوت يا حلاوة"؟ هل مازلتَ تغنّي من بعدي يا عليَ؟

عِطر بِرتَا

وضعت الحرب أوزارها، وعاد أخي رجب بوجهٍ نصف ميّت. لم تحدثه أمي بكلمة واحدة عند رؤيته، احتضنته فحسب، عانقت دموعها دموعه. بكى وعلا نحيبه فوق تسبيح "كروان" الفجر، فلتصمت أيها الطير الهانئ في سمائك، واترك لأخي بكاء الأرض وما عليها. التفّ حوله زوجته وأولاده يتشبثون بأسماله وبعض لحمه الظاهر منها، وقفتُ عند الزاوية البعيدة، أتحسّس موضع أقدام إخوتي القديم، كومةً تتشبّث ببعضها البعض خشيةَ ضربات أبي الشيخ الطائشة، يقشعرّ بدني من تذكار يديه فوق ظهري العاري ووجهي وصدري. رأيتُ من جديد النظرة الخائفة ذاتها في عينيّ رجب، مودعاً إيانا ولا يدري إن كان سيرانا مرةً أخرى عندما أخذته السلطة من أجل الحرب، وعائداً كطفلٍ صغير يحتمي بصدر أمه. لم أقاوم عبرةً هبطت في ذات اللحظة عندما انتبه إلى وجودي، في الطريق القصير إليه وأنا أقترب منه مئات التساؤلات عمّا يفعله بنا الزمن ولماذا كل هذا البلاء وكل هذه المصائب فوق رؤوسنا. قفزت ودودة أمامي جثةً تنزف حتى الموت، لمست يده الباردة كفّي فتذكرتُ برودة جسدها بين ذراعيّ، ضممتُه ويحسبُني أواسيه وأنا الذي ارتمى في أحضانه أطلبُ بعض الرحمة من قسوة حياتي، من قسوة حياتنا.

رجب، يده في يدي، طفلان يلهوان على حافة جِنان إلياس جاد

الرب، نلمح ابنته برِتا بضفائرها الطويلة وشرائطها البيض من بين أوراق الكروم العريضة، لتسكب فينا نبيذها؛ طعم العناقيد المسروقة هو ذاته وجه برتا، وأشجار المانجو التي تعانقنا من الخلف هي عطرها الذي يملأُنا. اظهري فقط يا برتا لمرةٍ واحدة ليَسكر أخي من نبيذك ويشتمّ المانجو في وجهك، أما أنا فلا ألَف وجه كوجهك يُنسيني وجه الموت الذي سرق وجه ودودة وسلب بريق عينيها وسطا على روحها.

– أترحل يا علي وتتركنا؟ قال رجب.

– الموت قاطع طريق يا رجب.

– كفى حديثاً عن الموت والموتى يا علي. تطاردني الجثامين في كل الليالي، خفقان قلبي يعتصرني مع أصوات البارود، أنفي لا تبرحه رائحة الخوف. للخوف رائحة يا علي، أعرفها وأميزها جيداً. حوّلتني الحرب إلى كلب عجوز اقتلعوا أسنانه.

– الموت واحد في كل مكان يا رجب، ولكن الموت هنا في فيشا يتجاسر كثيراً على الضعفاء، يلتهمهم التهاماً ويسرق حيواتهم، يأخذ منهم عنوةً أقل القليل. لماذا سرق ودودة من عفيفة ولم تكن قد رضعت حتى من صدرها بعد؟!

– صبّرك الله يا أخي، استغفر ربك ولا تبتئس، فرجه قريب.

– ولكن علينا بالسعي يا رجب، لن أستسلم هنا حتى يختطف الموت أولادي، لن يرحمهما صغاراً، لن يشفق على يتمِهما.

– وهل علم أبوك الشيخ بهذا الكلام؟

– أبي الشيخ لن يضيره رحيلي كما لم ينفعه بقائي.

– كيف يا علي؟ والأرض؟

– الأرض! ما أشبهها بـ"ساقية العفريت" في النيل، تلك التي لا تترك من يهوِي فيها إلا وهو غريق، عميقة تبتلع النفس وتضنّ حتى بطفو

جيفتها.

– كبرت يا علي، كبرت يا أخي!

– بل شخت يا رجب، شخت منذ أهلتُ التراب فوق جسد امرأتي وفطم الموت ابنتي الرضيعة ويتّم ابني مبكراً جداً.

– لا تكن غلولاً يا علي، ارضَ كي يرضيك الله، لا أريد أن أزيدك حزناً، هل تحسب الحياة أفضل حالاً خارج فيشا؟ الحرب جعلتني أرى ما لم تره أنت. نحن صغار، لا وزن لنا في هذه الدنيا، لا أحد يشعر بنا ولا يرثي لحالنا، إنه ملكوت كبير يا أخي، تطوقنا سماء فيشا الرحيمة عن وحوش آدمية تسكن خارجها، في غمرة هلعي ورائحة الدم الطازج تستولي على صدري لم يكن يثبتني على الصبر سوى ريح فيشا، الخضرة المضفرة مع سنابل النور، وطيور الفجر تشاهدني عارياً أستحم في الغيط، ولبن جاموستنا الرائب. رغم كل شيء هنا، نحن نحيا يا علي.

– حلمتُ بالأمس بالكعبة المشرّفة، مازال ملمس كسوتها المخمليّ يجري على قشرتي، ويداي تتشبثان بشواشيها المتدلية، ظلت تصغر وتصغر وتصغر أمامي، وانكمش الفراغ الفسيح إلى حجرة بحجم القبر تتوسطها الكعبة، اختفت كل النقوش الذهبية من فوقها وصارت أشبه بحجر أصم لا عظمة فيه ولا أبّهة... لماذا يتركنا الله يا رجب؟

– أستغفر الله العظيم، أخفض صوتك أيها المجنون، أبوك قادم نحونا.

– لم أعد أخشاه، لقد أخبرته برحيلي منذ وصولك.

– هل جننت؟ وماذا قال لك؟

– قال: "اذهب، لست ولدي ولست من صلبي"!

– لا حول ولا قوة إلا بالله! ابتعد أبوك الآن. غنِّ يا علي، غنِّ لي: "حِبّى زُرنى ما تيسّر"، سأفتقدك يا أخي.

– أغنّي؟ من أين لي روحي التي تغنيّ يا رجب؟!
– إلى أين ترحل وتتركنا يا علي؟ كفاكِ رحيلاً يا فيشا!

"ذلك لأنك أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ لتلك التي قد نُبذت ومئزر لذلك الذي لا أمَّ له... دعني أجعل اسمك في هذه الأرض يتفق مع كل قانون عادل فتكون حاكماً خالياً من الشره، وشريفاً بعيداً عن الدنايا، مُهلكاً للكذب وُمشجِّعاً للعدل ورجلاً يلبّي نداء المستغيث..."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل الثاني

"بولاق أبو العلا"

غزال الجبل منزله فين؟
دا صغير و نفسه عفوفَه
ما ينزل إلا من الليل لليل
شمس الضحى لم تشوفَه.

أغنية خيّال (تراث مصري)

إمام العنابر

رغم أنه لا يأتي من ورائك أيتها المحزونة شلبية إلا المصائب، وأن هناك ثلاثة أفواه يسكنون معنا في هذا البيت فوق ساكنيه: ابن سرورة أختك الذي أتى إلينا بصحبة ولديه اليتيمين بلا عمل وبلا مأوى في هذه الأيام الضنك، إلا أنني لا أملك إلا أن أسعد بمجيئهم. عندما احتضنتُ عليّاً شممتُ فيه من ريح فيشا: قريتي البعيدة، انكساره يشبه انكساري. أتينا هنا منذ سنوات طَويلة إلى بولاق لا نعرف ماذا تخبّئ لنا الأيام بعد كل هذا الفقر والحرمان في فيشا، تركتُ فأسي وقراريطي القليلة وداري وأهلي وجئتُ إلى القاهرة باحثاً عن الرزق. وجدنا كثيرين يشبهوننا يا شلبية، بنفس ملابسنا المتواضعة القروية، ولكننا ألفينا أفندية وبكوات تلمع أحذيتهم ويمتطون السيارات العجيبة ويرتدون ثياب الإفرنج البهيّة.

تذكرين عندما ضمّني الأسطى الحاج بيومي إلى ورشته لأتعلم الحدادة على يديه، واستأجر لي بيتنا هذا الذي يأوينا؟ كم تذكّرني بنفسي يا علي ، ولكن مصابك أكثر فجيعةً وغربتك لا دواء لها سوى بامرأة أخرى تعوضك عن كل هذا الحزن. أيتها البومة شلبية، رغم حدة صوتك وسلاطة لسانك ومطالبك التي لا تنتهي فلقد تحمّلت معي ما لا يطيقه بشر. عندما احتكّ الترام بساقك وأنت تعبرين قضبانه انهلتُ عليكِ سباباً وكنتُ في داخلي أرتعد من مجرد احتمالية تأذّيك!

فضحكِ الله يا شلبية! قصصتِ على عليٍ تلك الحكاية التي انتشرت عني في فيشا كلها، إذ كنتُ أعاني احتباساً في البول لشهور وتنهشني آلام غير محتملة، فرحتُ أسأل الجميع كيف أتخلص منها، فأشارت عليَّ سرورة بأن آكل ما تيسّر لي من الفول الحراتي، فالتهمتُ محصول قيراط كامل! انتابتني على إثره رغبة عنيفة في التبوّل واستمر التدفق طويلاً ورحتُ أصرخ ودماءٌ وكراتٌ صغيرة وحصى تتدفق مني إلى مجرى النيل، وأطفال فيشا الملاعين يصفّقون حولي ويضحكون. دعوتُ يومها لسرورة باليسر وراحة البال، فرّجَت حبسي فرّج الله عليكِ يا سرورة في كل زمان ومكان.

لكِ في عنقي دين يا علي، بعيداً عن خالتك البومة وأبيك الشيخ الذي لا عمار بيني وبينه. أيامٌ قليلة وتتسلّم عملك في العنابر معي في ورشة الحاج بيومي، وسنجد لك قريباً مطرحاً في نفس البيت، وليتربّى عبد الرحمن وعفيفة في كنفي. لم يرزقني الله سوى بالبنات، وقد كبرن، ليتك تأخذ فتحية، والله إنها ليست أقل طيبةً من سرورة.

– أثقلتُ عليكم يا عمي... قال علي مقاطعاً صمت "إمام" وهو يرشف الشاي.

– لا تقل هذا الكلام يا بني، اليوم آخذك إلى مقهى روض الفرج نجلس إلى جوار النيل في صحبة الرجال، رجال عنابر بولاق وروض الفرج الشجعان وعمال مخزن القطارات في شارع الفَرز، هؤلاء هم المقاومة الشعبية الحقيقية.

– كنا في فيشا نستمع إلى بطولة أهالي المقاومة الشعبية، أتدري يا عم إمام؟ كم تمنيت لو غنيتُ حكاياتهم مثل حكاية الظاهر بيبرس والسيرة الهلالية.

– مازالتَ تغنّي يا علي؟

– لم أعد أغنّي منذ وفاة ودودة.

– كنتَ صغيراً بين أهالي فيشا بدار العمدة، تنشد في مديح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والكل ينصت يا علي.

– كان ذلك أيام راحة البال يا عمي.

– لا تيأس يا بنيّ، لا تحسب أن الحال سيظل هكذا، غداً تعمل معي وتكسب قوتك وتكفي عيالك، ونحن أهلك، إياك أن تنسى ذلك.

– لا أعرف كيف أردّ لك صنيعك يا عمي.

– استعد لنذهب إلى المقهى، لقاء اليوم هام للغاية.

– وهو كذلك...

روض الفرج

أحببتُ بيت عمي إمام وخالتي شلبية، شعرتُ بالاطمئنان وأنا خارج براثن الموت المتربّص بأولادي في فيشا، ولكني أشعر بالحنين إلى أمي وإخوتي و... أبي. أسقف بيوت العنابر عالية، مثل أحلامنا البعيدة، والنساء يحتجبن خلف المشربيات في بيوتهن، وإذا خرجن يرتدين ثياباً تخفي أجسادهن ووجوههن. الحواري وأزقتها ضيقة ، ولكن فيما بين جدران البيوت بعلوِّها يسقط الهواء البارد على المارّة ليرطّب القلوب الكسيرة. الآن تطأ قدماي بازلت شارع بولاق الطويل النظيف، شيء ما يشبه القطار يسمّونه هنا الترام متوقف فوق القضبان. يقول عمي إمام إن عمال الترام في حالة إضراب. لم أفهم ما يقول. لا طين ولا رماد يعلَق بخفيّ، إحساس جميل أن تشعر بنظافة جلبابك، ولكن لا مثيل لطهارة النفس من الداخل، تلك اللحظة البهية التي كنتُ أخشع فيها بقلبي الغضّ طواعيةً أمام وجه الله الكريم في مسجد المعاركية عندما لا يرغمني أبي الشيخ على الذهاب، ذلك الصفاء الذي لا يزور المرء كثيراً.

مشينا إلى روض الفرج، أعلام مصر وصور سعد باشا زغلول في كل مكان، أشجار الصفصاف والجميز وتكعيبات الكروم تتداخل أمامي مع طربوشه وشاربه... يالسخرية القدر مني! الكَرْم الذي اشتقته على الدوام يتدلّى الآن أمام ناظريّ ليّناً وشهياً وليس من شوقٍ في نفسي إليه!..

والقمر، الذي اختنق خلف العنابر في بولاق، بزغ هنا على ضفة النيل في أبهى صورةٍ له... هو أنت أيها النيل، حامل دموع أمي واشتياق إخوتي وماءً يدخل جوفَ أبي...

أسير بصحبة عمي إمام ومقاهي روض الفرج الكثيرة التي تفترش الشاطئ، يصعد دخانٌ كثيف منها، عمال وعتالون يجلسون فوق الكراسي يدخنون النارجيلة، يتحدثون بصوتٍ عالٍ حول اعتقال الزعيم سعد زغلول ورفاقه، جموع من قوم يرتدون ملابس الإفرنج ويحملون آلات موسيقية ولا يضربون فوقها، لا أستطيع أن أبرح حلمي بامتلاك شيءٍ منها، أفق يا علي... أفِقّ!..

توقّف بي عمي إمام عند إحدى المقاهي ووضع يده الكبيرة على كتفي قائلاً:

– السلام عليكم يا رفاق، هذا علي ابن أخت حرمنا، بمثابة ابني.

علت صيحات الترحيب بي، وأخذ كل منهم في التأكيد على الضيافة بالمشروبات، ثم استأنفوا حديثهم المتحمس عن الزعيم وسرعان ما اندمج عمي إمام معهم، أما أنا فكنتُ أشاهدهم وقلبي يدقّ دقاً عنيفاً، خجلاً وانزعاجاً وتعجباً، لا أفهم شيئاً مما يقولون، فانزويتُ إلى صفحة النيل ببصري الحزين، أنظر إلى الأشرعة البيض عليها تضمّد جراح قلبي الجريح. تخطر ببالي كلمة "روض الفرج": هل فيكِ من فَرَج الليلة لوحيدٍ تعِسٍ قصير اليد؟

– "بافتكارك إيه يفيدك" يا علي؟

قاطع صوتٌ لا أعرفه شرودي الطويل بدرّة الشيخ يوسف المنيلاوي: "بافتكارك إيه يفيدك". ابتسمت له وكأني أعرفه وترقرقت دمعة في مقلتي لاحظها فسترها ببصره ثم مدّ يده مصافحاً:

– أنا غريب، غريب هوى.

– أهلاً بك يا غريب... آآآ... آآآ.

– (ضاحكاً) غريب هوى، هذا اسمي يا علي.

– أنا أحب الشيخ يوسف المنيلاوي بشدة.

– إذن أنت صاحب ذائقة كبيرة.

– عشت عمري في قريتنا أحضر كل الأفراح ومولد سيدي البهلول وهارون ومجالس الإنشاد خلسةً من دون علم أبي الشيخ، حتى جاء اليوم الأجمل فى حياتي، عندما أحيا الشيخ يوسف المنيلاوي فرح ابن الأورفللي باشا، رأيتُه من خلال مربع صغير يجلس فوق كرسي في منتصف البهو المتسّع، صوته ترتجّ له جدران القصر الكبير. أصابني شيءٌ لا أستطيع أن أصفه بلساني القاصر، قشعريرة جعلتني أتضاءل ثم أتلاشى تدريجياً، شيء ما امتص حزني وجوعي وخوفي ثم حملني إلى صوت الشيخ يوسف لنحلّق سوياً في فضاء فيشا.

– تخفي دموعك كل هذا يا علي؟

– وأكثر يا غريب.

كان ذلك هو اللقاء الأول بيني وبين غريب هوى، شاب أسمر نحيل باش الوجه، بؤبؤا عينينه حالكا السواد، يقابلهما بياضهما اللامع من غير دموع، يبتسم فتظهر أسنانه البيض المتعرجة بين شفتيه المكتنزتين. علمتُ منه أصوله الصعيدية، وهروبه من قريته أثناء الحرب خوفاً من السلطة، تعلّم النجارة وهو الآن يمارسها كأهلها. غريب هوى، الذي بدا لي في تلك الليلة كروضةٍ سمراء من "روض الفرج"، صار الصديق الذي عوّضني عن فقدي لأخيٍ رجب لسنوات طِوال.

صاح محفوظ النن، أحدُ العمال، فينا جميعاً:

– ماذا ننتظر يا رفاق؟ اعتقل الإنجليز الأنجاس سعد باشا، يقتلون أولادنا في الشوارع كل يوم، البلاد تغلي من صغيرها لكبيرها، بالأمس

حاصر القتلة المصلين مسجد الحسين عقب صلاة الجمعة، وانهال عليهم الرصاص كالمطر، سقط الكثير من الشهداء، رحمة الله عليهم، وهم الآن يرسلون جنودهم إلى عنابرنا يريدوننا أن نعلّمهم الصنعة خيفة أن نُضرب عن العمل في الورش مثل عمال الترام والسكة الحديد! أي صفاقة هذه؟! هل نصمت عن كل هذا الظلم؟ هل نسكت عن حق من قُتل؟

صاح إمام في حماس:

– لا والله، لا نبرح هذا المقهى حتى نفعل مثل ما فعل إخواننا الأحرار.

تداخلت أصوات الحاضرين العالية في إصرار:

– نعم، إضراب... إضراب...

ماذا ستفعل الآن يا علي؟ ما هذا الحظ السيّئ؟

غريب هَوَى

أحاول جاهداً أن أمحو صور الشهداء من ذاكرتي، الدمَ الذي يغطي ملابسهم ويلطّخ طرابيشهم. أنا من بلد يثأر ويألف الدماء، عشتُ وسط المطاريد، ولكني لم أكن قد عهدت بعد دماءَ أبرارٍ لم يرتكبوا من ذنبٍ سوى المطالبة بالحرية. يا رب، الموت الذي نعرفه لا يوجع سوانا: معشر الأحياء. بتنا كل يوم منذ قيام الثورة في وداعٍ لأحدنا، فنزداد تعلقاً بحلم الحرية، بينما لم يكن الأسطى حسين الصعيدي، صاحب ورشة النجارة التي أعمل بها، يتحدث سوى بكلمة واحدة:

"يارب ما تدي الشباب غياب."

كيف لنا أن ننسى تلك الأيام؟ الأمل الذي نتنفسه والحماسة إذ تملأ قلوب قوم مؤمنين به. خُطب سعد باشا ترنّ في آذاننا. تكالبنا على جمع توقيعات المصريين على الصيغة التي أحفظ حروفها عن ظهر قلب: "نحن الموقعين على هذا قد أنَبْنا عنا حضرات سعد زغلول ورفاقه في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر تطبيقاً لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى"...

هتاف الأطفال فى الحارات والأزقة:

عفريت الليل بسبع رجلين،
وسنانه سود من أكل الدود،

يا مصر متخافيش،

ده كله كلام تهويش...

قامت الأفراح في العنابر وزغردت النساء من المشربيات بعد رضوخ بريطانيا لمطالبنا. لا أعرف رجلاً في العنابر لم يذهب لاستقبال الزعيم ورفاقه عند عودته من المنفى. كان مشهداً مهيباً، أقرب إلى الخيال، بثّ الغلّ والحقد في نفوس الإنجليز والشراكسة، الكل يغنّي: "مصرنا وطننا... سعدها أملنا". كان لدى كل بيت شهيد، ولكن مصر التي ماتوا من أجلها أغلى.

بعد هدأة النفس ومرور أشهر على الحدث العظيم، أجلس وحيداً على شاطئ روض الفرج كالعادة، أقذف الحجارة وأصنع الدوامات الصغيرة، أتساءل عن جدوى الفرحة إن لم تكن صافية، وما فائدة كل ما حدث إن لم يعوّض نفساً واحدةً أُزهقت ظلماً وعدواناً؟

يشاركني علي، صديقي الطيب، أفراحي وأتراحي، أحببتُه كأخ لم تلده أمي، أتلهّف لأنتهيَ من عملي فأذهب إليه أنتشله من جحيم الفرن وطرق الحديد الملتهب لتناول غداءنا سوياً. عاد الصمت يهيمن على صديقي. في غمرةِ هتافنا بين الجموع كان علي مثل أسد يزأر في وجه الطغاة. أراقب وجهه خلسةً فلا أصدق أنه ذلك الفتى المحزون الجالس على الشاطئ حيث تهرب عيناه خلف أشرعة المراكب إلى وِجهةٍ مجهولة. لم يكن يهتف بل كان يحترق!

– "اليوم، أنا أو حزنك يا علي. قلتُها بإصرار.

– يا غريب، هل تحسب أنني من يدقّ الحديد؟ أنا من تُدَكّ عنقه في كل طرقة. لستَ أباً بعد يا صديقي، لن تشعر بذلك الآن.

– صرتَ عاملاً ماهراً يا علي ولا غنى عنك في الورشة، وتكسب قوت يومك والحمد لله. لا تنظر للحال في هذه الأيام، إنها أيام بالغة الصعوبة

علينا جميعاً، وستنقضي بإذن الله.

– كم أودّ أن تنقضيَ، أو أن تنقضي أيامي!

– يا أخي، أبعد الله عنك كل شر، لا تفكّر في شيء اليوم، سآخذك في جولة للنسيان.

– نسيان! هات يا غريب هوى، هات.

مشينا سوياً على شاطئ النيل، تساقطت علينا وريقات الخريف الصفر الهاربة، نمرّ بشجر الصفصاف الضخم، يتدثر باعة السميط بملابس ثقيلة. كل شيء يبدو ساكناً عذباً في ليل بولاق، إلا من صخب دورية الإنجليز. أستطيع أن أشتم الآن رائحة حشيشة جيدة، يبدو أنك ذو حظٍّ يا علي!

جلسنا في ركن صغير على الضفة الخضراء، تظلّنا عشّة صغيرة من الخوص تحيط بها الأغصان المتشابكة من كل جانب وقد بدأت تتعرى من أوراقها، تلك "عشة نعمان"، حيث يجلس خمسة رجال غيرنا ملتفين حول النارجيلات المدجّجة بالقنّب، تمتزج ضحكاتهم بالدخان الكثيف. هنا يبدو أننا في عالم آخر، أكثر دفئاً، خارج صخب العنابر وبعيدٍ عن قذارة الإنجليز ومضادٍّ لكلمات ثقيلة كالحزن والخوف والهم.

– تفضل يا أسطى! قال صبيٌّ مناولاً علي النارجيلة.

– هيا خذها يا علي، اسحب بعمق.

سحب علي نفساً عميقاً من بوصة النارجيلة، ثم سعل بشدة كعادة المدخنين المبدتئين، ضحكنا حتى الدموع ونحن نشاهد أثر حشيشة علي الأولى عليه، كان مبهجاً جداً أن أسمعه يقهقه، ثم بدأ يفعل الشيء الذي أتمنّى: وضع يده على صدغه الأيمن وشرع في الغناء صادحاً:

كادني الهوى وصبحت عليل
مثل النسيم في روض الحسن

حِبي قمر، طالع على غصنه
كَله أدب وطرب وجميل
ملوش مثيل.

في العشة، شعرت أن هموم علي تتلاشى تدريجياً، ظلّ يغنّي حتى مطلع الفجر، والصحبة تتمايل على صوته العذب المعذِّب. أما أنا فقد أخذني صوته إليها، إلى عينيها في الكحل، تمنّيان قلبي بموعد قريب عند "أثر النبي"، حيث رأيتها ملفوفةً في ملاءتها السوداء لأول مرة، يدها البضّة تبرق في سوارٍ ذهبي حول معصمها الصغير، وكعباها الحمراوان يمشيان فوق قلبي لا فوق الأرض. آه، "حِبي قمر، طالع على غصنه".

ليس بمقدور المرء ألاّ ينسى، من لم تنسِه الليالي سيُنسيه حتماً خدر حشيشة نعمان، أو "الهوب هوب"، مشروب "باستاولو" زهيد الثمن المخلوط بالبوظة والسبرتو، أو نهد امرأة لعوب يمتصّ أحزانك من بين شفتيك...

أنا أيضاً أريد أن أنسى، أنسى الليالي التي مالت رؤوسهم فيها على صدري وبأناملي أغمضت جفونهم.

"يا ربّ ما تدّي الشباب غياب."

نذر شلبية

كثرت المومسات في الزقاق. لا والله، بل هن كذلك منذ أتينا إلى العنابر، يختطفن الرجال "عيني عينك". وهل بعد خلع "اليشمك"[1] ومزاحمة الرجال في الشوارع والخروج إلى المظاهرات سنرى خيراً؟ يا لعارنا! ما هذا الزمن الغريب؟ نصف النساء سيئ السمعة والنصف الآخر مثل الرجال بشوارب؟

قلبي عليكِ يا فتحية يا ابنتي!

عندما جئنا إلى بولاق كان إمام لا يزال شاباً يافعاً، ذراعاه مفتولتان وله ابتسامة – عندما يصفو – مثل اكتمال البدر. شاغلته الحيّة اليهودية التى تسكن أمامنا فى الزقاق، وتتعمّد فتح مشربيتها كلما لمحته، فترفع عنها برقع الحياء وتغمز له وتُظهر مفاتنها للرجل. لم يردّها عنه سوى أن أفضح أمرها أمام أهل الزقاق، فقذفتها بكل سباب تستحقه وأنذرتها أنها لو عادت إلى مثل تلك الفعلة اقتلعت عينيها بيدي وهي حية.

أما السبع بسلامته فظل يلاطفني سبعة أيام وأمنع نفسي عنه، وفي كل مرة أعيّره بذوقه السيئ وأنه يترك العسل ويذهب إلى البصل، ولم أعفُ عنه إلا عندما أهداني سوارين ذهبيين وقرطاً بدلاية ذات فصٍّ أزرق، اضطررت

١ اليَشْمَك: حجاب شفاف تركي الأصل يغطي الوجه.

إلى بيعها عند تزويج فايزة ابنتي الكبرى.

ما أشبه الليلة بالبارحة! أول أمس سمعت خطوات علي صاعداً على الدرج، فخرجت كي أنير له خطواته بالمصباح، فسمعت همس منى، ابنة سنية العجوز صاحبة المنزل وطريحة الفراش منذ أعوام، توسوس له الفتاة بكلمات لا حياء فيها، تلصق جسدها بالشاب وتحاول تطويق رقبته بذراعيها، رأيت علي يقبّلها في فمها ويمسك بصدرها معتصراً إياه. جنّ جنوني، فهبطت على الدرج وأنا أطوي حذائي تحت إبطي، وانهلت عليها ضرباً به وحذّرتها من تكرار فعلتها. طأطأ هو رأسه خجِلاً مما فعل ولم ينطق بكلمة. لا أصدق ما يحدث للفتيات، أي لعنة أصابتهن؟

لا يجب أن يظل رجل بلا امرأة هكذا، ولا أستطيع أن أضغط على ابن أختي سرورة أكثر من هذا كي أزوّجه من فتحية ابنتي. يسكن علي الآن في غرفة أعلى سطح المنزل. عبد الرحمن وعفيفة قرة عيني وقد صارا الآن ولديّ. يعمل علي في الورشة مع إمام ويكسب قوت يومه، ماذا ينقصه كي يتزوج؟ لا أدري!..

– يارب يا ساتر.

– من بالباب؟

– أنا رجب يا خالتي ومعي أمي.

– (باكية) يا أهلاً وسهلاً، لا أصدق عينيّ، سرورة! أختي الحبيبة! ما كل هذه الغيبة أيتها الجاحدة؟ كيف حالك؟ كيف حالك يا رجب يا ابن الغالية وأخو الغالي؟ تعال يا عبد الرحمن أحضر عفيفة، جدتك سرورة وعمك رجب هنا.

– الحمد لله يا شلبية اشتقت إليكِ، (بدموع مختنقة وهي تضم الطفلين) أفتقدكم بشدة، لا أستطيع أنَ أتحدث والله، قلبي يؤلمني من فراقكم. أين علي يا حبيبتي؟

– إنه في الورشة مع إمام، لن تسعه العنابر فرحاً لرؤيتكما اليوم. أما إمام فلربما فعلها وفرّق شربات احتفالاً بمجيئك يا سرورة. ما هذا الذي أحضرتيه؟ هل نحن غرباء؟

– إنها أشياء بسيطة من ريح فيشا يا خالتي.

– بارك الله بكم ولكم يا رجب. أنتِ كما أنتِ يا سرورة، بجمالك وطيبتك وحنانك.

– لا حرمني الله منكِ يا أختي، يعلم الله وحده حالنا في غياب علي (تبكي مرة أخرى).

– علي ابني يا سرورة، أكرمنا الله به أنا وإمام، لا أستطيع أن أصف لكِ كم نحبه هو وعبد الرحمن وعفيفة.

– أعرف، يا شلبية، أعرف، ولكن أليس بيته وأبوه وأمه وإخوته أولى به؟ هل كان صحيحاً أن يهجر بيته ويرحل عن فيشا؟ هل كان عدلاً أن يحرمني منه ويبخل علينا بالزيارة؟

– ربما كان هذا هو الخير يا سرورة، رُبَّ ضارة نافعة، هو الآن أفضل حالاً وفي يده صنعة جيدة، لا تلوميه على عدم الزيارة، الحياة هنا تأخذ الجميع، وانقلبت البلد فى أقل من عام وهاج الناس وماجوا في الثورة، كانت الأحوال صعبة على الجميع يا أختاه. سأقوم لتحضير طعام الغداء، والله أحار ماذا أصنع لكما، ليتني أقدر على تقديم كبش في وليمة، ولكن "اليد قصيرة"... وأنتِ يا فتحية تعالي سلّمي على خالتك وابن خالتك. (بصوت خافت) كلِ بناتي تزوجن يا سرورة ولم يتبقَّ سواها، قلبي يعتصرني ولكن كيف عسانا نعترض على إرادة الله؟

– فرّح الله قلبها وقلبك وجبر كسرها يا أختي الحبيبة.

هل ستخطب سرورة فتحية لعلي؟ يا الله! كم أتمنى هذا من كل قلبي! لن نجد لفتحية أفضل من علي ولن يجد هو أحنّ منها على ولديه. أعرف،

ليست فتحية امرأة جميلة ولكنها طيبة القلب، والله إنها أكثر بناتي حناناً على الإطلاق، هو نذر عليّ لسيدي "أبو العلا" صاحب الكرامات والمعجزات أن أطبخ الفتة والضأن وأوزّع على المساكين في مسجده.

بعد قليل، دخل علي من باب البيت المفتوح، تسمّر في مكانه للحظات مجاهداً دموعه، هرع إلى صدر سرورة التي راحت تنظر إليه بحنان ولوم وشفقة، يقبل يديها وقدميها، تكرر سرورة كلمة واحدة على لسانها : "أهكذا يا علي؟" أفلتته أمه بصعوبة بالغة ودفن رأسه في جلباب أخيه. بكى عبد الرحمن الطفل الصغير من بكاء أبيه، ثم وصل إمام لاهثاً متعرقاً كعادته، وقد فرح بأهل فيشا ونشر المرح في البيت وهو يداعب سرورة ويشاكسها ويعيد على مسامعها من جديد حكاية قيراط الفول الحراتي!

بعد الغداء، انفردت سرورة بعلي وجلسا سوياً يتحدثان قرابة ساعة من الزمن. استبدّ بي الأمل فأخذتُ أتأهّب لتوفير اللحم من أجل نذوراتي لأبي العلا، ثم خرجَت سرورة بصحبة علي دامعةً، فعرفت أنه ما مِن زواج ولا نذورات.

وقتها انكسر بداخلي شيءٌ ما ولم يعد أبداً كما كان!..

"إن كيّال الغلال يعمل لمصلحته، وذلك الذي يجب عليه أن يقدم حسابه تاماً لأحدهم يسرق متاعه، وذلك الذي يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة، وذلك الذي يجب عليه أن يقضي على الفقر يعمل على العكس، فمن ذا الذي يكبح الباطل إذن؟

إن الإنصاف قصير ولكن الضرّ يمكث طويلاً."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل الثالث

القرنص[1]

يا من أرى عجب العجايب
ومكحل العينين وماشى دايب
دمع العين بَلبَل المنديلي
على فتى يشبه القنديلي.

أغنية ساقية (تراث مصري)

١ القرنص: أُطلق هذا الاسم على الأماكن التي كانت تخدم الجيش الإنجليزي في مصر أثناء الاحتلال.

المارشال جراي

على المرء أن يظل على وفائه للكتاب المقدس، وللحرب المقدسة أيضاً، مهما غلّفتها السياسة بنكهات المصلحة الدولية. ولكن من الصعب أن يظل المؤمن مستمسكاً بتعاليم المسيح في وسط تلك الفوضى. يارب ألهمنا القدرة والثبات أمام كل هذه المحن، ماذا يفهم – بحق الإله الحي – هؤلاء الفلاحون في السياسة أو في الدساتير كي يصيرَ لهم صوتٌ مسموع؟ ماذا تُراه يدرك المصري البسيط عن إمبراطورية عظيمة لا تغيب عنها الشمس؟ عن الشعوب الكثيرة التي تخضع للحماية البريطانية؟ إن اقتران اسم بريطانيا بمصر والسودان لا بدّ أن يبعث في نفوسهم العزة والفخار، ولكن كيف لنا أن نعلّم الرعاع هذه الحقائق؟!

هل كان يجب أن ينصاع اللورد إدموند اللنبي ويلغي الأحكام العرفية والحماية البريطانية؟ من المؤكد أنّ حلاً آخر كان متاحاً دون الحاجة إلى تنازل إنجلترا لشراذم الوفد والحزب الوطني، ولا أعلم ما سر التفاف هؤلاء المصريين حول "سعدهم" هذا ولماذا تقوم ثورة من أجله؟! بل ويتجاسر الفلاحون ليقاطعوا بريطانيا!

شيء مثير للضحك!

حتى الغواني قاطعن الإنجليز!

إن الخسائر التي تكبّدتها البلاد كبيرة ولكني لا أستطيع أن أحتمل

إعلان هذا المنتفخ أحمد فؤاد الأول نفسه ملكاً على مصر مزهواً: "لقد منّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا، وإنا لنبتهل إلى المولى عزّ وجلّ بأخلص الشكر وأجمل الحمد علي ذلك، ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ونتّخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا ما يتّفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية".

استقلال! عبث ووهم...

لا تُقدِّر الشعوب الضعيفة البائسة ما تفعله بريطانيا العظمى من أجلها، لقد انتشلناهم من الفقر والجهل وفتحنا لهم الحياة النيابية وسمحنا لهم بإصدار صحف يسبّوننا فيها! ماذا جَنَت إنجلترا؟ يموت جنودنا كل يوم، يصطادهم الرعاع كل ليلة في شوارع القاهرة... أكره هذه المدينة، لذلك طلبت نقلي إلى هنا، إلى معسكرنا في "وادي حوف"، حيث الهدوء والاستجمام وجو حلوان البديع، لا يعكّر صفوي سوى تلك الوجوه السمراء التي تعمل هنا في المعسكر. بأي صفاقة تأتون للعمل لدينا فتأخذون مالاً تدفعه لكم إنجلترا، ثم تزأرون في الشوارع مطالبين بالاستقلال؟

– الطعام يا سيدي المارشال. قال جندي إنجليزي مدخِلاً صينية الطعام إلى حجرته.

– ضعه هنا يا تشارلز.

– أتأمرني بشيء آخر يا سيدي؟

– كلا.

لَكَم نحن متسامحون أيها الرب يسوع، لكم تحمّلنا من المتاعب في هذا البلد! في أثناء الحرب، وقبل أن تتوجّه القوات إلى شبه جزيرة (جاليبولي) العثمانية، جاء الجنود الأستراليون يحمل كلٌّ منهم كنغراً من

بلاده يلاطفه ويداعبه كأنه امرأته! يحسبونها نزهة! كنا نسخر من طفولتهم وقدرتهم على الابتسام في وجوه هؤلاء العبيد السُّمر وأخذ الصور التذكارية معهم تحت سفح الهرم إلى جانب رفقائهم من النيوزلنديين، فكانت النتيجة المتوقعة هزيمة الحلفاء على يد الأتراك في "جاليبولي"! ليس هناك جنود في صلابة الإنجليز، ولا يصلح كذلك الفرنسيون للزحف والقتال، يهدرون الوقت والجهد في ما لا يفيد! ويحسبون أن لا أحد يمتلك رؤية ثاقبة سواهم... إنجلترا هي التي تتحمل أخطاء الجميع في النهاية!

(منهمكاً في الأكل محدّثاً نفسه) نحتاج إلى ساسة أكثر حنكةً هذه الأيام، ستظل المهمة سهلة للغاية طالما امتلأت نفوس العرب بالطمع والجشع، وطالما راودتهم أحلام السلطة الكذوب التي أبداً لن تكتمل مثل برج بابل، وذلك لأنهم أغبياء، فستجد بريطانيا دائماً رجالاً مثل الشريف الفاروقي، تَعِدَه بقيام دولة "محمد" بعد نجاح ثورتهم التي اندلعت برعاية بريطانيا العظمى! وهل كان هناك بدٌّ من ذلك لمواجهة العدوّ العثماني؟ هل كان هناك بدّ أيضاً من منح اليهود وعداً مماثلاً بقيام دولة "صهيون" في فلسطين؟!

عن أي ثورة تتحدثون أيها الحمقى؟ عن ثورة عرابي؟ ذلك الجندي الحالم الذي لا يفقه شيئاً في السياسة وألاعيبها؟ ماذا كان مصيره ومصير تلك الثورة؟ سيكون هناك دائماً شركسي خائن مثل علي يوسف يفتح لنا الأبواب في التل الكبير، ستنتهي تلكم الفوضى قريباً جداً كمثيلاتها في السابق.

الشِّقاق يلوحُ في أفق وادي النيل على الدوام، وهذا النهر الكريم الذي يشقّ تلك الصحراء لم يفلح أبداً في مساعدة المصريين على إدارة شؤون بلادهم بأنفسهم!

(مُشعلاً غليونه) يبدو كأن بريطانيا تصنع تاريخ العالم بمفردها، تلك ضريبة الممالك الكبرى عندما تضطر إلى إدارة الكون، فليساعدنا الرب. ما يحيّرني حقاً هو الكراهية، ذلك الفلاح الجديد علي الذي انضمّ إلى الأُجراء في المعسكر، لمحتُه وأنا أتفقّد الأحوال بالداخل، رمقني بتحدٍّ وغلّ، وهو يهبط بالمطرقة فوق الحديد الملتهب. كان بوسعي أن أرديه قتيلاً بسلاحي، ولكنني آثرتُ أن أتجاهله أكثر، ربما واتتني قريباً فرص أكبر لإذلاله. أشعر أن ذاكرتي تخبو في هذا البلد الحار وكأن مخي ينصهر بالتدريج. لماذا يكرهنا المصريون؟ هل هو الحقد والغيرة اللذان يأكلان قلوب الضعفاء تجاه من هم أقوى وأقدر؟ أم هو دين المسيح الذي نعتنقه؟ مثلما يكرهون الدائنين حملة القراطيس النصارى؟! أم هي كراهية العنصر المتمدن صاحب الحضارة والأصول العريقة؟ هل بوسع ذلك الفلاح الحقود مثلاً أن يعزف البيانو بمهارة؟ أو يستمع إلى أوبرا؟ أو يفهم لوحة من عصر الباروك؟!

إنه أمر مضحك للغاية بمجرد أن يتخيّله المرء!

اشتقت إلى بلادي، إلى الثلوج البيضاء في ويستمِنستر، إلى هوائها البارد وأمطارها الغزيرة، إلى سفوح الجبال الخضراء ورحلاتنا القصيرة أنا وڤيونا زوجتي على ضفة نهر التِيمز في الآحاد، نلتهم التفاح ونشرب من زجاجة نبيذ عمرها خمسون عاماً، حتى ذلك الذي يُرسَل إلينا ليس أبداً كنبيذٍ يختلط برذاذ التِيمز القافز إلى كأسي... لا شيء أبداً هنا له طعم الوطن.

شتّان بين شمس ويستمِنستر عزيزة الظهور وبين شمس مصر المجانية المتاحة للجميع!

إرنست وعلي

جاء يومٌ أسود أضطرُّ فيه إلى العمل لدى الإنجليز! ملعونةٌ أيتها الحاجة وأنت تدفعين الحُرَّ إلى شيءٍ مشينٍ كهذا، للعمل في معسكر أعدائه، لطأطأة الرأس، لانتظار مالهم يُدسّ في يده. ماذا عساه يفعل غريب مثلي عندما يُغلَق مصدر الرزق الوحيد لديه؟ عندما يجد نفسه مسؤولاً عن أسرتين؟ لم يعد عمي إمام قادراً على العمل، وأصبحتُ بين عشية وضحاها عائلهم الوحيد، وليتني أستطيع فأمدّ يدي لأحضر لهم نجماً من السماء لقاء معروفهم الذي لن أقدر على تأديته ما حييت.

شيءٌ واحد هدّأ من ثورتي لبعض الوقت، ما قاله لي مرعي طرابمبه، ابن العنابر وزميلي في "القرنص"، ذات يوم:

"أنت لا تفقه شيئاً يا علي، تلك الأموال أموالنا، وهذه الأرض ملكنا، نحن نأخذ حقوقنا فحسب، ثم إننا نصيد جنودهم ليلاً مثل الفئران في شارع الفَرز وعند مخازن القطارات. المقاومة الشعبية لم ولن تتوقف يوماً واحداً، نحن بحاجة إلى وجود رجالنا بالداخل".

ظلَّ كلام مرعي يرنّ في أذني، محاولاً بلع إحساسي المرّ بالهزيمة وأنا أعمل تحت براثنهم، وجوههم الحمر وعيونهم الزرق تطاردني في كوابيسي، أحلم كل ليلة بأعيرتهم النارية تخترق قلبي ورأسي، بينما يناديني ابني عبد الرحمن، وابنتي عفيفة تبكي، تؤرّقني صورة جنودهم حيث

أبصرتهم يتدرّبون على الطعن بـ"السونكي" في دُمَى من القش، فكانت في خيالي جسدي ممزقاً وقد غمره طِعانهم بالدماء!

أدقّ الحديد وأتصوّر المارشال جراي تحت مطرقتي مهشِّماً رأسه، هنا في المعسكر تجد الأبيض والأصفر والأسمر والأحمر، هوّن عليّ هذا الأمر كثيراً أن أطوف العالم وأنا واقف هنا بلا حراك. حاول أحد الخواجات الإنجليز المُشرفين على العمل أكثر من مرة أن يلضم حديثاً معي، كنتُ أدفعه دوماً بعيداً وأتّقي كل كلمة يلقيها عليّ بدرع صنعتُه في خيالي من الكراهية الخالصة لا من الحديد، أتجنّب النظر في عينيه الواثقتين، أشعر بالوخز وأنا ألمح تجاعيد وجهه المتراكمة في جنباته تنكمش وتنفرج مع لهجته العربية المشوهة. الخواجة إرنست، بشعره الفضيّ وصوته الحاد المرتفع، يتجوّل بيننا، يأخذ بيد هذا ويضرب على يد ذاك، عندما يقترب مني تفوح منه رائحة الكحول، تُسقمني حتى حبات عرقه الغزير تعلو جبينه وتتساقط على حاجبيه الكثيفين وأنفه الطويل الأحمر.

قال له إرنست مقاطعاً أفكاره:

– أحسنت يا علي... حاول أن تضرب بقوة أكثر.

لا يلتفت إليه وينهمك في ضرب الحديد بالمطرقة.

– علي، أريد أن أتحدث إليك بعد الانتهاء من العمل.

– سأتأخر عن سيارة الجيش التي تقلّنا بعد العمل.

– لا تخف، سنتحدث قبل الانصراف بربع ساعة. سأنتظرك، لا تتأخر.

انصرف قبل أن أتفوّه بكلمة رفض أو موافقة، يكاد الغيظ يمزقني ولا أستطيع أن أخمّن ماذا يريد مني الخواجة!

أذهبُ إليه أم لا؟ كيف أستطيع أن أقول "لا" هنا؟

مشيتُ بين جموع العمال في المعسكر، بين جوالات المؤن الكبيرة المتراصّة وصناديق الطعام والشراب والمعدات والورش العديدة المتجاورة، ترنّ كلمات مرعي في أذني: "نحن نأخذ حقوقنا فحسب". اعتدتُ صفير الآلات، مع أنني في تلك اللحظة بالذات هربتُ إلى فيشا لأسمع زقزقة عصافير النيل، حتى وصلت إلى مكتب الخواجة إرنست. تهللت أساريره عندما رآني، أما أنا فرمقته بالنظرة الحادة ذاتها. سمح لي بالجلوس وبدأ يسأل عن أسرتي وعن محل إقامتي، فأردّ باقتضاب، ثم باغتني بسؤالٍ لم أكن أتوقّعه بعربّيته المتكسّرة:

– لماذا تكرهني يا علي؟

– أكره إنجلترا التي تحتلّ بلادي وتنهب خيراتها. أكره المملكة التي يتّمت الأطفال وقتلت الشباب واغتصبت النساء.

– ولماذا تخدم إنجلترا ما دمت تكرهها إلى هذا الحد؟ لماذا تقبل مالها المدنّس بدماء الإخوة وأعراض النساء؟ أنت تردّد كلمات لست مقتنعاً بها يا علي.

– اللعنة على الفاقة التي حملتني على العمل لديكم.

– اسمع يا علي، أنا رجل وحيد، لا ولد لي ولا زوج، جئتُ إلى هنا مُكرهاً في البداية ولكني وجدتُ الجليد الذي يسكنني يذوب تدريجياً تحت شمس مصر الدافئة الحنون. أنا أحب بلادكم جداً يا علي.

– ماذا تريد مني يا خواجة؟

– لا أريد سوى أن نكون صديقين.

– أنت تطلب المستحيل.

– ألا تعرف سويفي وشبل ومختار ومرعي؟ كل هؤلاء أصدقائي، اسألهم عن الخواجة إرنست، وللحديث بقية أيها المتمرد.

خرجتُ من مكتب الخواجة وكأن أحدهم قد أزال حملاً ثقيلاً عن

صدري، أعاد لي كل الهواء الذي امتُصّ مني عنوةً. قفزتُ إلى سيارة الجيش التي تجوب صحراء حلوان وحتى قشلاق العباسية، أمرّ بثكنات قصر النيل الحمراء فتغلي الدماء في عروقي، طوال الطريق أفكّر في شيء واحد: كل ذرة في جسدي تلفظ كل ما هو إنجليزي، يزفّنا بعض الأطفال وهم يصفقون ويضحكون:

يالي رماك الهوى
حوّد على السلطة
يقلّعوك الهلاليل
ويلبّسوك سترة

هل أخطأتُ عندما تركتُ فيشا؟
اشتقتُ إليكِ يا سرورة... يا أمي.

نبيّات ونِكلة

لستُ امرأةً كغيري، أدرك ذلك تماماً، وأعرف أيضاً ما يدور في رؤوسهم الآن وهم يحدقون فيّ ذاهلين! ولكنني حقاً لم أكن أعرف أن حالي سوف يؤول بين يوم وليلة إلى امرأة بمفردها مع ابنتها التي لم تبلغ من العمر عامها الثالث بعد. كان من المفترض أن يدفعني ذلك إلى الضياع! فعندما حللتُ هنا، في بولاق، مع طفلتي باحتياج إلى العمل ظنوا أني ضعيفة، ولا أنكر فلقد شعرت بذلك لمرة واحدة بالفعل ولكنها – لحسن الحظ – لم تكن تلك المرة.

كنتُ نبيّات أخرى، طفلة بضفيرتين يومَ أُخذتُ من بلادي إلى المحروسة، في القطار ومن خلف مَلسي الأسود وبجوار رجل يقولون إنه حارس الملك وإنه زوجي كذلك. حاولتُ التحديق في كل الأشياء التي مرّت مسرعةً أمامي من نافذته فلم يكن في إمكاني التمييز بينها، حتى الأشجار التي آلفها أكثر من نفسي والأرض السمراء إذ تغوص في وحولها قدماي الصغيرتان، والسماء التي كلما حاولت الهرب إليها طاردني صمتها المطبق حيال ما يحدث لي؛ السواقي الكبيرة الدائرة وأشباح الجنيات التي طالما رأيتهن يحركنَها في قريتي... كل تلك الأشياء كانت تتماهى مع دموعي. والقطار لا يكترث مستمراً في دهس سنوات عمري الماضية.

ولكنى لستُ امرأةً كغيري، أدرك ذلك تماماً يا أهل العنابر، ولذلك

لم أعبأ بغضب أهلي وتبرّئهم مني ومن فعلتي، ببساطة لأن الأشياء لا تعود كما كانت أبداً، لن أعود صبيةً بضفائر لم تعتد بعد وضع "الحوَاية"[1] كي تحمل الجِرار فوق رأسها، ولن أعود إلى دارنا الصغيرة بفم آخر، ثم لن يعود البيت كما كان ليحتويني وسط إخوتي... ضيق مهما بدا رحباً.

أنا نبيّات، التي أوسعت زوجها حارس الملك هذا ضرباً، وكوّمت لحمه فوق لحم الحيّتين أمه وأخته، جزاءً بما ظلموا. لعنة الله على الرجال عندما يذلّون النساء، ولعنته على النساء اللاتي يصمتن ولا يدفعن عن أنفسهن الذلّ والمهانة، سوء طباعه وبخله وخسّة الحيتين معي، إذ تمنعان عني الطعام، أنا وابنتي، لم يعد محتملاً.

"حارس الملك قال"! كلبه، بل عبده المطيع؛ ذكر البط الذي ينتظر ذبحه كل ليلة، عندما تختاره الملكة الأم لتلتهم لحمه السمين.

دَورٌ يأتي على الجميع، لطالما حكى لي عن زملائه الذين تسرّبوا من بينهم، واحداً تلو الآخر، ولم يدرِ أحد أين اختفوا. يا حسرةً على الرجال! بعد ما فاض الكيل قررتُ أن ألقّنه درساً لا ينساه، فضربتُه ورحلتُ مع ابنتي إلى هنا، أصنع الجبن وأطحن الحنطة وأخضّ اللبن خضاً؛ أضحك وأشاكس عمال العنابر وأخبز لسيدات روض الفرج ولا أجد حرجاً في مساعدة الست عواطف في حمل زوجها القعيد ووضعه في المغطس لنقوم بتنظيفه معاً، ثم يجأر في وجهينا بصوته الغليظ المرتفع: "يا حضرات السادة المستشارين"... أصابنى الفزع عندما حدث ذلك للمرة الأولى فأشارت إليّ الست عواطف مطمئنةً إياي، ثم استرسل الرجل في خطبةٍ يدافع فيها عن أحدهم بحماس كبير. كنتُ أتمنى لو وجدتُ من

١ الحَوَايَة: قطعة من القماش تضعها الفلاحة فوق رأسها كي تحميها عند حمل الأشياء الثقيلة.

ردّ الظلم عني مثله!

أمشي في الصباح الباكر على حافة النهر فأسافر مئة مرة إلى قريتي مع الأشرعة البيض وسط البضائع فوق متون المراكب، أحتضن ابنتي في الليل وأغوص في رائحتها العطرة التي تشبه نور الفجر الأول.

لماذا تستغربون؟ هل تلك المرة الأولى التي تحمل فيها نبيّات "عربة كارّو" بمفردها؟ سأصعد بها إلى سطح بيت الستّ سنية، يجب حمل عربة "عم أمين" قبل أن يسرقها رجال "نكلة" عنوةً تعويضاً عن الإتاوة التي يعجز المسكين عن دفعها.

"نكلة" فتوة حارات القلاّية والعدوية والتوني وسانت كروفت، برغم كراهيتي الشديدة لها إلا أنني لا أملك سوى أن أحبها أيضاً، ولا أعرف كيف حدث هذا. سمعت طويلاً منذ جئت إلى بولاق عن حكايات الطغاة من الفتوات ولكنها كانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها وأسمع عن فتوة امرأة. "نكلة" ليست مجرد إحدى طغاة بولاق إنما استثناء لقاعدة لم تُخرق من قبل. أذكر لقاءنا الأول جيداً، امرأة بدينة اعتلت كرسياً كبيراً مبطّناً في قهوة سلامة، تدخن النارجيلة بلا انقطاع وترتدي منديلاً (بأوية) ملوّناً فوق شعرها الأسود المموّج، يتصاعد الدخان الكثيف من فمها المرسوم بأحمر الشفاه، وقد ظهر لها شارب رفيع كشارب امرأة أهملت تنظيف نفسها لسنوات. تفحّصتني عيناها الجامدتان دون أن ترفع قوسَيْ حاجبيها الرفيعين، بينما كانت تسبّ عربة امتلأت عن آخرها بالعوالم قائلةً: "لبؤات"، أجبرت رجالها على أخذ الإتاوة المفروضة منهن في الحال. ربما كانت صدفة ظهوري أمامها جعلتني في مقارنة معهن فصرتُ في موضع شفقة، فلم تكترث لوقوفي في صلابة أطلب منها تشغيلي بإلحاح عفيف دون توسل. وافقت نكلة على تشغيلي بل وكلّفت أحد رجالها بتوفير مسكن لي بصحبة ابنتي وأن يوصي المالك

ألاّ يأخذ مني إيجار الشهر الأول من إقامتي لديه.

ما أفعله الآن يعرّضني لغضب نكلة وبطش رجالها، فلربما طردتني من الحارة إلى الأبد. ولكن لن يحتمل "عم أمين" ركلةً واحدةً من خف "عيد" ولا صفعة ساخرة على خده النحيل، سيسلّم العربة بكل هدوء وسيحتمل هو الأمر راضياً مصدقاً أنها إرادة الله، أما أنا فلا أستطيع تحمّل ذلك.

في طريق الصعود بالعربة إلى أعلى، وبعد فك أسر الحمار العجوز وضربه على مؤخرته البيضاء ليتناسى آلام مفاصله المنتفخة ويركض بعيداً عن تهديد عصابة نكلة، أتصبب عرقاً ويُحكّ قدمي ذيلُ قطّ منتصب فزع من صوت العجلات. لمحتُ ظلاً يتهادى من أعلى ليسقط فوق العربة، تجلّى صاحبه ببطء وهو يحدّق في مستغرباً، ساعدني في دفعها دون كلمة واحدة: شابٌّ خمريّ البشرة يرتدي ملابس نظيفة، بدت عيناه جميلتين وواسعتين للغاية ولم يَحُلْ الحمل الثقيل دون تبادل النظرات، بينما يرخي كلٌّ منا أهدابه من وقت لآخر اتقاءً لشيء كأنما يوخزنا. وصلنا إلى أعلى بمشقة وكنت ألفظُ أنفاسي بصعوبة ولم أقرن لهاثي بشيء آخر سوى بصعود الأربعة طوابق، أما هو فسكن سريعاً وجلس إلى جانب العربة بعجلاتها ذات الخشب النخِر المتشقق، تخيّلتُ نفسي مثله وتمنيتُ أن أصير مكانه ليؤنسني الشابَ الوسيم.

باغتني بسؤال لم أتوقعه:

– ما اسمكِ؟

– نبيّات.

– لماذا فعلتِ ذلك؟ ألا تعرفين ما يلحق بأحدهم لو تحدّى نكلة؟

– بلى، ولكنَي لم أفكّر في العاقبة يا سي...

– علي.

– يا سي علي. أنا ألقي بحمولي على الله.

– سنرى نتيجة فعلتك يا ست نبيّات. هيا أوصلكِ كي أطمئن عليكِ من رجال نكلة. لستِ من هنا، أليس كذلك؟

– لا داعي يا سي علي، سأكون بخير. بلى، أنا من الفيوم.

– وما الذي أتى بكِ إلى بولاق؟

– تلك حكاية طويلة.

– اسمعي، سنهبط سوياً وسآخذك إلى بيتك ومهما حدث أثناء سيرنا لا تحاولي التدخل في الأمر.

– جزاكَ الله خيراً يا سي علي.

سبقني علي إلى أسفل وكنتُ أشعر بالخجل الشديد. استأذنتُه في أخذ ابنتي من بيت الست سنية في الطابق الأول. فتحت لنا منى، ابنتها، ورمقتني بحدة عندما وجدَت "علي" خلفي، وسألته بلهجة غاضبة بعض الشيء: "كيف أحوالك يا سي علي؟" ردّ باقتضاب وسار إلى خارج العقار، هرعتُ خلفه محتضنةً ابنتي وأنا أختبئ خلف المَلس والطرحة... لأول مرة أشعر أنني أسيرُ في ظل رجل! مررنا من الحارة بسلام ثم فوجئنا برجال نكلة يمسكون بالعم أمين أمام البيت الذي أقطن به، كانت الكدمات تغطي وجهه ويقطر الدم من رأسه وعندما أبصرونا ألقوا به على الأرض فسقط بلا حراك، حاول أحدهم منعي من دخول البيت فدفعه علي بقوة وهو يصيح بي كي أصعد سريعاً. كنتُ خائفةً عليه، وشعرتُ بذنبٍ كبير، وشردتُ في الاحتمالات كافة التي قد تودي بحياة الشاب الكريم.

أغلقتُ عليّ وَابنتي باب الغرفة وأشعلت نار البابّور بسرعة كي أغليَ كمية كبيرة من الماء، وهرعت إلى الشباك الصغير أشاهد بطولة علي مستبسلاً أمام نبابيت (هراوات) عصابة نكلة، فسكبتُ الماء المغلي من

أعلى فوق أحدهم فأخذ في الصراخ، حتى لاح رهط من عمال العنابر يحملون السيوف الطويلة ودارت معركة طاحنة بين الفريقين. انتهز عليٍ الفرصة وحمل العم أمين إلى زاوية بعيدة عن محيط المعركة، أبصرَ شبحاً لسيدة تقف على رأس الحارة تراقب المشاجرة الدائرة ثم أخذت في الاقتراب، تمشي بثقة وثبات بينما يهتز ردفاها وصدرها وخشخشةُ يديها في الحليّ الذهبية ترنّ في الآذان. كنتُ أعرف أنها هي، نكلة. صرخت في الجميع كي يتوقفوا عن الضرب، وسبّتهم جميعاً فرداً فرداً، وعندما سألت عن سبب العراك وحكوا لها ما جرى نظرت إلى علي في تحدٍّ، وطلبت منه أن يصطحب رفاقه إلى خارج الحارة. رفض الرجل أن يرحل قبل أن تقسم نكلة بعدم تعرّض رجالها إليّ، فأقسمَت بشرفها وتوشك ضحكة ساخرة أن تخرج من فمها الكبير. شعرتُ بفرحة كبيرةٍ وملأني الزهو وغمرني الرضا وبتُّ ليلتي في حضن ابنتي أحلمُ بعليٍ يحملني ويصعد بي إلى سطح بيت الست سنية الذي اكتسى بالخضرة وتوسطته أشجار التفاح والبرتقال والمانجو، بينما حِمار العم أمين في انتظارنا وسرجه مصنوع من خيوط ذهبية وقد نبت لَه جناحان كبيران ليصعد بنا إلى الأعالي حتى لمسنا القمر والنجوم بأيدينا...

علي ونبيّات

تُرى كم مرّ من عمري؟ هل هذا هو أنا؟ الشاب الذي رحل عن فيشا بطفليه ولم يكن قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً بعد؟!

لا أدري بالتحديد ما حدث، ولماذا تذكّرتُ عمري ثم نسيته فقط عندما أبصرتُ نبيّات؟ ولماذا امرأة تحمل "عربة كارّو" تدفعها إلى سطح بيتنا وليست إحدى العشرات من نساء الجيران؟ أو حتى إحدى الفاتنات اللاتي يأخذني إليهن غريب هوى فأسقط كورقة شجر فوق أجسادهن الطرية؟ ماذا كنتُ أريد عندما تزوجت نبيّات؟ هل كانت الشفقة؟ أم الإعجاب بشجاعتها وهي المرأة الضعيفة؟ أم شعوري بالزهو عندما خرّت – وهي كالجبل – أمامي خافظةً بصرها خاشعةً لأمري؟

ولماذا لا يكون الحب؟ وإلا ما الذي جعلني أهيم بعينيها المكتحلتين وأحلم بالسكن تحت ظلال أهدابهما الطويلة؟ وما تلصّصي على كاحليها عندما جلسَت على الجانب الآخر من العربة التي تفصل وتجمع بيننا في الوقت نفسه؟ لماذا أنتِ يا نبيّات أصارع من أجلها في معركةٍ لم تشهد مثلها العنابر منذ فترة طويلة؟

كنتُ على يقين بأن الله ليس بظلّام للعبيد، الجبّار: جابر الكسر، رأف بحالي وطبطب على قلبي الجريح بيدٍ علي... حمل معي حِملي مثل أول يوم رأيتُه فيه، كاد يُقتل على أيدي عصابة نكلة ولم يبالِ. من أين في هذا

الزمان برجل مثل علي يقتل فيه البشر بعضهم بعضاً من أجل "مليم"؟ كنتُ أعلم بما سيحدث مسبقاً، معارضة عائلته وخوفه على عبد الرحمن وعفيفة، وتوتر العلاقة بينه وبين خالته وابنتها فتحية التي أرادوا تزويجه إياها... رأيتُ سرورة الجميلة يوم العرس، فشعرتُ بكراهيتها الشديدة لي رغم أنني أحببتُ وجهها الأبيض المستدير منذ الوهلة الأولى وتدلّت بعض خصلات شعرها الذهبية الممتزجة بأبيضها من تحت طرحتها السوداء؛ إحساس مرّ بالظلم عندما تشعر أنك تحب أحدهم بينما لا يطيق هو لك صوتاً ولا رؤية. أما الشيخ فرفض الحضور وأثّر ذلك في علي كثيراً، لكم أردت لو كان بإمكاني رؤيته فأخمّن كيف سيبدو علي عندما يشيخ. أما عمي إمام، ورغم مرضه وعدم قدرته على الحركة، فأصرّ على المجيء محمولاً على أكتاف أولاد العنابر، وانفرجت أساريره و"ياعشاق النبي" تتردّد في الحارة، فظهر فمه خالياً من الأسنان تماماً إلّا من سنٍ وحيدة في فكّه السفليّ، يسيل لعابه وكأنه طفلٌ صغير قد بدأ يسنّن لتوه!

جميلةٌ هي، بل أجمل من كل اللاتي رأيتهن من قبل. جسد نبيّات ينبض بالحياة، وكنتُ ميتاً. تصطف شعيرات سود دقيقة حول منبت شعرها فتصنع حليةً دائرية تؤطّر وجهها الأبيض. في يومنا الأول لم أكن أشعر بالقلق أو الاضطراب، كانت هناك قوة خفيّة تجذبني إليها فاقتربتُ وأزحت عنها طرحتها وقبّلتُها في فمها، أردتُ أن أتذوق لسانها وهي تناديني "سي علي"، ففعلتُ. وجدتني هادئاً جداً أريد بشدة أن أتأمل كل شيء فيها على مهلٍ، كل ما اختبأ عني تحت الملس الأسود، كل تموّج وتكوّر، كل ثنية وتجعيدة جاد بها جسدها الريان... تلك الحرون العصيّة كيف تصير مطواعةً هكذا بين يديّ؟

اكتوى قلبي بشهوات متتابعات في بيوت النشوة، فوق الأسرّة الملوّنة التي تفوح منها رائحة الإثم. في بيت فكيهة، أبداً لم تكن الملاءاتُ بيضاء،

أبداً لم تكن نظيفة، فى كل مرة كنت أهرب من ودودة بين فراش ووجه ملوّنين، لأن ودودة وحدها كانت اللون الأبيض: لون الطهر والمرض والموت. مع نبيّات أغواني الأسود وامتصّ حزني كله ثم جاهرَ بحنقي وثورتي. أسود نبيّات كان فيه من أسود سرورة الكالح الذي كنتُ أختبى خلفه خوفاً من بطش أبي، وفيه من فاقتنا ومن طين قريتي ومن الدفء الذى نهرع إليه حول الفرن البلدي. لم يكن هناك شيء بمقدوره التصدي لأبيض ودودة سوى أسود نبيّات!

علي رجل "يجري القرش في يده" ولكنه مسرف، أفسدته حياة العزوبية وفُجر الإنجليز وجلسات روض الفرج مع غريب هوى وثلة العنابر التي يعود منها مخموراً حيناً وحيناً مشبعاً بالحشيش والدخان. استطعنا أن نستأجر مسكناً فى الطابق الأول أكثر اتّساعاً في "عزبة بلال"، وذلك بعد ولادة عبد الله بوقتٍ قصير... ما أجمله! إنه يشبه سرورة تماماً ولكم أفرحني ذلك، ورث عينيها الزرقاوين وبياضها الشاهق وشعرها الذهبي، ومع ذلك لم أشعر بها تلين لمولده وتغفر لعلي زواجه مني. يتكفّل علي بعائلة إمام ولا يمرّ يوم واحد دون أن يزورهم. أحياناً أشعر بالغيرة، لا بل تأكل قلبي نارها كلما شردتُ في تلك الزيارة اليومية وما يشوبها من احتمالات، هاجس أن تخرج منى لتستقبل علي وما يمكن حدوثه بينهما، ثم هاجس أن تشحنه شلبية ضدي وتوسوس له بما أكره. بمجرد وصوله البيت أتنفس الصعداء ويعود قلبي الحائر إلى صدري من جديد.

هذا الشيطان عبد الله، كم هو شقيّ! مدلّل وتحار أمه في تربيته. كلما نظرتُ في وجهه وأبصرت فيه من الخبث والذكاء فَطنتُ إلى طيبة إخوته عبد الرحمن وعفيفة وإنعام ابنة نبيّات. صار عبد الرحمن رجلاً الآن يحمل مني ومن جده ملامح متداخلة، يحتضن إخوته مثلما كان رجب يحتضننا، سَمِح الوجه وطيّب القلب وسليم النيّة، ذهب إلى الكُتّاب وحفظ جزءاً

يسيراً من القرآن الكريم. أما عفيفة فكأنها ودودة، الشيء الذي يُبكيني سراً كلما رأيتها تمشّط شعر إنعام. عفيفة أم حنون ولو أنها لا تزال صغيرة ويتيمة الأم من قبل أن تتذوق لبنها. ازدادت نبيّات جمالاً وألقاً، وأنا على حالي معها، يثيرني أسودها في الملس مثلما يثيرني فوق فراشنا، تلك الناهد المنتصبة عندما تصحو من نومها تنثر الفُرُش ليتخللها نور الشمس، في كل مرة أفاجئها وأدخل عليها دورة المياه فأجدها عاريةً ناثرةً شعرها المبتلّ منفرجة الساقين، تفرك كعبيها بالحجر الخفّاف. أبتسم وأنا أنظر إليها باشتهاء، خجول تبحث عمّا يستر نصفها الأعلى، فأستمتع بارتباكها. أعرف أن نبيّات تكره كعبيها بشقوقها الخشنة وتبذل أكثر من نصف وقت الاستحمام دعكاً فيهما. لا أدري لماذا تحملين كل تلك الأشياء من فيشا يا نبيّات؟ حتى قدميّ أبي؟ وملمس حصيرة العمدة أقف فوقها حافياً أغنّي؟ عندما أضاجعها أحكّ قدميّ في قدميها لأنني أحب ملمسهما الخشن، لا كما تحسب هي كي أحثّها على تنعيمهما. آه من قدميك يا نبيّات وما يفعلان بي!

لا أفهمك يا علي، كيف أنت سعيد بتلك الحرب؟ كيف يصير المرء سعيداً بالحروب؟ بهذا الخراب؟ بالناس يموتون رعباً قبل أن يموتوا بطلقات الرصاص والغارات؟ أعرف أنك تكره الإنجليز أكثر من أي شيء؛ من الفقر والظلم... ولكني أكره الحرب. أخشى على أولادي وعليك وعلى هذا البيت الذي يؤوينا. أخشى على أهلي المتبرئين مني وأهلك الذين يكرهونني. اللعنة على الإنجليز والألمان والطلاينة كافة... علامَ يقتل هؤلاء المجانين بعضهم بعضاً؟

وابور زلط[1]

لم يكن علي يحسن قيادتي في بادئ الأمر، كانت يداه ثقيلتين جداً، كونه حداداً لا يجعله سائقاً محترفاً إلا بشقّ الأنفس، الراحتان المدرّبتان على الطرق لا تقدران على الثبات فوق تارة قيادة. بدأت حكايتي مع علي عندما طلب من القادة نقله إلى مكان آخر غير وادي حوف، ورغم أن حجته بدت منطقية للغاية، وذلك لأنه صار رجلاً متزوجاً، إلا أنني علمتُ السبب الحقيقي في ما بعد: يكره علي كل ما هو إنجليزي، وخاصةً بعد انتهاء الحرب وهزيمة الألمان وانكسار الحلم في الجلاء. يعكفُ علَى تجريف ذاكرته من الفترة التي اضطر فيها للعمل داخل القرنص، وحتى لو لم يزل فعلياً تحت مظلّة الإنجليز هنا فوق تارتي، إلا أن استنشاق الهواء خارج معسكر البيض يصير محتملاً وقابلاً للتصديق؛ هنا يستطيع علي استيعاب أن يهاجم أفراد مثل مرعي طرابمبه الجنود ليلاً بعد انتهاء ورديات العمل في القرنص!

سائق وابور زلط وليس حداداً بعد الآن، وبدأت تتعلم كيف تقود الهرّاسات يا علي، ومن السخرية أن يعلّمك الخواجة إرنست القيادة: الرجل الذى توسّط من أجلك وتكرهه أكثر من المارشال جراي فقط

١ وابور زلط أو "الهرّاس" أو "المدحلة": مركبة تُستخدَم في رصف الطرق.

لأنه بريطاني ويحبك!

من المفترض أنْ ليس بإمكان آلة مثلي أن تشعر ولكنها قد تعي المشاعر، قد تتحرك بعنف ووحشية كردة فعل مماثلة، وتفهم أنْ ما مِن سير بعد الآن عندما تغرق في النيل مثل وابور زلط "عم رمضان" الذي سقط في الماء بالأمس ونجا من موتٍ محقق بينما تحول الهراس إلى خردة... كل وابور إلى الخردة يوماً ما!

يغني علي كعادته، وتلك نعمة كبرى، ولو أنه يغنّي لي فأصير كالصابر على طعام واحد لأنه لا ينشد سوى للشيخ يوسف المنيلاوي. صوت علي يطغى على صوتي المتحشرج المزعج وعلى رائحة الأسفلت الطريّ الخانقة، يسكّن ناري ودَواري اللذين لا شفاء منهما طالما أنني لستُ خردة بعد، ثم تعلو أصوات أخرى نسمعها بوضوح في رحلة رصف شارع يطلّ على كوبري عباس: أصوات تهتف وأخرى تستغيث ثم أخرى تدوّي مثل الرصاص الحي. ما الذي حدث؟ هل هي تظاهرة جديدة للطلبة؟ ولكن ما بال النيل الطيب يلتهم كل هؤلاء الشباب؟ وكيف لـ"خد الجميل" – كما يقول علي – أن تنبت له مخالب تفترس الصغار؟

أبطل علي محركي ثم قفز في الماء أملاً في إنقاذ أحدهم، ظل يسبح طويلاً وكانت المسافة كبيرة بينه وبين الضحايا. هناك مشاعر لا يجب أن أشعر بها لأنني جماد، كالشفقة والخوف والغضب، ولكن أظن لو كنتُ آدمياً لتمكَّنَت كلُّها مني في تلك اللحظة. صعد علي ويده فارغة. فعلاً، لم يكن بيده شيء.

علمتُ من علي أن بعض عمال القرنص قد غرقوا في النيل من جراء تلك الحادثة التي تخلو من الرحمة، والتي سمّوها ظلماً وعدواناً باسم "كوبري عبّاس"، كأنه هو القاتل وهو المسلوبة إرادته ولم يفعل شيئاً سوى الصمت. مسكين هو الجماد وسط الآدميين قساة القلوب! لم تعوّض

بريطانيا ولا مصر أهالي هؤلاء بشيء، عكس ما حدث مع "عبده" عامل القرنص منذ عدة أشهر الذي دهسته سيارة الجيش الإنجليزي خطأً وتوفّاه الله فذهب أحد القادة إلى مسكن زوجته حاملاً حقيبةً ممتلئة عن آخرها بالمال. بات عمال القرنص يختلقون الحكايات عن كنز كبير تخبّئه زوجة عبده في بيتها، يحلم كلٌّ منهم بالزواج من أرملة صديقهم طمعاً في الكنز، ثم راحوا يصفون مفاتنها ويدّعي الواحد منهم أنه رآها ذات مرة وهو يزور عبده في بيته قبل وفاته. خابت آمالهم عندما تزوّجها أخوه، الذي يكبرها بأكثر من ثلاثين عاماً، قسراً، واستولى على الكنز الإنجليزي بمفرده.

لا أدري يا علي، لا ألومهم، ربما أغبط الآدميين على شيءٍ واحد: الحلم! ولم تكن مثلهم فى ذلك، لأنك رجل لا يحلم.

عودة وصحوة

تأكلني مشاعر الحسرة يا علي، كيف صمتَ هكذا طويلاً بعد ودودة الملاك وأفطرت على نبيّات؟! كان أيسر على نفسي أن تظل بلا زوجة على أن تتزوج من امرأة كانت تسكن المدينة بمفردها مع ابنتها!

يريدها يا سرورة، وأرسل إليّ في خطابٍ قرأه رجب يقول إنه يريدها. وها هو قد عاد إلى فيشا في زيارة قصيرة باشتياقٍ إلينا يملأ عينه وقلبه ولسانه، ويهمس في أذني وهو في أحضاني بأنه كان يريدها. ولكن بأي وجه يا علي استطعت أن تتزوج في بيت إمام؟ تُرى كيف استقبلْتَ مباركةَ خالتك وزوجها المريض وابنتهما المسكينة؟ هل تخلق الغربة كل هذه القسوة في القلوب الطيبة؟

لم يهوِّن عليّ الأمر سوى تلك الزيارة، ولن أنسى ما حييت كيف استقبل الشيخ عبد الله علي وأولاده عبد الرحمن وعفيفة وعبد الله: نظر إليه غاضباً محمرّ الوجه حتى ظننتُ أنه سيصفعه، ولكنه بكى، فارتمى علي على صدره يبكي هو الآخر، مقبّلاً يديه وقدميه، حمل الشيخ عبد الله وقبّله واحتضن عبد الرحمن وعفيفة بشدة. التفّ إخوته وأولادهم حولهم في ضمّةٍ طويلة، شعرت للمرة الأولى بعد سنواتٍ طوال بالسعادة، فقط لأن ابنيَ الآبق قد عاد إلى بيته.

أخذه إخوته وخرجوا به إلى حقول فيشا الصغرى، أجلسوه فوق

كرسي "النورج" كما كان يحب منذ صغره وكأنه أمير على البلاد. فعل عبد الرحمن نفس الشيء مقلِّداً والده. استقبله أهل القرية بحفاوة شديدة وفي الليل اجتمعوا به في بيت العمدة ليغنّي مثل أيام زمان: كانت تلك هي المرة الأولى التي ينشد فيها علي أمام أبيه الشيخ عبد الله.

ما أعذب صوتك يا بنيّ!

لهفي عليكَ يا ابن سرورة! كنتُ أراكَ في العرس وأنت جالس مثل عصفور رقيق شَفَّهُ البحث عن عش وبدت هي مثل الحدأة التي تتخطّف صغار الطيور الشاردة عن أسرابها.

جلس رجال فيشا يستمعون إلى حكايات علي عن سعد باشا والقرنص والخواجات والمقاومة الشعبية في العنابر، تحدثوا طويلاً عن الحرب المنقضية ومكوث الإنجليز فوق صدور المصريين طوال تلك السنوات الثقيلة. راقب الشيخ عبد الله عليّاً باهتمام وكان صامتاً أغلب الوقت وابتسامته مرسومة فوق وجهه، ومسبحته تدور بين أصابعه الغليظة الخشنة. لم أكن أفهم أغلب ما يقولون، ولكني لم أرد تضييع دقيقة واحدة بعيداً عن قرة عيني، ولو كنتُ أرقبه من بعيد، قلبى متعلقٌ بوجهه الجميل وصوته الرخيم. لم أرد تفويت تلك الفرصة: الشيخ وعلي جالسان إلى بعضهما بعضاً وسط رجال فيشا...

ثم أقبل على الجمع جرجس، ابن عوض، وقد عاد لتوه من حرب فلسطين.

هبّ علي واقفاً عندما رآه وصاح:

– مَن؟ جرجس؟ لا أصدق عيني. أفتقدك جداً.

– علي عبد الله؟ حمداً لله على سلامتك يا أخي. غيبة طويلة يا علي، عسى أن تكون بخير.

– الحمد لله يا جرجس، أنا بخير، حمداً لله على سلامتك أنت يا

بطل. قصّ علينا، هل عدت لتوك من فلسطين؟

– أجل يا أخي، وكان أهون علينا أن نموت هناك قبل أن تأتينا الأوامر بإيقاف القتال بسبب تلك الهدنة المزعومة.

قال سليم ابن العمدة الذي تعلّم في المحروسة:

– إنجلترا هي رأس الأفعى، تلعب دوماً على الحبلين ولا يعنيها سوى تأمين حدودها التي لا تغرب عنها الشمس! والصهاينة مجرد أتباع مثل الكلاب التي تخرج للنزهة في كنف أسيادها.

– لقد استبسلنا أيّما استبسال. كانت آخر عملية فدائية كُلِّفتُ بها هي عملية ثغرة "بين النهدين"، كنتُ فيها برفقة القائد أحمل جهاز اللاسلكي الثقيل على ظهري ومعنا الدليل الذي سار بنا مسافةً تزيد على أربعة كيلومترات في أرض وعرة خطرة تمتلئ بالألغام من الجانبين. لم يكن لدى القادة خيارٌ آخر، فقد كانت قوات الصهاينة تطمح إلى تطويق القوات المصرية في "كمّاشة" محتمل أن يصل أحد فكّيها إلى العريش. وصلنا بمشقة إلى "بين النهدين" بمحاذاة مجرى منخفض تتجمّع فيه مياه الأمطار، وعلى حافة الطريق رأيناهم رأي العين بمجنزراتهم وحاملات جنودهم في انتظار الأمر بعبور المضيق.

صاح علي:

– يا إلهي! وماذا كانت المهمة؟

– احتمينا بشجرة وسمعنا صراخهم وضحكاتهم وأحاديثهم، نكاد نكتم أنفاسنا خشيةَ أن تفشل المهمة. انتظرنا قرابة ساعة نترقّب صدور الأوامر لهم بالتحرك باتجاهنا، حتى رصدنا حركة مفاجئة وعلت زمجرة المجنزرات وأزيز المحركات، فقام الضابط بفتح اللاسلكي وأرسل الكود المختصر المتّفق عليه إلى قوّادنا بفتح نيران المدفعية على الصهاينة قبل تخطّي "بين النهدين". لا أستطيع أن أصف لكم

يا إخواني كيف كانت سعادتنا ونحن نشاهد القوات الإسرائيلية تُباد عن آخرها، ولكننا لم يكن مسموح لنا بالعودة قبل التأكد من نجاح العملية. هرب بعض الجنود والجرحى الناجين لا يفصل بيننا وبينهم سوى تلك الشجرة التي احتمينا بها، كان يجب أن تسقط أكثر من قذيفة فوق رؤوسنا ولكن عناية الله أفقدتها صوابها فسقطت جميعها في المنخفض المائي المجاور!

قبل أن ينهي القائد تعليقه الأخير بنجاح العملية من خلال جهاز اللاسلكي أصابت الجهاز شظية أخرسته، حمدنا الله وسمح لي القائد بالتحرّر من الجهاز الثقيل قبل أن نتحرك عائدين إلى نقطتنا. لم نصدّق أننا ما زلنا على قيد الحياة.

علتْ أصوات الجالسين: الله أكبر... الله أكبر...

صاح علي في فرح: الله الله على بسالة المصريين. بارك الله فيك يا جرجس وحماك.

– أتدرون يا إخواني، ليتني لم أترقَّ، ليتني لم آخذ ملّيماً واحداً من تلك المكافأة، وتركوني أموت وفلسطين حرة.

نظر الشيخ عبد الله إلى جرجس الجندي منبهراً ثم أطرق، شعرتُ به رغم الجلبة والصياح، أعرف الجرح الغائر الذي لا يلتئم منذ رأى والده يُجلَد في فناء بولس، المباشر القبطي. أُدرك كراهيته لنصارى قريتنا وكيف أنه يأخذهم بذنب ما أحدثه أجدادهم، وكيف يُحمِّلهم وحدهم ذنب ضيق عيشنا ولا يلتفت إلى من هم أفقر منّا... أليس هو الرزّاق يرزق من يشاء؟ بتُّ أقصّ عليه مراراً ما حكته لي الأم ماريانا وكيف كان النصارى قديماً يربطون جباههم بشرائط لوجوب تمييزهم عن المسلمين، ولا يُسمَح لهم بركوب الدواب. الأم ماريانا – رحمها الله – بكت وهي تقصّ كيف مات جدها في بيمارستان أقامه الفرنسيون

أثناء الحملة الفرنسية، وُكِّلَ فيه تجهيز الموتى إلى رجلٍ مسلم لاحظوا أنه يقوم بشيءٍ غريب: يُقلّب الموتى النصارى على وجوههم! ولما سألوه عن السبب قال كي يسهل إرسال أرواحهم إلى الجحيم لأنهم "يُكبّون على وجوههم في النار"! لم تفلح تلك الحكايات مع الشيخ ولا كرم كنيسة العذراء معنا في اليسر والعسر، ولكن يبدو أن معجزة ما قد حدثت وهو يستمع إلى جرجس الطيب الشجاع، أراه الآن يبتسم ويغمغم: "حمداً لله على سلامتك يا بنيّ"... هل الفرحة بعلي هي السبب، أم صحوة ضمير جاءت متأخرة بعض الشيء؟

آه، لو لم يتركنا علي! لماذا شردتَ من أهلك يا بنيّ؟ ولماذا تلك المرأة التي لا يبدو أن شيئاً يكسر إرادتها ولا حتى الزوج الذى قذف بها وبابنته إلى مصيرٍ مجهول؟ ولماذا يتزوج الرجل من امرأة صلبة لا تنكسر؟ ما جدوى الحياة مع امرأة لا تشعر بالانكسار؟

كنت أحسب اغترابك قد صنع منك رجلاً حكيماً، ولم أستطع أن أدافع عنك تلك المرة أمام أبيك الشيخ مثلما كنت أفعل وأنت عائد من المولد بعُشر قرش. ولكن على أي حال، نال الوهن مني ومنه واستسلم للقدر، فليس بمقدور أحد تغييره.

كم يتبقّى من العمر كي تضيّعه من جديد في هجراننا؟ إلى متى سأظل أرجوك كي تبقى في فيشا؛ في أحضان أمك سرورة التي أكل قلبها الفقد وأحرقت عينيها الدموع؟ وهل ستعود وأنت زوج لتلك الحرون الصعيدية؟ وهل تحسب أن المال الكثير الذى دسسته في حجري ووضعته تحت قدميّ أبيك سيعوّضنا عن رؤيتك؟

كنت أشعر بأبيك يتألّم لفقدك، أسمعه يكتم أنفاسه في الليل ويكذب ويقول: "إنها قدماي المتقرحتان تؤلمانني". أنهض لأملأ طست الماء المملّح الكبير فيضعهما فيه وتخز يدي دموعه المتساقطة ولا أرفع رأسي

كي لا أراه باكياً.

لكم نحن متشابهان يا علي! أنا أستر دموع أبيك المتجبّر مثلما تستر أنت الآن امرأة متجبّرة.

"اجعل عينيك تتأملان وعَلِّم قلبك، ولا تكونَنَّ شديداً بمقدار قوتك، مَن يأكل هو الذي يتذوّق، ومَن يخاطَب يُجيب، والنائم يرى الحلم.
فيا أيها الفتى، لا تكونَنَّ كحرارة الشمس واكبح جماح اختيارك."
خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل الرابع

عزبة بلال

سيدنا دخل الميضة
طلعت له جُطّة بيضة.
سيدنا دخل البستان
طلعت له جُطة بودان.
سيدنا دخل الطاحون
طلعت له جُطة بجرون.

أغنية لعب (تراث مصري)

طَهَ بين "بُوهُوءْ و بُنّة"

قبل أن تصرخ أمي صرخةً أرجفت إخوتي كان أبي يدخّن النارجيلة ويغنّي بصوته الجميل، بينما كنتُ أنا أتأهب للخروج إلى الدنيا، يلفظني البيت الذي مكثتُ فيه تسعة أشهر بعنفٍ وغضب، لم يكن رأسي الكبير يريد الخروج، وبدا متشبثاً بالمسكن المائي الآمن، أصابع خشنة قوية عملت على جذبي إلى أسفل، ساءني أن تنتهي معاناة أمي وصراخها بطردي من داخلها إلى الأبد، فبكيتُ بحرقةٍ بينما كانوا هم يزغردون ويهتفون: ولد يا نبيّات، ولد!

الكحلُ في عينَيّ يكوي جفنَيّ، تتلقفني الأيدي وتقبّل شفاهٌ كثيرةٌ وجهي، صوتُ "الهون"[1] المرتفع الرنّان يدوّي في أذني ويفزعني، أمي تمسك بحلمتَيّ الصغيرتين المنتفختين وتعتصرهما فتنفث منهما قطراتٌ من اللبن، أبكي وأبكي... لَكَم بكيتُ وهم يضحكون! يعلو صوت أبي وهو يحدّث جدتي: "أسميتُه طَهَ... كُلُّه أنتِ يا سرورة". إبريقٌ يشعّ نوراً من كل جانب، تسبح حوله حبّاتُ الفول في الإناء النحاسي الكبير. سرّتي تؤلمني، شيءٌ ما موصولٌ بها يعبث به أخي عبد الله ويجذبه بإصبعيه. الحبل

١ الهُون: وعاء معدني يُهرَس فيه الثوم ويستخدم كآلة للدق فيصدر صوتاً رناناً وهو طقس معتاد في الاحتفال بالمولود عندما يُتمّ سبعة أيام (السّبُوع).

الصغير يقع من تلقاء نفسه من دون أن يشدّه أخي في يوم آخر. اختفى الإبريق بشموعه المضيئة، وأفرغت أمي الإناء من حبّات الفول وفرّقتها على إخوتي قائلةً: "إنها تجلب الحظ لحاملها فلا يضيّعنّها أيٌّ منكم!" ثم صبّت سائلاً أحمر في الإناء الكبير وناولته لأبي من نافذة البيت، كان يرقص بالعصا والجميع يصفّق وبدأ يفرّق ما سمّته أمي "الشربات" بين الجيران. لم يكن هذا فرحاً بقدومي بل كان احتفالاً بثورة الضباط الأحرار التي قامت بعد ولادتي بأقل من شهرين وقبل أن يصير بإمكاني حتى أن أصلب رأسي[1]!

مشاجرات عديدة بين أبي وأمي في الأول من كل شهر، ترك أبي عمله القديم مع الإنجليز وانتقل ليعمل في وزارة النقل كسائق وابور زلط، قلّ راتبه إلى الثلث تقريباً وازداد تعلّقاً بمعسّل "زغلول" في علبته الصفراء التي أحفظ شكلها جيّداً، وكثر خروجه كل ليلة مع غريب هوى، صديق عمره، ورفاقه من بولاق والعزبة. أما أمي فكأنها تحارب كي تطعمنا وتكسونا. لم يكن يحنو عليها سوى أخي الأكبر عبد الرحمن الذي يعمل "مكوجي" ويعطيها أغلب ما يكسب ويدّخر البقية من أجل حلم شراء دكان خاصة به. تزوّجت أختي عفيفة من ابن صديق أبي وسكنت في "عزبة الورد"؛ كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أبي علي يبكي وتغرق دموعه وجهه، وظل يقول لها يوم زفافها: "مبروك يا بنت ودودة، كأنك هي يوم عرسنا".

قبل زفاف أختي عفيفة اصطحبَتها أمي إلى الحمّام، تعلّقتُ برقبة نبيّات وذهبت معهما إلى هناك، دلفنا إلى الحمّام الذي يعجّ بالسيدات العاريات من كل جانب، لم أكن قد بلغت أربعة أعوام بعد، حرارةٌ لا تُطاق وبخار الماء الكثيف يحجب عني الرؤية فأدعك عينيّ وأفتحهما على وسعهما

١ أي أرفع رأسي.

لأتحقق ممّا أرى، ضحكاتهن وزغاريدهن وهمساتهن، يحطن بي، أرى كومة من اللحم يغطيها الذهب الأصفر والقِشرة، يعرضنها على بعضهن بزهو بما امتلكن من مفاتن ومصاغ، يتلامسن فيما بينهن فتمازح الكبريات منهن الصغريات ويستمتعن بخجلهن وهنّ يغطين أثداءهن وفروجهن عن العيون المتلصّصة، أكفٌّ مثل أكفِّ الرجال تدعك الأجساد الطرية النائمة فوق الرخام البارد، تأوهاتٌ غانجة، وروائح عدة تنبعث من الأجساد ما بين الطيّب والكريه، ورأسي محشورٌ بينها لا حول له ولا قوة، ذاهلاً ممّا تبصره عيناي وتشعر به أناملي الصغيرة... عالمُ النساء الذي لا يُنسى؛ ذلك العالم الغامض ولكن العجيب والمثير.

كان يوم ختاني يوماً مشهوداً في "عزبة بلال"، لا لأهمية الحَدَث ولكن لأنه تمّ على رؤوس الأشهاد. افترش الأهالي حصيرةً كبيرةً في "الوسعاية"[1] التي تتقابل لديها الحارات والأزقة المجاورة، وأمسكوا بالذكور بعد أن استدعوا حلاّق المنطقة الأشهر "أحمد بُوهُوء"، وتلك كانت تسمية أهل العزبة له كنايةً عن سعاله "الديكي" المميّز. ارتدى "بوهوء" جلبابه الأبيض النظيف وأمسك بحقيبته السوداء التي تحوي عدّة الحلاقة التي هي ذاتها عدة الختان، ثم جلس على الحصيرة وهو يشير لأمي بالموسَى فشعرتُ بأني مقدمٌ على خطرٍ كبير، شرعتُ في الصراخ حتى بحّ صوتي تدريجياً، وقد كبّلتني نبيّات بذراعيها من خلفي فباعدتْ بين ردفَيّ الهزيلين. بتر "بوهوء" جزءاً من عضوي فكان الألم لا يُحتمل وانهلتُ سباباً بذيئاً على الحلاّق وانبجس دمٌ غزير مني، وعندما أفلتتني أمي وجدتُ بحيرةً من الدماء تسيل تحتي! تلك هي المرة الأولى في عمري التي أرى فيها دماءً حارة طازجة، وكانت لسوء الحظ دمائي أنا!

١ الوسعاية: كلمة عامية دارجة تعني الساحة.

توافد الذكور من بعدي على "أحمد بوهوّ" يفعل بهم الشيء ذاته بالموسى نفسه، حتى استحالت الحصيرة الرملية إلى الأحمر من أثر مجزرة ذكور العزبة الصغار!

عندما أتممتُ عامي الخامس أرسلتني أمي إلى كُتّاب الشيخ الضرير "علي بُنَّة". كنتُ خائفاً وازدَدتُ خوفاً عندما أبصرته جالساً فوق كرسيه في حجرة صغيرة وأطفال العزبة جالسون أمامه. نظرتُ في وجهه العابس فوجدتُ إحدى عينيه مفتوحةً وحدقتها بيضاء ومعلّقة إلى زاوية واحدة بلا حراك، والأخرى مزمومة كأنها مغلقة على سرٍّ غامض، يمسك بعصا خشبية رُبِط في طرفها سوط من الجلد الطويل.

يرتّل الشيخ "علي بُنّة" القرآن آيةً آية ويأمرنا بالترديد وراءه بصوتٍ عالٍ وواضح، يستطيع بمهارة التمييز بين أصواتنا الحادة فيكتشف من أخفضَ صوته أو صمت منا فيهوي بكرباج العصا فوقه تماماً. يعلو صوتي يوماً بعد يوم، خوفاً من سوط الشيخ الموجع، ثم يصيبني التعب فأخفضه رغماً عني، أتّقي ضرباته المتتالية فأخفض رأسي خلف جسد زميلي الجالس أمامي، فينالِ منّا سوياً. كنتُ على إيمانٍ تام بأن الشيخ يرانا وليس بالضرير كما يُظهر. أُخرج نصف الرغيف المحشوّ بالجبن من حقيبتي المصنوعة من القماش فتمتدّ الأيدي لتتخطّفه من بين أصابعي عنوةً فيتفتت إلى قطع صغيرة في أفواه الأطفال الجوعى وأشعر بالظلم لأنني لم أتناول منه سوىَ قضمة صغيرة لا تسدّ جوعي، بينما تقذف أمي في حِجر زوجة الشيخ "علي بُنّة" عدداً من أرغفة الخبز "المفقّع" الذي أحبّه والبيض وقطعة كبيرة من الجبن القريشِ الذي تصنعه بنفسها في بيتنا.

ولكي نهرب من الكُتّاب كنّا نتذرّع بقضاء الحاجة خارج الحجرة الصغيرة الخانقة، ونتجمّع في الساحة المهجورة خلف المنزل فيهرب منا من يهرب ولا يعود. وعندما اكتشف الشيخ أمرنا كان يحصي عدد الأطفال

المتسرّبين وقد حفظهم جيداً، فيخرج إلى الساحة ويهوي بالكرباج فوق ظهورنا العارية أثناء قضاء الحاجة قبل أن نتمكّن من الهرب. عدتُ من الكتّاب ذات يوم وأنا مصرٌّ على ألا أعود، وتلك كانت المرة الأولى التي أصرخ فيها في وجه أمي وأقول لها بصوتٍ عالٍ ليس بخفيضٍ أبحّ مثل الذي أردّد به القرآن: لا!

انصاعت أمي لرغبتي، وكانت تضمر لي نيّةً أخرى وهي إرسالي لمدرسة الشيخ جابر. أذكر كيف حاولت إقناعي وهي تغريني بمصروفٍ يوميّ يبلغ "تعريفة"، وكيف التفّ إخوتي حولي يعدّدون مزايا مدرسة الشيخ جابر. ذهبتُ وأنا عازمٌ على الهرب من جديد إن لم يعجبني الحال بعد أن أحصل منها على التعريفة. لم تمرّ أيام قليلة حتى أصابني الملل من المدرسة التي تتكوّن من ثلاثة فصول في مسكن صغير بجوار بيتنا، حتى اقترح الشيخ جابر، الذي يدرّس اللغة العربية إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم، أن يشترك التلاميذ في "جمعية" بخمسة مليمات يومياً، فرَاقَت لي الفكرة خاصةً بعد عمل "قرعة" من بين خمس وأربعين تلميذاً استقرّت عليّ، فكنتُ أول من قبض مبلغ الخمس والأربعين تعريفة، وضعها الشيخ جابر عني في علبةٍ من الصفيح وأمرني بالذهاب إلى البيت مبكراً قبل انتهاء اليوم الدراسيِ خشيةَ أن يسرق أحد التلاميذ المبلغ الكبير مني! عدتُ إلى أمي بالعلبة الصفيح وحكيتُ لها ما حدث فلم تصدّقني وذهبت مهرولةً إلى الشيخ جابر فصدّق على كلامي، واحتفظت أمي بالمال، وقد استمرت في إعطائي التعريفة اليومية لأدفعها إلى الشيخ حتى انقضت أيام الجمعية التي لم أظفر منها بشيء سوى بفرحة حمل العلبة الصفيح الرنانة التي تحتوي على ٤٥ تعريفة.

غير أنّ وجه الشيخ جابر، الذي ظهر في بداية الأمر طيباً، ويده التي تخلو من السياط أبعدا عن إدراكي كل تشابه محتمل بينه وبين الطاغية

"علي بنّة"، ولكن الحقيقة المؤلمة أنّ ما حسبناه موسى كان فرعوناً عندما علّقني الشيخ جابر في الفلكة وخلع حذائي الصغير وانهال عليّ ضرباً بـ"الخرزانة" الطويلة إثر وشايةٍ ظالمة من التلاميذ. صرختُ ثم صرختُ ألماً حتى بحّ صوتي كالعادة، وعندما اشتدت استغاثتي تركني، فوطأت قدماي الأرض وأنا لا أكاد أشعر بها. كان بداخلي إحساس أدركتُه فقط وقتها للمرة الأولى، اسمه: الظلم! وأظن أنني وأنا أقذف المدرسة وزجاج نوافذها وتلاميذها والشيخ جابر بالحجارة كنتُ أعلن عن كراهيتي الشديدة لهذا الظلم، وقد بدأت الانسلاخ من جلد الحمل الطيب!

عبد الله وعفريت الديك الأحمر

كنت أصطحب أخي طه إلى "أرض الجمل" في عزبة الورد، حيث نقذف النخيل المثمر بطرحه من البلح الأصفر ثم الأحمر، فيتساقط فوقنا، ويفتح طه ذراعيه الصغيرتين ويتقافز فرحاً وهو يلملم البلح ويحشو به جيبيه ويملأ منه راحتيه. وفي الصباح الباكر، وقبل أن يستيقظ أهل البيت، نطلق ساقينا للريح للحاق بأول قطار يمرّ من شارع الفَرْز فندخل معه في سباقٍ وهميّ حتى نصل إلى ممرٍّ ضيق لا يتّسع سوى لجسد واحد بالكاد يلتصق بالسور العالي وسوف يحتكّ لا محالة بالقطار السريع إن لم يخرج منه في الوقت المناسب. كنتُ أدفع طه للمرور ثم أتبعه وذلك قبل مرور القطار بثوانٍ معدودة. أنا أهوى المخاطر وأصرّ في كل مرة على المخاطرة بطه أخي.

نهرع إلى حقول "الكوسى" الخضراء بعد مغامرة القطار الخطرة، نسرق منها خلسةً، من دون أن يرانا صاحبُها، الثمارَ التي لم تنضج بعد، ثم نتنقل في شارع الفرز المزدان بالغيطان والشجر الكثيف نرقب القطارات عن بعد. لا يحب طه الذهاب إلى المدرسة مثلي تماماً، نحن متشابهان ولا يشبه أيٌّ منّا أبويه، ولكن عندما تأتي جدتي سرورة لزيارتنا أشعر أننا ولداها هي، حتى عندما تصرخ فينا وتسبّنا قائلةً: "يا أولاد الفرطوس". أعرف أنني أحمل اسم جدي، ولكنه لا يأتي لزيارتنا أبداً، يأخذني أبي عدة مرات كل عام لرؤيته وفي الحقيقة لا أذهب سوى من أجل اللهو واللعب

فى الحقول. في العام الماضي كان جدي مريضاً ورأيتُ أبي يقبّل قدميه ويبكي، وأبناء عمومتي يحفّونه من كل جانب. نظرت إليّ جدتي متعجّبةً من ملامح وجهي التي خلت من أدنى تأثر، ولم أكن بالفعل مهتماً لأمر مرضه. تقول أمي دوماً إن جدي لا يحبّنا، ومع ذلك فقد حزنتْ حزناً شديداً عندما أخبرها أبي بمرضه الخطير الذي يعرّضه إلى الوفاة في أي لحظة. أما أنا فلا أشعر تجاهه بشيء على الإطلاق.

ألحقت أمي طه بمدرسة بلال الابتدائية، ولقد حذرّتُ أخي مسبقاً من الناظر "سيد الأصفر" وكيف تعاني منه المدرسة طلبةً ومعلمين. كانت نصيحتي لطه أن يهرب من المدرسة كيلا يحتكّ بسيد الأصفر من الأساس، وقد علّمته كيف يتسلّق السور ويقفز إلى الجهة الأخرى من دون أن يتأذّى. وكيف أنسى هذا الرجل وقد رأيتُ بعيني ما فعله بزملائي؟ وجهه الذي كان ممتلئاً عند صدغيه ونحيلاً عند جانبي رأسه وكأنما حفرتان عميقتان قد شُقّتا فيهما، وتلك التسمية التي كانت توافق اصفرار عينيه الدائم، لم أكن أتصور أن يتسبّب ذلك الشيطان طه في تلقينه درساً لن ينساه مدى حياته.

اكتشف "الأصفر" تسرّب طه من المدرسة فأمر حامد وعبد المحسن، الفرّاشَيْن، بالإمساك به أثناء طابور الصباح أمام التلاميذ، وقد جذب كلٌّ منهما ذراعاً وشدّه إلى أحد أعمدة المبنى المدرسيّ. هوى سيد الأصفر بالسوط فوق ظهر المسكين، والغريب أن طه لم يصرخ ولم يطلب الرحمة، ولكنه، بعد انتهاء الجَلْد، هرع إلى السور مجدداً وقفز إلى الجهة الأخرى برشاقته المعهودة، وفي ذهنه شيء واحد: الانتقام!

لم يفصح طه عن نواياه ولم يخبر والديّ بما حدث له، ولكنه حرّض بعض الطلبة الموتورين من "الأصفر" واتّفق معهم على خطة للنَّيل من هذا الرجل. كنتُ أصنع قنابل التراب بمهارة ولديّ دراية بالحيل

الموجعة المؤذية، فعلّمتُ طه كيف يصنع قنابل التراب من رماد الفرن البلدي المتراكم بجوار البيوت في العزبة، بعد خلطه بالماء ولفّه في ورق شكائر الأسمنت المهمل خلف المدرسة. تتبّع الأطفال خط سير الناظر واتفقوا على الإيقاع به في حارةٍ ضيقة يمرّ منها بعد عبور السكة الحديد ليستقلّ الأتوبيس. استطاع طهٰ أن يصنع ستة قنابل يديوية، وفي الوقت المناسب قذف بالقنبلة الأولى في وجه الأصفر فاسودّ وجهه، ثم باغته بالثانية في قمة هلعه وفزعه، فظهر الأطفال تباعاً ملقين بما حوت أيديهم من قنابل حتى فقد الناظر السيطرة تماماً وظلّ يصرخ: "فقدتُ بصري... لا أرى شيئاً..."، واستحال "الأصفر" بفضل طه ورفاقه إلى "الأسود". أما الفرّاشان حامد وعبد المحسن، فقد سكب طه مسحوق بودرة العفريت –الذي جلبه من مخلّفات مصنع الزجاج القريب منا – من أعلى سور المدرسة ليقع فوق رقبة حامد الذي ظلّ يحكّ سائر جسده وقد أصابه الجنون وهو يحاول الوصول إلى دورة المياه في أسرع وقت ليطفئ النيران التى تشتعل في جلده، بينما هوى طه بقالبٍ كبير من الطوب فوق رأس عبد المحسن فشجّه وسال دمه في الحال وقد كان قبل دقائق يردّد أغنية لأم كلثوم بصوتٍ مرتفع.

غاب الطاغية عن المدرسة وانتشر الخبر كالهشيم بأنه يعالج عينيه الملتهبة من أثر قنابل ترابية. لمح عاشور البقال طه وهو يرمي القنبلة على الأصفر، وكان صديقاً لأبي وحكى له ما حدث، فغضب غضباً شديداً وأحضر طه وهمّ بضربه، فلم يتفوّه بكلمة ولكنه خلع قميصه ليريَه آثار الجَلد، وعندما قصّ عليه كل شيء لم يكتفِ أبي بثأر طه بل جمع ثلةً من أصدقائه وتوجّهوا جميعاً بالعصي والسيوف إلى مدرسة بلال. أحسّ الأصفر بالغدر فحاول الهرب ولكن لم يمهله أبي فربطه أمام تلاميذه وسط الفناء الصغير، وأمام صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر، وأخذ

في ضربه بالعصا أمام ناظرَي أخي، ولا يجرؤ أحد أن يمنع عنه شيئاً مما يلاقي، فنام طه ليلته قرير العين وأمي تدلّك ظهره المشوه بالزيت.

أسعد لحظات حياتنا عندما نصنع الطائرات الورقية ونطلقها لتحلّق بعيداً في سماء العزبة. علّمتُ طه كيف يصنع طائرة سُداسية (موزاييك) على هيكل من عيدان البوص، يشترك كل خمسة منّا في طائرة واحدة، نرقّع الفجوات بالسوليفان الأبيض ملصقاً بقطع صغيرة من العجين في الفرخ الأحمر من الجهة المقابلة، ولكي نزيد من ثقل وتوازن الطائرة نربط في ذيلها قالباً من الطوب ونعلّق في الخيط الفاصل أكثر من موسَى قديمة نقطع بها خيوط الطائرات المزاحِمة على أرض السباق، فتعلو طائرتنا وتكسب النزال دفاعاً وهجوماً.

لا أحسب أخي طه من الإنس، إنه عفريتٌ من الجن، وهذا ما قاله العم مدبولي المسحراتي يوم كاد يموت رعباً بسبب طه ورفاقه. فقد كان الرجل الطيب يمشي في حارة "فابريكة البسكويت" ممسكاً بفانوس يضيء بالكيروسين منادياً على أهل العزبة كي يصحوا من نومهم استعداداً لتناول السحور في شهر رمضان المبارك، حتى يصل إلى مسجد "فرحات". في حارة "فابريكة البسكويت" كان هناك مصنع "الديك الأحمر"، وكان يقوم بإنتاج البسكويت الذى يحمل نفس الاسم. لَكَم ذهبنا إلى هذا المصنع الصغير نأخذ البقايا المفَتَّتة التي لا تصلح للتعبئة مجاناً! وحدث في إحدى الأيام أن وجدناه مغلقاً لحدوث جريمة قتل بداخله، وسرعان ما انتشر الخبر بأنه ملعون ومحاط بالجن والعفاريت فيمرّ الناس من جانبه بحذر شديد. كان لزاماً على العم مدبولي المسحراتي أن يمرّ من تلك الحارة حتى يصل إلى المسجد، فقام الشياطين بإعداد تل من التراب في منعطف الحارة وأثقب طه "قُلّة" على شكل وجه انسان وملأها بالقطن المغموس في "السبرتو الأحمر" الذي جمعه من ورشة

طلاء الأثاث المجاورة ، ثم تأهب الأطفال لاقتراب العم مدبولي الذي – لسوء الحظ – نفد منه كيروسين المصباح الذي يضيء ظلام الحارة الدامس في هذا الوقت المتأخر. رمى طه عود ثقاب مشتعل داخل القلة فبرزت مثل رأس من لهب فوق التل الترابي. صاح العم مدبولي ووقع منه المصباح وظل يردد "عفريت الديك الأحمر... عفريت الديك الأحمر..." بينما غاب الصغار في ضحكٍ متواصل وهم يفرّون بعيداً عن مكان جريمتهم.

يحيى و"الشيك" و"بَسَوْسَل"

الحياة هنا في العزبة وفوق سطح بيتنا وبين جدران المدرسة لم تكن تُحتمَل لولا وجود طه، صديقي الصدوق، معه جرّبتُ كل شيء للمرةِ الأولى، طعم المغامرة والخطر، الهروب من المدرسة بالقفز من فوق السور، تسلُّق الأشجار والجري في غيطان الفَرز وإيقاع البلح بالطوب، التحليق مع طائرتنا الورقية الموزايك، وأخذ كمية كبيرة من الحمص إذ يتركونه ليجفّ في "أرض الشِّركة" على ضوء الشمس، أول مرة أجري وراء قطار وأقفز بداخله ثم ألقي بنفسي منه عندما يبطئ قليلاً عند محطة بعيدة فنضطر إلى العودة سيراً على الأقدام، أول ركلة "كرة شراب"، أولَ مرة أنام فيها خارج البيت كنت إلى جانبه فوق أسفلت شارع العزبة الجديد المرصوف لتوّه، كان يشعّ دفئاً ونام عددٌ كبير من جيراننا في الشارع فرحاً به وبإزالة جبل القمامة الكبير الذي أحدث الماء غير النظيف – إذ تلقيه نساء العزبة من الشرفات والنوافذ في منتصفه – بئراً عميقة بداخله، انزاح كابوس باختفاء ذلك الجبل لأن أبي كان دائم التهديد بقذفي فيه.

مع طه بدأت رحلة الثراء مع لعبة "الشيك" على مدار عامين. جمعنا عدداً كبيراً من أغلفة علب السجائر المختلفة: البلومنت وكوتارللي وسامسونج وجولدن وست، وقمنا بترتيبها في رزم كلٌّ يحمل قيمة مالية محددة، فصرنا أغنياء، ونبادلها بفئات أكبر مع أصدقائنا الذين يلعبون اللعبة

ذاتها. استطعنا إخفاء هذه الثروة عن الجميع فوق سطح بيتنا في صندوق كبير، حتى جاء يومٌ مشؤوم حدث فيه ما لم يخطر ببالنا.

– يحيى، نوفل يريد عشرة كوتاريللي يبادلها بعشرين بلومنت، ما رأيك؟

– هذا رائع، هيا إلى أعلى.

بحثت مع طه بداخل الصندوق فوجدناه فارغاً.

– أين "الشيك"؟ أين شقى العمر يا طه؟ أمي... أمي...

دخلت أمي مرتديةً جلبابها الأسود وعليه آثار الخبيز.

– لماذا تصرخ يا يحيى؟ ما الأمر؟

– أين محتوى هذا الصندوق؟

– لماذا تسأل؟ لم أجد ما أوقد به الفرن لأخبز، فوجدت كومة من الورق القديم واستخدمته لأشعله.

– مستحيل! حرام، حرام يا أمي!

– (ضاحكةً) كل تلك الجلبة على حفنة من الورق القديم؟

– يحيى، هل ستبكي مثل بنات الفصل؟ هيا نبحث في الفرن ربما وجدنا شيئاً لم يحترق بعد.

ولم نجد سوى رماد أسود، أمسكتُ دموعي ولم أجد مَن يربت علي كتفي سواه: طه. أما هو فكان هادئاً رغم تأثره ولا أدري لماذا يبدو طفلٌ في الثامنة كرجلٍ كبير في موقف كهذا!

الموقف تكرر عندما قررت أمي ذبح "بَسَوْسَل"، الجدي الذي أحببناه بشدة، لم نكن نتمالك أنفسنا من الضحك ونحن نشاهده يأكل أي شيء يصادفه. وبينما كنا جالسَين أنا وطه أمام دكان البقالة الذي يملكه أبي، تسلّل "بسوسل" إلى بسطة الدكان من وراء ظهرينا وأخرج لسانه الطويل ليلتهم الحلوى في القوارير المرصوصة، وشاهدناه كيف ابتلع كمية كبيرة

من "الفوندام" والهريسة والملبّس، فعاقبناه بربطه بحيث لا يمكنه التجوّل ومنعنا عنه الطعام يوماً كاملاً. لن أنسى كيف ظلّ يصدر أصواتاً غريبة ليستعطفنا، فشعرنا بالشفقة عليه ووضعنا أمامه البرسيم والماء فأتى عليهما ولم يُبقِ شيئاً منهما، ثم حللنا وثاقه فراح يتمسّح بأقدامنا كأنه يعتذر! وعندما قرّبنا إلى فمه حلوى مثل التي التهمها رفض وأشاح بوجهه بعيداً عنها!

قررت أمي ذبح "بسوسل" في أول أيام عيد الأضحى. تحوّلت فرحتنا بالعيد إلى حزنٍ كبير وظللتُ أبكي كلما صعدتُ إلى السطح ولم أجد صديقي، بينما صارع طه ليظفر بقرنيه كتذكارٍ أخيرٍ منه، وعلّقه على جدار دكان أبي الأمامي.

كان هذا هو طه، في الوقت الذي لم أكن فيه قادراً على مواجهة المواقف الصعبة التي استعصت على طفلٍ مثلي، كان هو يواجهها ببسالة.

هل طه طفل في مثل عمري؟ هل زعيم الفصل في المدرسة، الذي نصّب نفسه "فتوة" منذ كان في السابعة، طفلٌ حقاً؟

اليوم الذي نشبت فيه مشاجرة دامية بين طه وفتحي، وكان الفائز من دون شك طه، بدأت الفتيات في الفصل يشكونَ إليه مضايقات الصبية واتفقن معه على الذّود عنهن من أي اعتداء مقابل وجباتهن من بسكويت الكمّون والفطائر الساخنة الشهية التي يفرّقونها علينا كل يوم في الفصل. لم يكن طه يكفّ عن العراك، لم أرَ وجهه في أي يومٍ خالياً من الجروح، وتمزق حذاؤه من كل جانب، أما ملابسه فباتت خالتي نبيّات تعالج الشقوق التي تسري في مريوله بالرّقع المخفية بلا فائدة.

السعادة التي كانت ترتسم على وجه طه عندما يندلع الشجار بين الفتيات في الفصل لم يكن لها مثيل، لأنه يعمل على جمع ما تشدّه كلٌّ منهن من شعر الأخرى، وكن يتسابقن في ذلك، فتصير معرّةً أن تنتزع

واحدة من رأس غريمتها شعراً أكثر، ويرتضين أن يحتفظ طه بخصلاتهن في علب الكبريت الفارغة داخل دكّته. و"بنك الشعر" بالنسبة إليه ثروة مثلها مثل "الشيك" بل أغلى.

أما أنا فليس لي من دور في كل بطولات طه سوى المشاهدة فحسب!

علي يزوِّج أخاً بأخت

في غفلةٍ مني سُرِق عمري كله وبيع للزمن بثمنٍ بخس، وها هم الصغار قد كبروا، أمرُّ على العنابر فلا أجدها، وليالي روض الفرج في العشش النيلية الدافئة صار لها لون يشبه الرحيل. اللون الأبيض عاد ليزحف فوق حياتي من جديد مثل بيوت العزبة تسطو على الغيطان الخضراء، ولم يعد يؤثّر فيه أسود نبيّات. اليوم نزوّج أخاً بأخته: عبد الرحمن بإنعام، ونزفّهما إلى "عزبة الورد" بجوار عفيفة، اليوم تحلق ودودة بجناحين أبيضين فوق مَلس نبيّات الأسود.

ينثر أصدقاء عبد الرحمن نشارة الخشب الملونة فوق أسفلت العزبة، ونصبوا "كوشة"[1] للعروسين في "الوسعاية". يلهو عبد الله وطه ويوسف ونجيّة وإنصاف تحت نافذة البيت الطويلة... تُرى هل يمدّ الله في عمري حتى أُزوِّجكم يا أبنائي؟ أم هو اليُتم المكتوب على نسلي؟

– مبارك يا أبا عبد الرحمن، غداً تحمل حفيدهما بمشيئة الله.

– غريب! (يحتضنه بشدة ويصافحه بحرارة) بارك الله فيك يا أخي. أطال الله عمرك.

– (ضاحكاً بسخرية) ما بالك أيها الشيخ؟ أمازال في العمر بقية؟

١ الكوشة: مكان مُزيّن لجلوس العروسين في حفل الزفاف.

– آه يا غريب، لا تُذكّرني. أحياناً أحسدك لأنك لم تتزوج وتنجب أطفالاً تحمل همومهم.

– احمد الله أيها النمرود. ولكن أخبرني، ألن تغنّي في فرح ابنك الليلة؟ هل مازلت تذكر، يا علي، ليالي حشيشة نعمان، و"البوظة" و"الهوب هوب" والانسجام وبيت فكيهة؟

– (يضحك) لَكَم أفتقد تلك الليالي يا غريب هوى. أتدري؟ كنتُ أتمنّى لو كان الشيخ يوسف المنيلاوي على قيد الحياة وكان معي أجرة إحيائه لفرح ابني عبد الرحمن. يا إلهي! العرس الذي لا يحييه الشيخ يوسف ليس بعرس.

– هل تذكر خليفة المذهبجي الذي كان يجلس معنا في العشّة؟ هل تذكر ما قاله عن صوتك؟

– (تملأ وجهه ابتسامة كبيرة تنيره) فيه الخير وفيكَ أيضاً يا أخي، ولكني أذكر شيئاً آخر، أذكر تلك الحكاية التي قصّها علينا والتي تخصّ الشيخ يوسف ومحمد عثمان حيث كانا ينشدان في زفاف أحد الأعيان، وفجأةً دخل عبده أفندي الحامولي فتوقفا عن الغناء وجهزّا له التخت ثم اكتفيا بمقعدين بين المذهبجية يردّدان وراءه:

ياما إنت واحشني وروحي فيك

يا مآنس قلبي لمين أشكيك؟!

قال غريب والدموع تترقرق في عينيه:

– أتمنى لو أنشدتها لنا اليوم يا علي. كان صوتك في عتمة الليالي هو النور الوحيد الذي يضيئها، تمرّ أمامي لياليا وكفاحنا ونضالنا، مازالت صورتك وأنت تمسك بمطرقة الحديد طازجة في ذاكرتي، وهتافك في الشوارع من أجل سعد باشا في أذني، وذبولك عندما عملت في القرنص، وحنقك وكراهيتك للإنجليز التي لم تفارقك يوماً واحداً. هل قررت عيناً

الآن يا علي، بعد ثورة الأحرار ورحيلهم وعودة مصر للمصريين؟ أما آن الأوان أن تفرح؟

– (يبتسم بمرارة) لم يعد في العمر بقية كي نفرح يا أخي. البركة في الأولاد، أليس كذلك؟

– سأذهب لأسلّم على عبده وإنعام.

ما أبهاك يا ولدي في حلّتك! ابن ودودة يتزوج! إنعام... "اتمختري يا حلوة يا زينة". الحمد لله الذي يجعل الفتيات يشبهن أمهاتهن إلى هذا الحد، فلا ننسى صورهن القديمة مع تآكل الذاكرة. أين نبيّات؟ أين ذهبت تلك المرأة المجنونة؟

– مبارك يا أبا عبد الرحمن... (تداهمه نبيّات من الخلف) ما كل هذا الجمال يا امرأة؟ هل هو عرس إنعام أم عرسك؟

تضحك ويتورّد خداها خجلاً.

– يا رجل! كبرنا.

– لا والله! لا أبصر من شعيرة بيضاء واحدة تسري في رأسك!

تضحك بصوت عالٍ.

– زوّجنا الأولاد يا سي علي، هل تصدق ذلك؟

– (جاذباً إياها من يدها) مالنا ومال الأولاد الآن؟ اسمعي، ألا تريدين أخذ حمّام؟ هيا، تعالي يا نبيّات.

– لا يصحّ، لا يصحّ. بعد الزفّة يا سي علي. انظر، البنت فاتنة الليلة!

– عبد الرحمن أحلى يا نبيّات!

– (تضحك) وهل هناك مثل عبد الرحمن في الدنيا؟

– بالطبع، أنا. أنا أبوه وأفضل منه، هل لديكِ اعتراض؟

– سي علي! بارك الله لنا في عمرك ولا أرانا الله فيك بأساً أبداً.

يطوقها بذراعيه ناظراً إلى العروسين.

– سلمتِ يا أم العيال.

– أم عبدَ الله، أبا عبد الرحمن، تلغراف من فيشا... تصيح أم حلمي الجارة.

– يارب سلّم.

يتغير وجه علي ويهرع لاستلام التلغراف.

– يارب... يارب.

تلحق به نبيّات.

"الشيخ عبد الله فى ذمة الله. أخوك رجب".

أبي... أبي... الشيخ عبد الله حظ مات! أبي مات! أبي يا سرورة! أبي يا نبيّات!

الشيخ وسرورة

لقد رأيتُ هذا من قبل، جذب شيءٌ ما روحي إلى أعلى وخفّ جسدى الثقيل فجأةً فطار في الهواء. لا شيء بجانبي سوى السحب، أقفز بين كل سحابة وأختها كأنها إسفنج. نظرتُ إلى أعلى نحو الفضاء الواسع المظلم فكأنه صنع من أشباح لوجوهٍ كثيرة لا حصر لها، وجوهُ كل البشر، ووجهي يصعد بثبات نحوهم حتى استقرّ في مكانه المحسوب. التفّت دوّامتان من الغبار الكوني في محجَريّ، وكأنما ابتُلعت عيناي وبرقت مكانهما نجمتان!

مازال طست الماء الكبير معدّاً من أجل قدميك، مازال ينتظرك، ومازلتُ أحدّق في الوسادة حيث كان رأسك يرقد. البيت لا أحد يا شيخ، البيت لا أحد ولو عجّ بهم جميعاً، ولو اتّشحن بالسواد وعلا نحيبهن، لا أحد... أتحسّس جدرانه فكأني ألمس يديك التي بَنَت هذه الدار من أجلي، ولم يكن قد فعل أحدهم أي شيءٍ من أجل سرورة سواك.

جسدي هناك في طين فيشا معجوناً به ومنه. في قريتي يدفنون الموتى تحت الطين مباشرةً كغرس بذرة قمح. أسوأ شيءٍ في الموت أنك لا ترى الشمس ولو تسلّل إليك ضوءُها من حينٍ لآخر. تُراه أكان الموت مخيفاً وموحشاً لو رأى الموتى الشمس؟ يخطو أولادي وأحفادي فوق جثماني، لا عظمة اليوم لأحد، لا أرض ولا مال ولا عيال...

أهكذا يا شيخ عبد الله؟ تسبقني إلى هناك و تصدّق الرؤيا التي حلمتُ بها قبل رحيلك بعدة أيام؟ رأيتُني أحملك رجلاً قزماً متعلّقاً برقبتي، يُجهدني وزنه الثقيل رغم قصر قامته، أمشي بك بين رجال كثيرين، كلهم جالس، تتفقّد وجوههم كمن يبحث عن شيء لا يجدُه. أنارت محيّاك ابتسامةٌ عندما نظرتَ إلى أحدهم، وأخذتَ في جذبي نحوه كي أقترب أكثر، فإذا به وجه أبيك!

لحسن الحظ، حسابُ الملكين أيسر كثيراً من حساب الضمير، رحمة الله وسعت كل شيء حيّاً وميتاً، كل المعارك الوهمية التي كانت تدور في رأسي وحدي وأنا بين يدي الله مصلّياً رأيتُها أمامي، وعندما سُئلتُ عن هذا بهتُّ ثم أجبتُ بشيءٍ لم يقنعني البتّة، قلتُ ربما كان السبب هو اسم مسجد "المعاركية" فحسب!.. في دنيا الموت الجديدة أصحو كل يوم على موت شيء في جسمي. عندما جاء دور القلب، استيقظتُ على دموع سرورة وقت فاقتنا والصغار جوعى يبكون تريد أن تطبخ قلبها لتطعمهم؛ علمتُ ذلك فقط وقلبي في طريقه للتلاشي الأبدي...

يصرّ علي ألا ينقطع الجنيه الشهري الذي كان يرسله إلى أبيه. ماذا سأفعل بالمال يا ابن سرورة من بعد أبيك؟ وهل ستعيش سرورة شهراً واحداً بعد الشيخ عبد الله؟ لم يتبقَّ لي سوى عصاه ومسبحته التي يتبرّك بها من ريح الكعبة المشرّفة وغطاء رأسه الأبيض المستدير وعصابته التي كان يلفّها حوله. نَم يا حبيبي، نَم وسلّم على أبي "أبو حديد"، وألقِ التحية على أمي "تحية" إلى أن نلتقي يا أحباب... إلى الملتقى.

"يا سيدي، كن صبوراً. إن الرجل بعيد النظر يكون حليماً. لا تفكرنّ في ما لم يأت بعد، ولا تفرحنّ بما لم يحدث بعد،

ولا تكَذبنّ وأنت عظيم!

إن جوفي لملآن وقلبي لمفعم، لقد كان صدعاً في السد فتدفق منه الماء وقد انفتح فمي للكلام وعندئذ أعملتُ مجذافي لسبر الغور ونزحتُ مائي وروّحت عمّا في جوفي وغسلت كتاني القذر".

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل الخامس

الفَرْز

عَدُّوا الغلابة مع المساكين عَدّوني
قالوا نعدّك معانا قلت عدّوني
في سفينة الذل مع الَخْصَام عدّوني.

أغنية قارب (تراث مصري)

عبد الرحمن من نَحرها إلى سَحرها

على الرغم من أنه يصعب على المرء أن يحتمل شيئاً كهذا: أن يتحول زفافه إلى جنازة في لمح البصر وأن يضطر إلى ترك عروسه في ليلة العرس ويقضيها في فيشا بين بكاء وعويل ودفن ومواساة، إلا أنني لم أكن غاضباً من ذلك، فلم أكن زوجاً متلهفاً لضمّ وتقبيل عروسه مثل سائر الرجال، ولم أتحرق شوقاً إلى لمس جسدها بأناملي وتأمل مفاتنها والرّيّ من شهدها... كل ذلك شعرتُ أنه محرّم عليّ.

لم يكن جدي موجوداً لأسأله: لماذا يهجرنا الحظ يا شيخ عبد الله حظ؟ ولماذا أنا الذي أحمل أبي وإخوتي منذ وقتٍ طويل؟ أحياناً ترِد على خاطري هذه الوساوس الملعونة، فأشعر بالحزن لخروج الإنجليز من مصر لأن أيام القرنص – ولو كرهها أبي – كانت أيام عزٍّ ورخاء، على الأقل في بيتنا. أذكر جيّداً كيف كان أبي يعود إلينا في عربة كارّو ومعه صندوق من الخشب يمتلئ عن آخره بالسمك أشكال وألوان يكفينا شهراً! ومرات أُخَر بأكوام من اللحم الضأن، والمال الذي كان يخرجه من جيبه ويدسّه في حجر جدتي شلبية وجدي إمام ثم بين يديّ خالتي نبيّات، حتى انتقل إلى عمله بالحكومة فانقطع ذلك الرزق الوفير.

علمتُ منذ استفقتُ على يتمي أنني بالفعل قليل الحظ، وكانت جدتي شلبية تقول لي ذلك باكيةً وتحتضنني، ولكني أردتُ ألاّ أكون عاجزاً وقليل

الحيلة، فبتُّ أعمل بكل طاقتي منذ الصغر، ولم يكن هناك وقت أو مال للزواج. كنتُ أحب أن أقلّد أبي، حتى أني كنتُ أمسك بعصا جدي إمام وأضرب الكنبة بقوة وأتخيّل نفسي أمام فرن الحديد مثله، ويشاء القدر أن أعمل "مكوجي رِجل" وكأني آبى إلا أن أمسك بعصا.

الآن، صار لدي دكان، أشارك أبي في مصاريف البيت الصغير الكبير كعادتي، وبدأ طه يأتي ليساعدني في الإجازة الصيفية. أما عبد الله، ذلك المدلّل، فيستنكف أن يعمل معي. أشفقتُ على طه في يومه الأول، فراح يداري إجهاده الشديد، ويمسك بذراعه خلسةً وهو يتألم يحسبني لا أراه، ولكني أعرف ما يعاني جيداً، أعرف كم هو موجع أن ترفع ذراعيك الصغيرتين إلى أعلى خشية أن تلمس الملابسُ النظيفة المكوية المعلّقة في الشماعات الأرضَ، فيصيبها وسخ أو رذاذ ماءٍ قذر. يريد طه أن يثبت لي أنه رجلٌ مسؤول ويمكنني الاعتماد عليه.

ترقرقت عيناي بالدموع ليلة أمس عندما وجدتُه عائداً من بيت الأستاذ فريد المحامي يوصل إليه بدلته الرمادية. حمل لفافةً وقال: "هي لك"، وعندما سألتُه ما بها حكى لي قائلاً:

– ذهبتُ إلى بيت الأستاذ فريد كما أوصيتني، وفتحت لي زوجته الطيبة، شعرتُ بذلك للوهلة الأولى، طلبت مني الدخول فتحرجتُ واندهشتُ فقد أوصلت البدلة وأنتظر الأجرة فحسب، ولا أطمع في بقشيش كبير لأنني بدأت أعتاد المبالغ القليلة التي يعطونني إياها هنا في "عزبة الورد"، ولا أطمح كذلك في معاملة حسنة فقد ركلني أحدهم ذات مرة عندما وصلتُ متأخراً بملابسه. ولكن، على عكس كل توقعاتي، أجلستني السيدة العجوز ووضعت أمامي صحناً به ثمرة مانجو كبيرة الحجم ثم دخل الأستاذ فريد وطلب مني أن ألتهم الثمرة كاملةً. كنتُ جائعاً ورائحة المانجو العذبة تملأ أنفي، رفضتُ في حياء ثم ألحَّا عليّ،

فأخذتُ ألتهم المانجو ملتذاً بقطعها الصفراء الطرية وبسائلها إذ يتقطّر من أليافها التي تخرج من لبّها الكبير. أوشكت أن أصل إلى نصفها فتذكّرتُ أنّ هذا النصف من حقك فتوقفتُ فجأةً عن الأكل، وسألني الأستاذ فريد عن السبب، فأخبرتُه دونما خجل. كان كريماً وطمأنني بأن ثمرة مانجو أخرى تنتظرك، فاستأنفتُ الأكل مأخوذاً بحلاوة النصف الثاني الذي فاق الأول بكثير حتى أنني أردتُ تجريف قشرتها الداخلية بأسناني واستحييتُ!

ربما لم يكن قراري وحدي أن أتزوج إنعام، بل بكل صراحة لم أكن أريد هذا على الإطلاق، كيف أتزوّج أختي؟ عندما سألني طه كيف ستتزوج أختَنا إنعام، حاولتُ قرابة الساعة إفهامه وأُغلق الحديث وهو غير مقتنع، وله الحق، أنا أيضاً لستُ مقتنعاً، ولكنها إرادة الله ثم أبي وخالتي نبيّات، وأعلم أنها تحبني كثيراً بل أكثر مما يحب أبي إنعام، إنما هو قلبي لا يحدثني بشيء سوى بأنها أختي فحسب.

باب ينغلق علينا ولم تكن المرة الأولى، أنا الذي ربّى إنعام وحملها ولعب معها وأطعمها وأشربها كأم. كل عيد أعطيها العيدية قبل إخوتي. دموعها فوق قميصي تبلّله من قسوة أبي عليها أحياناً. أعود متأخراً من عملي فلا أجد سواها ينتظرني بالطعام. تزوجتُ أختي وابنتي وأعلم ذلك وأنا راض بقضاء الله، فلا يسترنّ الأخت سوى أخيها من بعد أبيها، وإنعام – رغم أَن أباها على قيد الحياة – تقول لي دوماً إنه ميّت. أضمّها ضمّةً لا شهوةَ فيها، وأربت على كتفها بحنان وهي تبكي، مشفقاً عليها مما حدث يوم عرسها. ترتدي قميصاً مكشوفاً ولحمها الدافئ يلتصق بي، تفوح منها رائحةٌ زكية وزفرتها كأنها المسك العالق بحصيرة المسجد الذي أصلّي فيه. هل ألثم شفتيها؟ هل أمرّر كفيّ فوق قشرتها البيضاء؟ أريدها أن تهدأ، أريدها أن تكفّ عن البكاء. لثمتُ جبينها فانكشف لي لمعان شعرها

الأسود الطويل الذي يتجاوز أسفل ظهرها، وجدتُ راحتي تتبع جريانه كالنهر فوق صفحة ظهرها، وراحتي الأخرى تمشى ببطء فوق وجهها أتأمله كأني أراه للمرة الأولى. تغرق عينيها الدموع، فأدعكهما عنها، اقشعرّ بدني عندما شعرتُ بحلمتيها تنتصبان من تحت قميصها العاري، كرصاصتين من شبق أصابتا صدري، فسرى في جسدي خدرٌ وهياج. هبطتُ على نحرِها أتوق إلى سَحْرِها، فشعرتُ بحزنها يتآكل فوق شفتيّ، وجسدها الممشوق يتحفّز لاستقبال اللذة فشرعَتْ في العطاء جذلانةً، وراحت هبات ابنة نبيّات تتدفق بين يديّ حتى مطلع الفجر.

عندما أفقتُ من سكرتي في صباح اليوم التالي، نهضت إنعام لتُعدَّ طعام الفطور، وجدتني أشتاقها فقلّبتُ جسدي ذات اليسار لأئتنس بدفء مكانها إلى جواري حتى تعود، فداهمني إحساسٌ عميقٌ بالذنب كرجلٍ نكح أمه، حتى أشرقَت على الباب بصينية النحاس ووضعتها إلى جواري، فغادرني الشعور بالإثم تدريجياً. ترمقني بعينين ناعستين وهي تلتفت ويبزغ منحنى صدرها فأتضور جوعاً على جوعِي وآكل فلا أشبع...

طه أمير العزبة

تبدّل تل القمامة في شارعنا بآخر عظيم من جنيهات الذهب، وسلّمني أبي مفتاحه الذهبي بعد أن ترجّل عن وابور الزلط. فتحتُ باب الكنز وغصتُ فيه ألهو بالجنيهات وأقذف بها إلى أعلى لتعود إليّ رنانةً. وجدتُ يحيى حزيناً واقفاً في الخارج ينتظر أن أشير إليه ليدخل، فدعوته إلى الداخل، أما "بسوسل" فاندفع إلينا مسرعاً وقد دفن قرنيه في الذهب. أخذتُ بعض المال لأشتري حلوى وملابس كثيرة لأمي وأبي وإخوتي وكلما أخذت من الكنز ازداد فلم أره ناقصاً أبداً.

استيقظتُ على قدم عبد الله تركلني من أعلى، ربما كان يحلم مثلي، ظهري يؤلمني بشدة، وقد كنتُ أحسب أنني اعتدتُ النوم فوق تلك المرتبة المفروشة على الأرض محشوراً بين إخوتي، كما اعتاد عبد الله الاستئثار بالسرير وحده. لا أريد اليوم أن أتشاجر مع أمي كي أذهب للعب الكرة، ولا مع أبي عندما يضبطني أقلّده وهو يدخّن الجوزة المرتكنة إلى الزاوية. لن أخجل اليوم من رُقع ملابسي، ولن أتذمّر من طبيخ أمي الواحد الأحمر الخالي من اللحم. سأغتنم فرصة الإجازة وأذهب إلى غيطان الفرز الغنّاء أُصَفّر حالماً بأني أمتلك تلك الأرض الخضراء، تحت شجرة الجميز الطاعنة في السن أجلس مستنداً إلى جذعها الضخم كقدم فيل، أرسم فوقه بسنّ حجر مدبّب عصفوراً وثمرة مانجو ووجهَ فتاة؛ أين لي

بالسبّورة والطبشور الآن؟ السطح الأملس الذي أرسم فوقه، والصور التي لا أعرف من أين تأتيني. كانت ضحكاته تخرق أذني، تتصاعد إلي أعلى مع الدخان المنبعث من غليونه البدين مثله، يقرص ردف الراقصة الشقراء الجالسة على فخذه الأيمن، والأخرى السمراء تسقيه خمراً من كأسها، متجاهلاً تل الطعام أمامه. في الخلفية تطرق امرأة في الأسود بوابة القصر الكبير بكلا يديها... كان هذا آخر ما رسمتُ بالطبشور قبل إنتهاء العام الدراسي: صورة للملك معربداً.

أشعر بالجوع، أفكّر في زيارة أختي عفيفة أو أخي عبد الرحمن ولكني أتذكّر تحذيرات أمي بألاّ أفعل ذلك سوى عند الضرورة القصوى عندما أعمل في دكان أخي. سأمرّ على "أرض الجمل" إذاً قبل العودة إلى البيت علّي أجمع بعض التمر المتساقط من النخلات، وأعود بحفنةٍ ملء جيبيّ لي ولإخوتي.

يلمح يحيى طه قادماً باتجاه البيت، يلوّح له بإشارةٍ كي يسرع الخطى:

– هيا... هيا لدينا مباراة.

– ضد من؟

– فرقة بائسة من ترعة "أبو خليفة".

– سنكسب حتماً.

– بالطبع، هيا استعد، سنبدأ بعد أذان الظهر.

ماذا سأرتدي؟ كالعادة أبحث في ملابس عبد الله القديمة، أجد سترة قطنية بيضاء وأرتدي تحتها سروالاً أزرق قصيراً، أما قدماي فلا أحمل همّاً لهما، كلنا في الملعب حفاة. كي أحصل على "كاوتش"[1] لا بدّ أن تحدث معجزة مثل كنز الذهب الكبير الذي رأيته في الحلم. لا يهم شيء

١ الكاوتش: حذاء رياضي مصنوع من المطاط، زهيد الثمن.

سوى المكسب، سوى أن نهزم فريق ترعة "أبو خليفة".

في غضون دقائق تتحوّل "الوسعاية" إلى ملعب مخطَّط، يطلّ الجيران من النوافذ فأشعر بالزهو، ندفع كرة الشراب التي تحتوي قصاصات أهل العزبة جميعاً ملصقة بـ"الكُلّة" ملفوفة في جورب من الصوف. في المباريات الكبيرة نلعب بكرة أخرى أخبّئها فوق سطح بيت يحيى، تلك الكرة بمثابة الكنز مثل لعبة "الشيك"، فقد صنعناها من إسفنج مقاعد القطار التي كنا نمزقها ونسرقه منها خلسةً. كاد أن يمسك بنا الكومساري ذت مرة فقفزنا أنا وعبد الله من القطار. لم يحدث لنا شيء!

أنا القائد هنا، أوزّع المهام على الجميع" يحيى حارس المرمى، وزكريا ظهير أيسر، وحسين ظهير أيمن، وسعيد فى منتصف الملعب، وطه يطير بالكرة حيث شاء؛ طه هو مَن يحرز الأهداف. سخونة الأسفلت تكاد تحرق أقدامنا، تعلو أصواتنا المتحمسة اللاهثة مختلطةً بصيحات الإستغاثة من شعورنا بالاحتراق وبتشجيع أهل العزبة. أسبُّ فريقى: "هل أنتم رجال أم نساء؟" تستفزّهم الكلمات فأراهم وقد أظهروا مزيداً من الصلابة في الملعب وكفّوا للحظات عن الصراخ. طه يحرز الهدف الأول... والثاني... والثالث، فريق العزبة يربح المباراة كالعادة ويحصل على خمسين قرشاً، أوزّعها بالتساوي علينا جميعاً، ثم أعود فأوزّع العشرة قروش مرة أخرى: لأمي النصف ولي ولإخوتي الباقي.

أحياناً أشعر بالظلم، لماذا يجب عليّ أن أكسب مالاً ثم أعطيه لهم؟ ولكن أمي تبكي، ونبيّات لم تكن لتبكي أبداً إلا لحدث جلل كما يقول أبي. صار يضربها كلما طلبت منه شيئاً لنا، يصرخ بأنه سيرسلني أنا ويوسف إلى الورشة كي نتعلم صنعة وهي ترفض بشدة، ثم أسمعه في آخر الليل عائداً يستعطفها كي تسامحه. اعتدتُ شعوراً بالمرارة والانكسار عندما يُزجّ باسمي في مشاجراتهما، ولكني اعتدتُ أيضاً إحساساً عذباً بالأمان

عندما تقول أمي لأبي: "أسامحك يا سي علي"، فأغوص في نومي العميق مبتسماً محتضنا أخي يوسف.

في الإجازة الصيفية تتضاعف أيام العمل في دكان أخي عبد الرحمن، وتكثر أيضاً مباريات الكرة التي أعشقها. هذا الصيف سأتمكن من شراء "كاوتش" وزيّ للعب كما أطمح. لم أعد أحب اللعب مع الصغار في "الوسعاية"، أتمنى اللعب هناك حيث شاهدت في "أرض الجمل" ذات مرة رجالاً طوال القامة يلعبون الكرة بمهارة شديدة، يقول أخي عبد الله إنهم ضمن فريق نادي الترسانة، وعندما سألني أحدهم مَن تشجّع؟ قلت: الزمالك طبعاً!

كانت هزيمة فريق ترعة أبو خليفة نكراء، وظلّ أهل العزبة يتحدثون طويلاً عن تلك المباراة، ويبدو أن الفريق الموتور ساءته تلك الهزيمة فقرّر الانتقام منا، وسلّط أحدهم ذلك الشيطان جمعة كي يدفعنا إلى نزول الترعة، وكنّا كالعادة نلهو في غيطان الفرز، فهبط جمعة بعد خلع ملابسه في الماء وأخذ يلوّح لنا بيديه يستحثّنا على النزول، ويعيّرنا بالخوف، فخلعنا ملابسنا وانطلقنا إلى المياه الدافئة.

قفزتُ في بادئ الأمر بتحدٍّ، وشعرتُ أنني مقدمٌ على خطرٍ وشيك، سبابة أمي محذرةً إياي تحتل بصري، وصوتها يتردّد في أذنيَ: "إياكَ والترعة يا طه، ستموتَ غرقاً مثل حامد ابن مصرية، المياه مُهلِكة، كل ماء مَهلَكة".

ارتطمتُ بالماء وحدّقتُ في الموت الذي أخشاه ولا أدركه. يرقص جمعة ويعلو صياحه: "جبان، طه جبان". غاص رأسي رغماً عني وانزلقت قدماي في الطين، ورحتُ أضرب بذراعيّ بكل ما ملكتُ من قوة، وعندما حصلتُ على بعض التوازن حدث شيءٌ ما في تلك اللحظة: سقط مخروطٌ من الضوء فوق قطرات الماء العالقة بأهدابي فرأيت ألوان قوس قزح أمامي

لأول مرة. اعتقدتُ أن الترعة مسحورة ومسكونة بعفاريت ملونة، وبدأتُ أتخلص تدريجياً من تهديد أمي ووعيدها وأستمتع بملمس الماء المختلط بالنور على جلدي العاري والدفء الذي يشعّ منهما يُنسيني النَّيل من جمعة الذي سبّني. أتخيّل كل غيطان الفرز ملكاً لي، وأغمر رأسي في الماء ثانيةً لتُلوِّنه العفاريتُ من جديد.

كانت الخطة تسير بإحكام، فالتقط الفريق المهزوم ملابسنا الملقاة على حافة الترعة بما فيها ملابس الخائن جمعة، وأسلموا سيقانهم للريح باتجاه "أشمغة"، فهرعنا بالملابس الداخلية وأجسادنا مبتلة تماماً تحكّها أظفارنا التي تكاد تمزقها حتى النزف، نجتهد في اللحاق بهم دون جدوى. استنجد زكريا بأبيه فوجدنا جماعة كبيرة من رجال العزبة ونسائها تمشي باتجاه أشمغة، وأمسكوا بسارقي الملابس عند المزلقان وأوسعوهم ضرباً ثم عادوا بثيابنا البالية. في قرارة نفسي كنتُ أتمنى ألاّ ترجع ملابسي القديمة، عسى أن تشتري لي أمي ثياباً جديدة، ولقد تلقيتُ بدلاً منها وصلة من الضرب المزدوج جزاءً بما فعلتُ وبعد أيمان مغلظة بقذفي في ترعة "التيرو" المسكونة بالجن الذي يتخطّف الأنفس ويغرقها، كان شعوري بالحكّة قد زال تماماً واستُبدِل بآلام مبرّحة فوق جسدي النحيل لم أنم بسببها طوال الليل، سلوايَ الوحيدة قوس قزح المنثور على أهدابي، أفكر في طريقة لرؤيته مجدداً ولو كلّفني ذلك القفز في "التيرو".

شقوق نبيّات

يا سَتّار!

يرعبني صياح الديكة كل يوم، توقظني وتوقظ معي مخاوف البدء: الفجر الذي يبدو نهاية ليلٍ جائعٍ طويل ليس سوى مقدمة نهارٍ فضّاح لا تحنو شمسه على الفقراء.

لحمي يتنفس على الأرض، رأس إنصاف في حجر يوسف، وضفيرتا نجيّة مبسوطتان على ساقَي طه، وعبد الله عاد إلى البيت متسللاً كعادته قبل الأذان بوقتٍ قصير.

شقشق الفجر، وتشققت جدران البيت الزرقاء، كل يوم تسري فيها الرطوبة، تمتص دفئاً خفيّاً يأتينا من زواياها، تشققت مثل كعبَيّ. قد نرمِّم شقوق بيتنا، قد نعيد طلاءها يوماً ما، ولكن ماذا عسانا نفعل برطوبة الروح؟ برودةٌ مقيمة تسكن عظامي! كل يومٍ أكتشف أنني جدارٌ عارٍ في الخلاء.

جديلةٌ من الصوف حول معصمي تسكّن وجعي المزمن، ونار الفرن فوق سطح البيت تؤجّج حنيني إلى دار أبي وإلى قرط أمي الذهبي يتدلّى مثل قنديلٍ مبارك في "الحسين"، يجذب شحمة أذنها إلى أسفل. لستُ مثلكِ يا أمي، ثقب أذني صغير مسدود وأنت لديكِ شُقٌّ طويل!

ماجوري المغطّى في انتظاري، أتلكأ قدر إمكاني حتى يزداد اختمار

العجين، فيدرُّ خبزاً أكثر، ويأكل العيالُ أكثر.

"عجيني بين ايديَّ والنبي فايت عليَّ".

آه يا أمي!

كلما أبصرتُ عجيني المختمر في الماجور تذكّرتُ بطني المختمر بحملي منك يا علي. تحسستُ شقّاً طويلاً آخر أسفل مني خرجت منه حيوات ومَنايا، شقٌّ صار كجلدة ميتة يسهل كشطها من كعبي بالحجر الخفّاف، كان يوماً كثقبٍ صغيرٍ في شحمة أذني!

"اللهم قوِّ نارَك على ما نطلبه وهَدّئها علينا".

تلك خطوات طه، أميّزها جيّداً.

– صباح الخير يا نبيّات.

– ألا تستحي يا ولد؟ أنا أمك!

– أمي أعرف، أنا أحب اسمك.

– (ضاحكةً) خيبة الله عليك. كم عمرك يا ولد كي تحب وتكره؟

– أنا رجل وأكسب مالاً مثل أخي عبد الرحمن، أليس كذلك؟

– (مبتسمة) تعالَ يا طه، تعالَ إلى حضن أمك.

– (يهرع إلى ضمّتها) ظهري يؤلمني يا أمي... من الضرب.

– سأزيل عنك وجعك يا حبةَ القلب، سأدهن ظهرك وأدفّيك في سرير أبيك.

– حقاً يا أمي؟ فوق السرير النحاس؟

– نعم يا حبيبي.

يقبّلها ويضمّها بقوة، ثم تُجلسه إلى جانبها حتى تنتهي من الخبيز. تنسكب فوقهما أحزمةٌ من نور الشمس تدريجياً، مختلطةً بزقزقة العصافير وصياح الديكة والدجاجات وأصوات البائعين بعرباتهم الكارّو ونهيق حميرهم. وتُخرج نبيّات الأرغفة الساخنة من فوهة الفرن مقتطعةً منها

لطه فتطعمه في فمه. يتمّ للشمس شروقها ولنبيّات خبيزها، يهبطان سوياً على الدرج وطه يحمل الخبيز معها إلى أسفل.

يصحو صغاري على رائحة الخبز التي ملأت البيت الصغير في لحظات، واختلطت بأخرى تخص الفول المدمّس في قدرٍ تغلي على نارِ البابّور الهادئة منذ أمس، وبجوعٍ يرعى في بطونهم. أُخرج من "الزلعة"[1] "المش"[2] وأغرف في الصحن، وفي طبقٍ آخر الفول الساخن وبخار الماء يتصاعد منه. يفسح الأولاد لأبيهم ويشرعون في الأكل، أنظر إليهم فأشبع، أستمع إلى ضحكة علي فأقنع.

يحيى ينادي طه من النافذة:

– طه... طه...

يسرع طه إلى النافذة.

– يحيى... أنا قادم.

– وكأن الولد ليس بمريض، وكأن عظامه لم تتكسّر من ضرب أمس، لا فائدة.

– سيعود بعد قليل يفتّش في ملابس أخيه عبد الله القديمة ليلعب مباراة جديدة. لقد خاب أملي في ولديّ. أما أنت يا يوسف، فوالله لو لم تفلح لأخرجنّك من المدرسة وأوصلنّك بنفسي إلى الورشة.

– كفاكَ يا سي علي حديثاً عن الورش، أريد أن يتعلم أطفالي، أريدهم أفضل منّا.

– أنتِ حالمة، ابقِ على ضلالك يا نبيّات، ستُفسدين الأولاد مثلما

١ الزلعة: آنية من الفخار.

٢ المشّ: يُصنع من تخمير الجُبن المملح لعدة أشهر أو سنوات، وهو من المأكولات الأساسية لدى الفلاحين في الريف المصري.

أفسدتِ عبد الله بتدليلك. كيف يبلغ الفتى مبلغ الرجال بدون صنعة يأكل منها؟

– أنا لا أطلب منك شيئاً، لا أطلب إلاّ ما اعتدتَ إعطائي إياه.

مشاجرة كل يوم! لو أنك تصمت يا علي! فقط تصمت وتتركني أربّي أطفالي!

عاد الشقي يبحث عن ملابس للعب، لن أمنعه، سأتركه، ليس بي اليوم طاقة لعقابه.

تطلّ نبيّات من النافذة لتراقب طه.

– ما كل هذا الزحام؟ إنهم ينصبون شِباك! وما هؤلاء الجالسون هناك؟ حتى الكُسْحان في العزبة يلعبون الكرة! كيف ذلك؟

لحق بها علي وجلس إلى جانبها يشاهدان الجَمع عن بعد من النافذة.

– طه ورفاقه أمام فريق الكسحان فوق كراسي متحركة! هؤلاء يلعبون بالأرجل وهؤلاء بالأيدي!

يصفق أهل العزبة بحرارة. أحرز فريق الكسحان الهدف الأول. طه يتوعّد يحيى بعد المباراة لأن الهدف اخترق شباكه.

قالت نبيّات ضاحكةً:

– يا لعجبي، ويا لفضيحتكم يا فتيان العزبة!

– المباراة حامية.

– (مبتعدةً) لا أستطيع أن أشاهد ابني وقد يقع أو ينكسر أو يحدث له أي مكروه.

– انتظري... ولكنه يسير بالكرة منفرداً... طه أحرز الهدف الأول للفريق! (يصفق) أحسنت يا طه، أحسنت.

سيقتلني طه يوماً ما قلقاً عليه، انتهت المباراة منذ أكثر من ساعة ولم يعد، أصبحتُ أخشى على هذا الولد جداً. ها هو قد عاد.

– أين كنت أيها الشقيّ؟ وكيف تلعب وظهرك منكسر منذ أمس؟

– كنت مع الكابتن محمد الطيب.

– ومن هو هذا الكابتن؟ وماذا تعني هذه الكلمة؟

– إنه مدرب فريق الترسانة تحت ٢١ سنة!

– ومالك أنت ومال الترسانة؟

– لقد عرض علي اللعب معه في الفريق بعدما شاهد المباراة الأخيرة. هو جارنا، ولكني قلت له أريد اللعب في نادي الزمالك فوافق وسأقابله في الغد ليأخذني إلى هناك.

– والله يا طه سأوسعك ضرباً ولن يحميك مني شيء.

– (يهرب إلى الخارج) يا أمي اتركيني، أريد أن أصبح لاعب كرة قدم.

– هل جننت! هل تريد أن تقع وتُحمَل على النقالة مثلما يقولون في الإذاعة؟ والله لأحبسنّك ولن تخرج أبداً.

– (يصرخ) سأذهب... سأقفز من النافذة...

لا أدري ماذا أفعل! سيخيب الأولاد ويشمت أبوهم! لا بدّ من منع هذا الشيطان، لا بدّ.

القِطار

مازال الموت يحاصرني من كل اتجاه، يتساقط الأحبّة واحداً تلو الآخر، عمي إمام! آخر الخيط المربوط من فيشا حتى العزبة، خيطٌ معلقة فيها ضفائر ودودة بلحية عمي البيضاء! في ليلة النصف من شعبان، نلتفّ حول ذكر البط السَّمين الذي تعدّه لنا خالتي شلبية فيطلب من طفليّ أن يردّدا وراءه:

"يارب ثبِّت ورقتنا على شجرتنا واحنا لسه صغار."

عادت الذكرى لسرورة من جديد مع مُصاب الفقد، تجدّد الدمع بعدما خُيّل إليّ أنه قد جفّ، مازالت في المآقي دموعٌ إذاً! صرتُ أخشى زيارة فيشا وأتّقيها لأنها لا تحمل لي سوى الرحيل! كلنا يهجرها ثم يعود إليها في نعش!

ألم تنتهِ حصتنا من الأحزان بعد يا الله؟!

عادت أمي معنا بعد انقضاء أيام الحداد المُرّة تواسي خالتي وأبناءها. كنتُ أراقبها حيث تجلس على الأريكة الخشبية العالية تحت النافذة الطويلة، تجري إليها نجيّة مرتميةً في أحضانها وفي إثرها "إنصاف"، تجذب المنديل الأسود فوق رأسها: "أريني شعرك يا جدتي"، تمسك بخصلات سرورة البيضاء الطويلة الناعمة وتمشطها بأصابعها الصغيرة. نادت يوسف وبدأت تقصّ عليهم حكاية الشاطر حسن الذي خرج يبحث عن ست الحسن بعدما اختطفها المارد، فيخبره الحكيم بأن يسير في سكّة السلامة وأنه سيجد في آخر الطريق أمنا الغولة وقد جلست تمشّط شعرها تحت وهج

الشمس، فإن وجدها الشاطر حسن وقد جمعته عن شمالها فلا يكلّمها أبداً، أما إن كان عن يمينها فليُقرئها السلام وستدلّه على طريق ستّ الحسن حينذاك. ولمّا تحقق ما قاله الحكيم وكانت الغولة تجمع شعرها على جانب وجهها الأيمن، أقرأها الشاطر حسن السلام فقالت له: "لولا سلامك غلب كلامك لكلت لحمك قبل عظامك"، وأرشدته إلى طريق الخلاص. وجد ست الحسن تطلّ من قصر المارد فقال لها: يا ستّ الحسن والجمال، أرخي شعورك الطوال، وخذي الشاطر حسن من حرّ الجبال"، فيختبئ في حجرتها طول الليل ثم يختفي كلّ منهما في بطن حيوان من حيوانات المارد التي يربّيها في قصره ويطلقها عند الصباح لترعى، فخرجا منه بسلام.

ما أجملكِ يا أمي!

وضعتُ رأسي على فخذها الهزيل في ساعة عصاري، يرتطم عظمي بعظمها. هرمتُ يا سرورة واشتعل الرأس شيباً، وأنتِ كما أنتِ أجمل من فتاة هيت!..

كأنّ الشيخ يوسف يغنّي من أجلك:

في ظل أهداب عيونك ورد خدك قال
والحسن ميراث عن يوسف لوجهك آل
والبدر ويّا الشموس في حسنهم لك آل
لو قلت للصبّ قول كل الملاح جندي
وللجمال مملكة من غير مشارك قال

قصم ظهري الولد عبد الله يا سرورة، يتكرّر إخفاقه في الثانوية عاماً وراء عام، يجري وراء المشعوذين حيناً والاتحاد الاشتراكي حيناً آخر! دلّلته أمه حتى أفسدته. أما طه فلا أدري إلى أين يوصله جموحه! التحق بفريق نادي

الزمالك تحت ٢١ سنة، حدث ذلك في ليلة من المستحيل أن ننساها.

اتفق الكابتن محمد الطيب مع طه على أن يأتي بملابس ملائمة لحضور الاختبار وأن ينتظره عند الفرز كي يأخذه بنفسه إلى النادي. ظل طه يدور على بيوت أصدقائه حتى حظي بملابس و"كاوتش" وحقيبة يد أعطاها له الأستاذ فريد المحامي، وعندما عاد إلى البيت بثروته أخفتها نبيّات وهو نائم واستيقظ الولد يبحث كالمجنون عن الحقيبة حتى وجدها بعد عناء وانطلق يجري ونبيّات خلفه فسبقها طه إلى الفرز واختفى مع الكابتن وأمه تكاد تميز من الغيظ!

عاد في المساء بحقيبته ملوِّحاً بيده بخمسة جنيهات أعطوها له كمكافأة شهرية يحصل عليها مقابل التمرين في النادي ولعب المباريات وكذلك يحظى بزجاجات من اللبن بانتظام. قال إن الفريق سُمّي بـ"فريق الثورة" لأن أغلب اللاعبين زملائه من مواليد ثورة الضباط الأحرار.

شعرتُ بالسعادة ولكني أخفيتها عندما وجدت ثورة نبيّات على طه تزداد، تمارس العناد فقط وكأنها تغفل عودته بخمسة جنيهات! خمسة جنيهات يا طه! طفل مثلك يحصل على مبلغ كهذا!

رغم انشغال الولد بلعب الكرة، إلا أنه أبلى بلاءً حسناً في دراسته، ولأول مرة يمتدح لي أساتذته التزامه وتفوقه في المدرسة الهاشمية الإعدادية! كنتُ أشاهد طه يرسم أيضاً بالرصاص وأحياناً بألوان مبهجة يستعيرها من المدرسة حتى يتم لوحاته التي يزيّنون بها الفصول!

فلح الولد!

رحم الله جدك الشيخ عبد الله حظ.

شعرتُ بالرضا في تلك الأيام، أحسستُ أنه ربما كانت نبيّات على حق وأن تعليم الأولاد سينفعهم وينفعنا!

كنتُ في طريقي لزيارة بيت عفيفة في عزبة الورد، وعرّجت على عبد

الرحمن وإنعام، شردتُ كيف أنكِ صرتِ جَدّة يا ودودة! هل تصدقين أن لعفيفة وعبد الرحمن الآن أبناء يوشكون على الوصول إلى قامتي طولاً؟

أبصرتُ، في أثناء العودة، جموعاً من الناس تلتفّ حول قضبان السكة الحديد، اقتربتُ فلمحت أحدهم واقفاً على شريط السكة الحديد، كان سالم، مبيض النحاس، قد علقت قدمه لسوء الحظ بداخل التحويلة فأطبقت القضبان عليها، حاول الجميع تحريره مراراً، حاولتُ معهم... دون جدوى، وحانت اللحظة الحاسمة حين لاح لنا القطار يمضي مسرعاً، لوّحنا له آملين لو يهدّئ من سرعته... لو يتوقف... صرخنا جميعاً فزعين. لم يحدث شيء، فقط ألقت امرأة بطرحتها السوداء إلى سالم العالق بين القضبان كي يغطّي وجهه فلا يبصر جسده ممزقاً إلى قطع مفرية.

في غضون أيام كنتُ مكان سالم الذي تمنّى لو فقد بصره ولا يرى يوماً كهذا، تصير فيه بلاده محتلة مرةً أخرى.

هل هُزمنا بالفعل؟ هل يدنّس الصهاينة أرضنا الآن؟

نكسة؟!

عودة لأيام من المذلة بعد أن كدنا نطير مع أحلام ناصر؟

ثورة... استقلال... تأميم... سد عالي... دفع عدوان ثلاثي...

ثم؟

أشعر بسوط الشركسي يهوي على ظهري في فيشا من جديد. أرى قدميّ أبي المتقرحتين تنزفان وتنفثان من الصديد الأصفر أنهراً. الطين يغطّي أمي ويلطّخ وجوه إخوتي وأبنائي.

ولكن نبيّات تبكي!

ونبيّات لم تكن لتبكي أبداً إلا لحدث جلل!

أما أمنا الغولة فلقد جلست عند آخر السكّة تجمع شعرها عن شمالها، فَرَمَتْ الشاطر حسن، وستّ الحسن في قبضة المارد إلى أجل غير مسمّى!

شبرا الثانوية

كأنما نُفخ في الصور. الماء يغمر كل شيء. ينبت جسدي مجدداً من عُجيزة نخرة كشجرة. البشر يموجون، وإنا لمرتقبون. سبحان الحي الذي لا يموت. حلقي كحنظلة اكتست بالشوك عطشاً. أُطلعتُ على صحيفتي فما زُبِر فيها سوى القليل من صالح الأعمال، كأنها الفسيلة في الأرض العاقر. كُبِّلتُ من رأسي حتى أخمص قدمَيّ، وقراري أمامي: جهنم تغلي وتفور ولحمي يذوب قبل أن يُقذَف بي.

أستغفرك ربي وأتوب إليك.

قال لي شيخي تارةً: تُب يا عبد العظيم، فالتوبة كأنها مصباحٌ أبيل رُفع لسالكِ سبيل.

لو ذاق الغافلون ما ذقتُ، وفطن الجُهّال إلى الحكمة في تلك الأيام حالكة السواد، ما حار القوم وما شَطّوا.

لِمَن الملك اليوم؟

كَلّما وطأتُ المدرسة وتأمّلتُ أبنيتها الملكية، فرأيتُ كيف ذهب أصحابها إلى غير رجعة، وفُتحت أبوابها على مصراعيها – بيد القهّار – للفقراء يُعلّمون أولادهم فيها، أيقنتُ أنّ كل جبّارٍ إلى زوال، كبيوت الفراعين خاويةً على عروشها، ساء ما يحكمون!

هكذا أسميتوها: نكسة؟... علّكم ترجعون، فكنتم على أعقابكم

تنكصون!

لا يغيظني في شبرا الثانوية ويعكّر صفوي سوى هذا المتحذلق الماجن عدلي وصديقه الزنديق روفائيل. وماذا كنت تنتظر يا عبد العظيم ممّن ربّته امرأة طُليانية وعاش في بلاد الإفرنج حتى حصل على الدكتوراه في الفنون التشكيلية؟ لماذا عدت يا عربيد؟ لتفسد أبناءنا وتعلّمهم المجون والكفر؟

وأنت يا من ستعزف على أوتارك في جهنم، يا روفائيل! يا شرّ من حَمَلت ساقٌ على قدم! حضرة المعلم الفاضل يعزف القانون خلف الراقصات اللواتي يُسمّونهنّ مطربات!

لم تعد مدرسة! إنها ملهى ليلي يعجّ بزبانيته! والآن يعملون بدأب في هذا الهراء ويتركون الحصص العلمية من أجل إقامة معرض كبير يعبّر عن الميثاق! أي ميثاق؟ وهل أصابتنا تلك الهزيمة النكراء إلاّ لأننا ابتعدنا عن ميثاق السماء؟

– (منادياً) تعالَ هنا يا طه.

– نعم يا شيخ عبد العظيم.

– ماذا تفعل يا ولد؟

– إننا نجهّز لمعرض كبير.

– يا ولد، أنت طالب نبيه ومتفوق، لا تجعل مثل تلك الأشياء تأخذك من دراستك، كفّ عن الترهات.

أعرف جيّداً كم يكره الشيخ عبد العظيم الأستاذ عدلي، ولكن ما لا أعيه كيف يقف مكتوف اليدين أمام ما يحدث في بلادنا؟ ألم يرَ جموع الشعب إثر إعلان جمال عبد الناصر تنحّيه؟ ألم يرَ كيف أبدى المصريون استعدادهم للسير على الأقدام للنيل من الصهاينة والفتك بهم؟!

كان يوماً مهيباً، كلّ ما أتذكّره في غمرة الحدث أنني فور سماع الرئيس صعدت إلى سطح البيت، تمنّيتُ ألاّ يسمع بكائي أحد، وجدتُ

أهالي العزبة زمراً يخرجون يهتفون "هنحارب... هنحارب". هبطتُ إلى أسفل فوجدتُ البيت خالياً إلّا من أمي جالسةً تحت النافذة تجفّف دموعها، يحيط بها يوسف وإنصاف ونجية. سألتُها عن أبي وعبد الله، قالت: خرجا مع أهالي العزبة. دلفتُ إلى حجرتنا والتقطتُ فرخاً كبيراً من الورق الأبيض ممّا كُلفت برسم لوحات للمدرسة عليه، وبالقلم الرصاص رسمتُ صورة كبيرة لناصر. لم أنم ليلتها، وخرجتُ أبحث عمّن يؤطّرها في ورشة النجارة القريبة من مصنع "الديك الأحمر"، فلم أجد أحداً، فصنعت برواز بنفسي غير مطلي. حملتُ الصورة ومشيتُ لا أدري إلى أين. صاح بي يحيى وسيّد الطويل ومقبل غالي وزكريا لكي أنتظرهم، لم أردّ عليهم، وجدتُ روحي ضمن آلاف الناس في قلب ميدان التحرير. كان شيء ما يسكنني، أقوى بكثير من هزيمة في مباراة كرة شراب، أو من الشعور بالجوع في شتاء قارس، أو حتى من الانكسار الذي يحدث مع فتقٍ مفاجئ لسروالي المهترئ في الفصل!

بعد اجتياز امتحان المرحلة الإعدادية التحقت بشبرا الثانوية. كنتُ أعاني إحباطاً كبيراً بعد توقف نشاط فريق الثورة في نادي الزمالك بعد النكسة، ومعه توقفت الجنيهات الخمس. قابلتُ الأستاذ عدلي مدرّس التربية الفنية. كنتُ أسكب كل أحلامي ومخاوفي على الورق. في الحصة الأولى رسمتُ "أم حلمي"، جارتنا، في أسمالها كالحة السواد تأكل من قِدر امتلأ بالعدس، تسكن عشّةً مرتّقة بعلب السمن الخضراء الفارغة، وذلك بعد انهيار منزلها. في الحقيقة ماتت أم حلمي تحت أنقاض البيت العتيق وهي تنقل أثاث ابنتها العروس إلى الخارج أثناء تصدّعه وتشقّق جدرانه، ظلّت تجيء وتذهب حتى سقط المبنى فوقها. في الليل سمعنا صوتاً كزبيط الإوزّ، فقالت أمي إنها روح أم حلمي تتجول ذهاباً وإياباً لتنقل أثاث ابنتها من جديد. سكبت أمي حلّة عدس تحت النافذة لتصرف

روحها الغاضبة بعيداً عنا.

لكم أنت موهوب يا طه! لقد عدتُ من إيطاليا ولم أكن أتصور أن أجد من هم مثلك. سأعلمك الفنون كلها وبدع التصوير والطباعة والنحت. يكاد يخلو دفتر الرسم الخاص به من اللوحات المدهشة لأنني أنتزعها أولاً بأول، أعرضها على زملائه في الفصول ثم أعلّقها في معرض المدرسة السنوي. كنتُ منتشياً عندما دخل بيتي للمرة الأولى وشاهدتُ علامات الانبهار على وجهه البريء أمام العشرات من لوحات الزيت والباستيل والفحم والماء وتماثيل من الخشب والرخام والجرانيت ومنمنمات وزخارف ونقش على النحاس وقوالب من الجصّ يعجّ بها منزلي. قالت أمي كاترينا وهي تتأمل زرقة عينيه الواسعتين: طه لوحة بديعة يا عدلي، احرص على رسمها.

كانت على حق.

لاحظتُ ارتباكه أمام صور الفتيات العاريات وتجسيد أعضاءهن بشكل ثلاثي الأبعاد، ثم صارحني بأن لديه رسوماً كهذه ولكنه يخجل من عرضها. توقّف لدى لوحة جلبتُها معي من روما "حدادة الإله ڤولكان" لـ چورچيو ڤازاري، أطرق مليّاً وطلب أن يأتي مرةً أخرى ليقلّد تلك اللوحة، وافقتُ على الفور وعندما سألته عن السبب قال إن هذا الشيخ الذي يجلس عند قدمي الفتاة الجميلة يشبه أباه والعجيب أنه كان يشتغل بالحدادة مثله.

طرق روفائيل الباب بإلحاح كعادته، فتحت له كاترينا فَزِعة وهي ترسم صليباً، توقّف طه عن الرسم وكان منهمكاً في ضبط حمّالة الصدر الذهبية الرفيعة التي تحتوي نهدَيّ الفتاة العاريين في لوحة "ڤولكان". دلف روفائيل إلى الداخل مسرعاً دون كلمة واحدة وأدار مفتاح المذياع، كان حفل أم كلثوم على وشك البدء، فصمتنا جميعاً ننتظر بزوغ كوكب الشرق حتى أشفقَت على قلوبنا ثم أنشدت:

بعد حين يبدل الحب دارا والعصافير تهجر الأوكارا
وديار كانت قديما ديارا سترانا كما نراها قفارا

بكت كاترينا وانهمرت دموعها وهي تحتضن طه، فلمّا سألها: "فيمَ بكاؤك؟" همست بصوتٍ متهدّج: "إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره، فالانسانُ أحق بالحنين إلىً أوطانه يا طه".

"فبِماذا إذاً يمكن للإنسان أن يعبر؟
على أن هذا العمل لا بدّ أن يُنفَّذ كَرهاً على أية حال!
وهل عبور النهر بالنعال طريقة سهلة؟
لقد قُضي عليّ السير ليلاً والسياح نهاراً،
وعلى الإنسان أن يتعهّد قضيته الحقة."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل السادس

جبل الأولياء

يا مين يجيبلي حبيبي
وياخد من عيوني عين
ونص رخره وبكفاية بقية العين
ردّوا العواذل وقالوا: بدال الحبيب اتنين
أنا قلت قسماً وبالله وصوم العام يلزمني
ما نفوت حبيبي ولو راحت بقية العين.

أغنية عشق (تراث مصري)

لُبنَى

في يوم كهذا، اصطحبتني أمي إلى استديو "ملاك" في شارع "النمسا"، أصرّتً على التقاط صورة لي وكنتُ قد أتممتُ خمسة أعوام. ربت الخواجة على كتفي وهو يجلسني فوق كرسي صغير ويخبرني أنني جميلة وسأصير نجمة لامعة في السينما، لم أنسَ أبداً كلماته تلك ولا أسنان أمي البيض الكبيرة التي برقت فى ابتسامة ساحرة وذيّلتها بضحكتها الرقيقة الخجولة. هبطنا سويّاً واستقللنا حنطوراً، طلبت منه أمي التوقف عند الخور القديم. حملتني حتى وصلنا إلى الشاطئ، وأخذت تشير إلى قارب بعيد وقالت: "أبوكِ هناك"، لوّحتُ بيدي الصغيرة لعله يراني، والهواء المشبع برائحة السمك النيء يتخلّل خصلات شعري الطويل. عجّ الخور بقوارب الصيادين وبصانعيها، الطرّاحات تمتلئ بأسماك "الشعور" و"الدنيس" و"البلاميطة" مسكوب فوقها ضوء الشمس والماء المالح.

بين الغدوّ والرَّوح، والبر والبحر، والوادع واللقاء، سارت حياتنا، حيث الانتظار سمْتها، والصبر عنوانها.

في يوم كهذا، خرج أبي من الماء فرحاً بصيده وأمي تتلو المعوّذتين لتصرف شرّ العين. بيده الخشنة المبتلّة بأصابع كبيرة نهاياتها مستديرة يضمّني إلى صدره ويعبّقني برائحته. أتأمل عروق ذراعه السمراء: طويلة ومتداخلة وزرقاء! في مدينتي بدا كل شيء أزرق: البحر والسماء والقوارب

والقمر... حتى الدماء زرقاء.

كبرتُ وصار قارب أبي مطعماً صغيراً يقدّم الأسماك في حي "الأربعين"، يشاركه فيه خالي، وانتقلنا للسكن في نفس الحي. يوماً بعد يوم كنتُ أرى ابتسامة أمي الساحرة تتناقص تدريجيّاً، ورائحة البحر العالقة بملابس أبي تتلاشى، تبدّلت أصوات البشر حولي بهدير الدبابات والقذائف، على مدار سنوات عمري، كل شيءٍ بات على حافة السقوط، حتى الحلم شاهدتُه ينتحر أمامي غرقاً والتهمته الأسماك المتوحشة.

تدكّ طائرات العدو الإسرائيلي كل شبر في مدينتي، كنا نموت بالمئات يومياً وعبد الحليم يغني في الإذاعة "اللي شبكنا يخلّصنا"، وتتدلّل عايدة الشاعر بـ"السلِّم نايلو ف نايلو".

في يوم كهذا، كان علينا أن نهجر المدينة. قال جمال: "التهجير جزء من المعركة". نترك البيت وأنقاض المطعم ونودّع البحر الحزين، لطالما كان بحرنا هادئاً وكريماً، نخلّف الجدالات والطراحات الممزقة والقوارب المحطمة كقلوبنا على الموانئ، ونودّع جبل "عتاقة" الراسخ خلف الخليج الباكي، نمرّ على قصر "محمد علي" وبيت "المساجيري" وبيوت السويس البغدادلي، سينما "مصر" وملصق فيلم "العنب المر" وجوالات مملوءة بالرمل ومرصوصة أمام مدخلها، عربة القصب الأحمر المارة، ومطعم "الضوّي" المجاور لها مغلق كبوابات الرحمة كلها!

نجا أبي بنا، كما اعتاد أن يقول، وفشلت أمي تدريجيّاً في الابتسام ثانيةً، ووجدت نفسي مع والديّ وإخوتي محشورين في حجرتين وردهة ضيقة في بيت قديم في عزبة "بلال". انزوت حياتنا في ركنٍ قصي ببقعة لا نعرف شيئاً عنها ولا أحداً فيها. كان المطلوب أن أمارس فعل الحياة: أن أتنفس وآكل وأشرب وأستذكر دروسي وأنام وأكفّ عن البكاء لأنه يزعج إخوتي! تماهت الأيام مع الأمكنة مع البشر، وفقدتُ التمييز بين الألوان،

حتى أبصرتُه في الظلمة... أعادتني عيناه في لحظات إلى مدينتي الزرقاء، وبدأتُ أجد إجابةً شافيةً عن السؤال الذي كان يطاردني كل ليلة: لماذا حدث لنا كل ذلك؟

نعم يا طه، كنتُ سؤالاً حائراً وكنتَ أنت الجواب.

عادت ابتسامة أمي على شفتيّ، وأصبحتُ مثلها زوجةَ صياد تحترف الانتظار خلف الشّبَّاك بدلاً من الشِّبَاك. خطوات طه ترسم خيطَ سنّارة ملضوماً فى روحي، ووجهه، إذ يتطلّع إليّ مبتسماً، البدر الذي ينقذ البحّارة من الضياع!

نظر الله إلى حالي فأرسل إليّ نجيّة، أخت طه، تزورني وأزورها، أتذرّعُ حيناً بصحن سمك "صيادية" تهديه أمي لخالتي نبيّات، فلا أمل لي ولا دعاء إلا ليفتح هو الباب، كي تتفتّح كل الزهور في دمي فتتورّد وجنتاي، أو لتدسّ نجية في يدي خطاباته منقوشاً عليها اسمي: "حبيبتي لبنى"، هكذا فقط أشعر أنني كائن حي، أتيقّن من وجودي عندما يناديني أو يكتب إلي.

وجودي! تلك الحقيقة التي ظللتُ أهربُ منها حتى وجدتُه!

لا يهمّ أي شيء يا حبيبي، لا يهم إيلام أمي لي ولا توبيخها أو تهديدها، ولا غمز ولمز بنات الجيران وزميلات المدرسة، لا يهم أن تصغرني بعامين، لا يهم فقرنا وغربتي والمستقبل المجهول، ولا الغارات والموت الذي نرقبه كل يوم. طالما هناك طه ونوافذ مطلية بالأزرق كَلَون مدينتي، فلا يهم أي شيء!

سأنتظره يا أمي... زوجة الصيّاد المخلصة دائماً تنتظر.

نجيّة

كنتُ أحسب أن لا شيء أسوأ مما عشتُه، الفقر الذي يحني الجباه ويكسر خواطر النفوس العفيفة، والجوع عندما يعتصر أمعاءك ولا تعرف كيف توقفه، والمخاوف التي تعتري المرء إذا قُصف البيت الذي يؤويه، والألم البشع إذ يُقطَع جزءٌ من لحمك فيتدفق دمك أمام ناظريك ويُكمّم فمك كي لا تصرخ، فتكوي حُرقتك باطنك في الوقت الذي يكوي البولُ الحارق جرحك المفتوح أسفل منك!

مازال هناك ما لا يُحتمل إذاً!

كنتُ أستمتع بمراقبته كل ليلة، يعود من المدرسة فيتناول سريعاً حصته القليلة من الطعام، يبدّل ملابسه ويهرع إلى الأستاذ عدلي ليساعده في تصميمات وديكورات يزيّن بها البيوت والكنائس، ويتلقّى منه بعض المال الذي يعينه على مصروفاته، ثم يعود، رغم إنهاكه، لينكبَّ على كتبه مستذكراً على ضوء لمبة الكيروسين نمرة ١٠، يلدغه الجوع فتمتد يده إلى الخبز "المفقع"، وعندما توشك اللمبة على الانطفاء يذهب ليحضر اللمبة نمرة ٥ من دورة المياه ليكمل تحصيله اليومي.

رغم أنني لم أدخل المدرسة واكتفت أمي بإرسالي إلى الكُتّاب، إلا أنني كنتُ أرى أحلامي تتحقق في أخي طه. بِتُّ أبذل كل جهد ممكن لإسعاده، أفرح عندما ألعب دور رسول الحب بينه وبين لبنى. كنتُ أرى

كيف تتبدل همومه في ثوان عندما تأتي لزيارتنا فأجلس معها لبضع دقائق ثم أنسحب في هدوء لأتركهما معاً ينعمان باللقاء العزيز. يذاكر طه ليل نهار كي يلتحق بكلية الطب، يريد أن يصبح جرّاحاً، وكان دائم الضغط على لبنى كي تجتهد بعد رسوبها عاماً وراء عام، ولكنها أبداً لم تكن في قوته وصموده.

أشعر بالمرارة والعجز، طه لا يستحق هذا الظلم. أنت تدري أنه لم يفعل سوءاً. رأيتُ ذلك بأمِّ عيني ورأيتَه، أنت أيضاً، كيف غضّ بصره في سكون ليل العزبة عن تلك المرأة اللعوب التي يغيب زوجها أغلب الوقت. يومها صحوتُ على عطش فى الظلمة، فوجدتُ طه يقرأ على اللمبة الصغيرة وجارة السوء في البيت المواجه تطلُّ بقميص مكشوف وقد عرّت نصفها الأعلى تماماً فتدلّى ثدياها وأخذت تغويه بلامستهما وتشير إلى طه كي يقفز إليها من الشرفة. تطلّع إليها منزعجاً وسبّها بصوت مسموع. عدتُ إلى نومي وأنا أغبط لبنى على عاشقٍ مثل طه.

أخي يرتعد الآن في حجر أمي، محموماً يهذي بموعد الامتحان، يردّد اسم لبنى بين الحين والآخر. سقط المسكين مغشياً عليه ولم يتبقَّ على امتحان الثانوية العامة سوى خمسة أيام، وجهه شديد الاحمرار، يكسوه العرق الغزير ولا يقدر على فتح عينيه الجميلتين. تضع أمي الكمّادات باكيةً وتتلو الرقية لعلّه يُشفَى. لم يأخذ أبي مرض طه على محمل الجد عندما طلبت منه أمي أن ينقله إلى المَشفَى أو يحضر له الطبيب، أكّد أنه مرضٌ بسيط وسرعان ما سيتماثل للشفاء ولا داعي للقلق والغرامة، وراح يتحدث عن جدتي سرورة وكيف كانت تخضّب رأسه بالحنّاء لتزيل عنه الحمّى. كان هذا قبل ثلاثة أيام. أشعر بوخزٍ في قلبي، أخشى على النور الذي يملأ عليّ حياتي، تماماً مثلما يخشى طَه من انطفاء آخر ضوء ينبعث من اللمبة نمرة ٥!

بُهت أخي عبد الرحمن عندما رأى طه، أصرّ أن يصطحبه إلى الطبيب ولكن كان الوقت قد فات لأن موعد الامتحان اليوم. أسند طه أصدقاؤه وطمأنونا بأنهم لن يتركوه، حتى وصلوا جميعاً إلى المدرسة، اعتادوا الذهاب إليها سيراً على الأقدام، يحملون أنفسهم بالكاد لطول المسافة. تلك المرة كانوا يحملون أخي المسكين. غاب عبد الله عنّا في تلك المحنة، كما تعوّدنا، ترك المنزل منذ وقتٍ طويل ولا نعرف عنه شيئاً.

بمجرد وصول أخي المريض رآه الأستاذ عدلي، فأرسل في طلب طبيب المدرسة، أعطاه أدوية وظلّ بقربه حتى أدّى الامتحان الأول. كان أخي مسكيناً، غلبه النعاس وفتح عينيه بصعوبة وبدا الكلام متعرجاً ومتموجاً في ورقة الأسئلة. خرج ولم يدرِ ما كتب. نال الوهن منه، ويوماً وراء يوم طاله اليأس وتمكّن الإحباط من عزيمته، شعر أنّ حلمه يتفلّت من بين أصابعه، وذهب تعبه جفاءً في غمضةِ عين. زالت الحمّى عن أخي، الذي رغم كل ما حدث استطاع أن ينجح. لم يُظهر أدنى فرحة لأنه لم يوفّق إلى ما أراد، ووجد نفسه ملتحقاً بالمعهد العالي الفني بشبرا، الذي كان مطمح الكثير من زملائه، ولكنه لم يكن طموحه.

كنتُ أعرف مدى حاجة طه إلى رؤية لبنى في تلك الأيام، فهيّأتُ لهما أكثر من لقاء خارج المنزل، أردتُ أن تعود إليه حيويته وحرصه على الحياة. اتّفقا أن يتقدّم بأوراقه إلى الكلية الحربية كمحاولة أخيرة لتغيير مسار حياته الذي أرغمه المرض عليه، وللأسف لم يكن قد تعافى تماماً، ففشل في اجتياز الاختبارات الطبية.

المصائب لا تأتي فرادى! ودّع طه حلمه، وودّع أبي أمّه. تركتنا جدتي سرورة وذهبت إلى جدي كما اعتادت أن تطلب منكَ كلما زارتنا.

أنت ترى كل شيء وتدرِك كل شيء.
أدرِكنا؛
أدرِكنا بحولك وقوتك.

الطريق

يحسبون الطرقات خرساء، يحسبونها لا تحكي، رُبّ سُبُلٍ فاضت بأحاديث لم يروِها بشر، وكم من بوحٍ أريق على قارعة الطريق. الأرض ترعاك أيها الإنسان، الأم السمراء تستمع إلى وجودك.

ليس هناك أبلغ من قصة حذاء صُنع على مهلٍ في ورشة إسكافيٍّ ماهر من توسكانا، يمسك الجلد بيد وقلبه بيد، كلٌ تجعيدة في وجهه مَعلَم فلورنسي فريد، مقوّس الصدر في منتصفه، حفرت كعوب الأحذية فيه ممراً يتحسّسه بأنامله المصبوغة بالورنيش وهو يشاهد نهر "أرنو" عن بعد ويبتسم، جسوره القديمة ذكرياته. صار هذا الحذاء الآن في قدميّ هذا الشاب المصرى النحيل، ولا يعرف أنه اكتسب تجاعيد وجه صانعه، فلم يعد الزوج التوسكاني الجديد اللامع ذاته، انبرت حوافه واكتسبت استدارة من كثرة السير، وهبطت بطانته السوداء تحت قدميه وفي طريقها إلى التآكل. أوشك لُبّ النعل على التحرّر، فبرز كلسان طفلٍ حديث العهد بالكلام. تلك الألسُن تدريجياً تقصّ كل شيء، ألسن النِعال المنهكة القديمة تخبر الطرقات بكل الحكايات.

على أرض المعهد، تدبّ نعال مصرية مغروزةٌ في أجسادها مساميرُ صدئة من طول الانتظار، تزاحمها أخرى بجلودٍ إنجليزية وبحياكةٍ ألمانية أو غُرَزٍ بولونية. كعب أرملي رفيع يفتك بقلوبٍ يسري نبضُها حتى مواطئ

الأقدام، وآخر يوناني تميل لدبيبه الرقيق الآذانُ... عالمٌ ملوّنٌ غضّ الأحلام.

يُحدّثني النعل التوسكاني بحكاية طه، الطالب بالمعهد العالي الفني، يشكو إليّ قسوتَه عليه، فلم يكتفِ بالسير به ذهاباً وإياباً كلَّ يوم من عزبة بلال إلى المعهد بشارع شبرا، بل يواظب كذلك على المشي حتى أقرب محطة أتوبيس توصله إلى "المنيل"، هناك يقوم بالجلوس أكثر من ثلاث ساعات مرتين أسبوعياً فوق بساط أحمر قان بألياف ناعمة، يشجّع الحذاء على النوم فينال قسطاً من الراحة في منزل "الست لواحظ"، والدة لتلميذين في المرحلة الإعدادية يساعدهما طه على الاستذكار، وكان قد قام من قبل بعمل بعض ديكورات بصحبة د. عدلي في نفس البيت فطلبت السيدة ذلك منه فوافق لفوره.

يحتكّ حذاء الشاب النحيل بحذاء وردي مرةً أسبوعياً بالقرب من مشتل يطلّ على ترعة الإسماعيلية، ذاك حذاء لبنى حبيبة طه، إذ يبثّها لواعج الهوى، ويبوح لها بأفراحه وأتراحه، يكرّر على مسامعها تلك العبارة فكثيراً ما تبكي: "لو أنني لم أمرض!"، وسرعان ما يحكي لها كيف يحقّق الطالب المصري النحيل تفوقاً ملحوظاً على أقرانه من المصريين والأجانب في المعهد، وكيف يتوقّع أساتذته له نجاحاً مبهراً، يقصّ عليها تهافت الفتيات عليه كي يرسمَهنّ بعدما رأينَ صورة "إيفا" الأرمنية مرسومةً في دفتر المحاضرات بقلم فحم، فتغضب ويصالحها بضمّة طويلة وقبلة على يدها.

ستة أشهر قضاها طه في هذا المعهد، يستذكر ويعمل ويحب ويرسم، ويواصل المسير، حتى وصل كعادته إلى بيت الست لواحظ، وقبل أن يصعد وجد الشرطة تحاصر المنزل ويتحدث الجيران عن ضبط بيت مشبوه بالداخل. لم أستطع إخبار طه بأنّ الست لواحظ، قبل دقائق فقط من وصوله، كانت تسير حافيةً فوقي بصحبة فتيات أخريات شبه عراة

يبكين، تقودهن أحذية العساكر الثقيلة الخشنة. تجمّد الحذاء التوسكاني في مكانه، وبعد لحظات انصرف مع صاحبه ولم يعد مرةً أخرى. لم يكن يدري أين يذهب وكيف ستستمر حياته بعد انقطاع هذا الرزق عنه خاصةً بعد مرض د. عدلي وتوقفه عن العمل، يمسك دفتر المحاضرات بكلتا يديه، يحتضنه باكياً لا يسمع نشيجه سوى النيل والقمر وأنا.

لم يكن صاحب حذاء توسكانا من يبكي وحده، ملايين الخطى في صبيحة اليوم التالي كانت تبكي، جموع لم تشهد تلك الأرض مثلها من قبل، من جنوبها إلى شمالها، تماهت الطرقات مع بعضها البعض، كسرَت الخُطى المتهافتة كلّ الحدود في طريقها إلى وِجهة واحدة، حتى ذلك الجسد الساكن الواقف على الطمي حافي القدمين أوقف دابّتَه التي تدور واحتضنها باكياً، كان قلبه يتوجّه نحو الوِجهة ذاتها: جثمان ناصر.

للطريق قلبٌ حجريٌّ أسود يكاد ينصهر حزناً على آدم وبنيه أبد الدهر، له قلبٌ لا يحتمل وداع الصحبة والأحبة، يراقب من خطوات أحدهم المتثاقلة كيف امتطته المحن والخطوب، ذلك لأن للمصائب أرجلٌ عديدة كالعناكب والخنافس، ولكنها هشّة تنكسر مفاصُلها بسهولة، وتفقد أطرافَها فتقع. هذا الأسفلت معجونٌ بجثثها المنقوصة وأطرافها المبتورة وتفوح من مسامه رائحة هزيمتها الكريهة.

مرّت ليالٍ لا تُنسى على صاحب حذاء توسكانا، تكرّر ذهابه إلى أرضٍ غير معتادة، بسياجٍ عالٍ حولها، حتى وجدتُ الحذاء المنهك في يومٍ ما يطير إلى أعلى فرحاً بصحبة حذاء من "باتا" يرتديه زكريا صديق طه. تبع هذا الحادث أيام يسعى فيها خفّان من البلاستيك من العزبة إلى أشمغة ترتديه نبيّات، والدة طه، تسير مُسرعةً وكأنها تريد الإمساك بشيء قبل أن يختفي، ثم تعود بدبيبٍ زاحفٍ يجرّ خيبةً ما، إلى أن أتى ذِكر "زينهم معارك" وهرولت نبيّات في الخفّ الأسود إلى البيت ومعها مبلغ ٢١

جنيه. صاحت في طه أنها حصلت على المصاريف المطلوبة، طار خُفّا نبيّات إلى أعلى بقدميها المتشققتين إذ حملها ابنها محتضناً إياها ودار بها دورةً كاملة، أحاط إخوته بهما فرحين وبدأ يوسف في السير بخطوات منتظمة مثل الجنود والجميع يضحك.

أنتم تضحكون يا بني آدم ثم تبكون، سمْتُ حياتكم القطع بعد الوصال، والوصول بعد طول المسير، ولكن هذا الشاب يشعر بالضياع، الطريق يمكنه قراءة الحيرة من الخطوات. فبعد ساعات بين جلوسٍ ووقوف مع أصدقائه بالمعهد لمرةٍ أخيرة، يودعهم بأسى ويهديهم محاضراته المنقولة وبعض لوحاته ويهجرً تلك الأرض الملونة إلى أرضٍ أخرى لم يرها بعد. يبحث طوال الوقت عن صاحبة الحذاء الورديّ، يرفع رأسه إلى أعلى فيجدها في انتظاره كعادتها خلف النافذة، فيقرر الصعود إلى شقتها. تفتح له الباب فتقرأ في عينيه الزرقاوين الرحيل. دفنت لبنى رأسها الصغير في صدر طه، احتضنها واستسلم لقداسة تلك اللحظة. يقول الطريق إن البقعة التي تضم حبيبين خُلقا من نفسٍ واحدة تشعّ نوراً يضيئه، مثلما أضاء الحب جوانحَهما. قال الطريق أيضاً إن الحبيب ليس بأعمى وإنما هو بصير. لا يمكن لأحد أن يفهم سر صمت والدة لبنى عندما شاهدتهما متوحدين في ضمّةٍ طويلة، ولا التكهّن بما سوف يحدث بعد دقائق إذا وصل أخوها ورآهما... اللحظة أسمى من كل خوفٍ وظنّ.

كيف ستبلّغ الحذاء الورديّ أيها التوسكاني أنك لن تذهب إلى أرضٍ بعيدة فحسب وأنك لن تُحرم من رؤيتها وحديثها فقط؟ كيف ستخبرها أنك ستركب طائرةً مع الدفعة الجديدة وتحلّق إلى السودان لتبدأ حياتك العسكرية هناك؟

كيف يودّع أبناؤك أيتها الأرض بعضهم بعضاً؟ كيف للأم أن تلد جنينها وتفطمَ رضيعها وتتركه يمضي وحيداً؟ كيف ستفعل ذلك نبيّات؟

جبل الأولياء

غريبٌ ما يحدث لي. من نافذة الطائرة الضخمة لا أطلُّ على الأراضي الجديدة ولا خيال السحب الواقع فوقها فحسب، بل أتفقّد روحي. أشاهد فتىً نحيلاً طار من قبل بطائرته الورقية السداسية في "أرض الجمل"، يرفع ذراعه إلى أعلى وهو يمسك بالملابس المكويّة خشية اتّساخها، تسمو نفسه أمام لوحة جميلة. هذا الشاب، الذي خلّف وراءه أمّاً اقترضت المال كي يلتحق بالكلية الحربية وحبيبةً لا يفارق بالَه خيالُها خلف النافذة الزرقاء، هل باستطاعته أن يعيد إليها بحرها المسلوب؟

خمسٌ وأربعون ليلةً كاملةً بعيداً؛ بعيداً عن كل ما عرفتُ وألفتُ، وبين براثن الحياة العسكرية الجديدة، تلك الدنيا، رغم قسوتها التي لم يحتملها الكثير من زملائي الجدد فمنهم مَن سقط مغشياً عليه ومنهم من شكا ودعا وسَبّ ففُصل بغير رجعة، مازالت أحنّ كثيراً من حياتي السابقة، على الأقل لا يحمل المرء فيها همَّ تناول ثلاث وجبات يومياً؛ المرء الذي لم يكن متاحاً له سوى كسرة من الخبز "المفقّع" لو افترسه جوع الليل في أثناء المذاكرة على لمبة الكيروسين.

ربما؛ ربما تخلّصت من الشعور بالجوع، ولكن ما عساه يفعل الإنسان فى الشعور بالفقد والوحشة؟ كيف يريح نفسه من شبح الوداع الذي يستحضره بتفاصيله فى ليلةٍ أخيرة قضاها في العزبة مع لبنى قبل

أيام؟ كيف ينسى الضمّة التي كادت تُدخلها بين ضلوعه، وأنفاسها التي يراها قبل أن يشتمَّها؟ خصلات شعرها الأسود الفاحم النائم على كتفيّ؟ أسفلت العزبة وكيف نمنا فوقه أنا ويحيى صغاراً، البيوت والوجوه والسكة الحديد وترعة التيرو... والجن الملوّن؟

لا يبرر تلك الضحكة التي انفلتت مني الآن سوى هذا المثل القديم: "ضحك الرحمن حين صنعَ السودان"، وربما أيضاً بسبب زميلي المرتجف الجالس إلى جانبي وهو يؤهّل نفسه لاستقبال الموت عندما تسقط الطائرة "البوينج" بنا. أما أنا فكلُّ ما أحتاجه الآن دفتر الرسم الكبير وقلم الفحم المفضّل وأغنية لثومة. لم أكن أدري أن هناك جمالاً جبلياً أخضر هكذا، يفوق خضرة عيون "إيڤا" الأرمينية! لم أتوقع أن أرى قطعان الجاموس الوحشي والغزلان والفيلة في أيِّ يومٍ من الأيام، أو أن أبصرَ شمساً زرقاء في الأفق!

الطائرة آخذةٌ في الهبوط، وكل أحلامنا المعلّقة في الهواء تبدو إما قد وجدت أرضاً – أخيراً – لتحطَّ فوقَها أو ذابت كالملح في الماء العذب.

في الخرطوم، وبالتحديد على مقربةٍ من "سدّ جبل الأولياء"، وعملاً بمبدأ الانتشار وتوزيعاً للمخاطرة المحتملة، سنقضي عامنا الدراسي الأول والثاني. يقول القادة إننا سنعود إلى مصر في إجازات محددة المدة، مازلتُ غير مصدّق أنني خارج بلادي، بعيداً عنهم، بعيداً عنها...

لا أستطيع التنفس بعمق، هل يأبى الهواء الدخول إلى صدري الغريب؟ أم روحي هي التى تمنعه من الدخول؟ يقول القائد هذا طبيعي وأننا سنعتاد الأمر.

النيل!..

ورجلٌ أسمر ينثر شبكة صيد يغنّي:

"يا صباح أشقر وضاوِي... يا مشاوير يا غناوي..."

يا الله!..

النيل!

صَلاةٌ وصِلة... أبيض وأزرق... كل شيء يذكّرني بكِ يا لبنى، متى نلتقي وتمتزج دماؤنا كتلك المياه؟ أي معجزة في الكون أبهى؟

يقطع سد جبل الأولياء صفحة النيل الأبيض، وسياجٌ أسمنتي يعلوه سلك شائك يحيط بمعسكر الكلية المجاور له. تتسكّع أسراب "أبو مركوب"، الطائر الحزين، على الضفتين، يتضاءل منقاره ويتداخل ظلُّه مع شبح تمساح أخرج فكّه المخيف من العمق، تتكشّف حراشفه تدريجيّاً. ماذا يصنع "أبو مركوب" المسكين أمام جبروت تمساحٍ يتربّص به؟ وماذا تصنع مصر أمام هذا العالم الظالم؟

فُتحت البوابة وعبرنا إلى داخل المعسكر. تمّ تقسيمنا إلى أجنحة وسرايا وفصائل وجماعات. على رأس جماعتي يقف العريف حسين والرقيب إسماعيل في استقبالنا، وهنا تمّ فصلي عن زكريا لأول مرة منذ التحاقنا بالكلية. ظللتُ أعاني من ضيق التنفس أثناء ترتيب دولابي. تتلصّص علينا عيونُ القردة من خلف السور الشائك، أتصّور ما بين لحظةٍ وأخرى أن أحدها سيقفز فوق ظهري وينهش لحمي.

ارتدى القِرَدة بذلات عسكرية وصوّبوا أسلحتهم نحوي، اخترقت ذيولهم سراويلهم الداكنة، وكنتُ بمفردي بلا سلاح، ركضتُ طويلاً وهم خلفي يصيحون ويتسلقون الشجر ويعبرون حواجز ليلحقوا بي، رصاصهم الكثيف يطاردني ويصم أذني، حتى وصلتُ النهر، فقفزتُ وصحوتُ متهدّج الأنفاس على يدٍ تهزّني بعنف، فتحتُ عيني فإذا بالعريف حسين يخرج ما بداخل دولابي كله ويلقيه على الأرض.

– قم بسرعة يا طالب، دولابك يحتاج إلى ترتيب.

– عريف حسين، ألا يمكنني أن أقوم بذلك في الصباح؟

– هل تخالف الأوامر يا طالب؟

– تمام يا فندم.

ظللتُ أعيد ترتيب دولابي حتى طلوع الفجر، كلما انتهيتُ هدَّ العريف ما بنيتُ، العريف الذي يكبرني فقط بستة أشهر! تبدّلت رغبتي الشديدة في النعاس بشعورٍ طاغٍ بالغيظ حتى كففتُ تماماً – من الإنهاك – عن الإحساس، فصرتُ أشبهَ بماكينة لا تشعر بأي شيء.

نُفِخ في البوق، "نوبة الصحو" تملأ العنابر، كل شيء يتم إنجازه بسرعة وبدون نقاش، لا تباطؤ لا تخاذل لا خطأ، لن يمهلنا العدو، ولن تذلِّل الصعوبات نفسها. عماد مُكدّر كالعادة يلفّ حول السياج بـچركن[1] مملوء بالماء، ما أن يُكمل دورة كاملة حوله حتى يأمره العريف صدقي قائلاً: "اسقِ النمل" فيقوم عماد بسكب الماء فوق الرمال ثم يقوم المسكين بملئه من جديد ويدور به ثانيةً حتى يرتوي صدقي من معاقبته. يخفي ضحكتَه مهدي الحارس والعامل والساعي وحمّال قاذورات المعسكر بأكمله وأي شيء آخر، يبرق وجهه بسمرته وتلمع أسنانه كملابسه البيضاء الممتقعة بعرقه، والتي تجفّ سريعاً تحت ألسنة شمس السودان المحرقة، ألمحه من "الميز" يجلس أمام البوابة ممسكاً بكوب الشاي الذي يتماهى بلونه مع بشرته، مبتسماً غارقاً في مشاهدة النهر من مقعده. سُمِح لنا بعد ثلاثة أسابيع بالخروج للتنزّه على حافة النيل، لأول مرة نجتاز السور الشائك، بدأنا نعتاد ضيق التنفس والزوابع التي تكاد تعمي أبصارنا، أشعر أنني أحمل جسداً لإنسانٍ لا أعرفه. اقترب مني مهدي، تحدثنا ونحن نشاهد من أعلى الخزّان التماسيح تفترس السمكات، حدّثتُه عن أبي وحدثني عن أبيه الذي كان يعمل صائداً للفيلة، وكيف كان يصطحبه معه

١ چركن: وعاء كبير من البلاستيك.

وهو صغير. يفتخر مهدي كثيراً بأسنان الفيلة العاجية التي اقتنصها أبوه رغم دموعه المنهمرة كلَّ مرة تنجح فيها القبيلة في إيقاع الفيل الضخم، وجلده السميك مكتظّ بنصال الرماح، وأيضاً رغم عدم حصول والده في أي مرة على سنّ فيلٍ صادَه.

مرّت ثلاثة أشهرٍ انصهرتُ خلالها تماماً في الحياة العسكرية، مثلما انصهر خفّي البلاستيكي من شدة حرارة الشمس فوق جلدي عندما تم تكديري لسببٍ لا أعلمه بملابس التدريب الخفيفة. حتى العريف حسين نفسه فشل في إيجاد السبب لمّا سأله قائد الفصيلة. كنتُ قد وصلت لمرحلة متقدمة من فقدان القدرة على التمرّد أو التبرّم، مهما استمتعوا هم بتعذيبنا، ومهما حاولوا – أحياناً – إصلاح الأمر... كان الوقت قد فات فلم يعد يهم أي شيء سوى إطاعة الأوامر.

اعتدتُ تكرار هذا المشهد يومياً منذ جئنا إلى هنا. فمن خلال ثغرة في السلك الشائك، وبمجرد انتهائنا من الأكل في "الميز"، يقفز أهالي "الحِّلة" بالجوالات إلى داخل القاعة يلملمون بقايا طعامنا. كانت القردة تقفز أيضاً، وكان مازال هناك قلبٌ يبكي من أجلهم.

مدَّ يده السمراء من خلف السور بقرطاس لبّ[1]، فجرّحتها أسنان السلك الحادة. لم يبالِ ضيف الله، فلم يكن طفلاً بل شيخٌ شاب شعره من قبل عدة مرات. التقطتُ منه بضاعته وأعطيته المال وقبل أن ألتفت كان العريف حسين يمسك بي منتشياً وهو يؤكّد أن تلك الفِعلة تستوجب السجن، لأنني تعاملت مع المدنيين، وبالفعل أودعت الحبس مدة عشرة أيام.

---

١ قِرطاس: ورقة تُلَف على هيئة القمع ليوضع فيها البزر والقضامة والفستق ونحوه، وهو ما يسمّى "اللب".

في ظلمة السجن أشرد كيف من ذات الثغرة يهرب زملائي لتدخين الحشيش وتناول البوظة في الحلّة، وكلنا يعرف، والقادة كذلك، ولكن لم يفلح أيٌّ منهم في ضبطهم أبداً، ولم يكن من الرجولة أن يُبلّغ الطلبة عن بعضهم بعضاً، ولكن لم يكن منصفاً أيضاً أن يُسجن أحدهم بسبب قرطاس لبّ، أم كان ذنبي الحقيقي أنني أشفقتُ على ضيف الله؟ من الغريب أن أبي لم يشعر بالذنب أبداً لأنه يدخّن الحشيش ويفضّل ذلك على إطعامنا، لم يشعر أنه قد أجرم في حقي عندما تركني للحمَّى تنتزعني بعيداً عن أحلامي وقذفت بي إلى جبل "أولي" كما يسمّيه مهدي. نعم، ما مِن أولياء هنا أو هناك... ليس هناك سوى ضيف الله وأنا: كلٌّ منا خلف أسواره.

أظن أنها كانت المرة الأولى التي أبتسم فيها من القلب وذلك عندما أبلغنا القائد بالخروج في إجازة نعود فيها إلى مصر. وضّبنا أمتعتنا وتأهّبنا للسفر فرحين وركبنا سيارة الجيش إلى المطار، وبعد انتظارنا أكثر من ساعتين أبلغنا القائد بإلغاء السفر.

كما كنت يا طالب... كما كنت يا طه!

تكرّر هذا الأمر حتى اعتقدنا أنهم سيجبروننا على الهبوط بعد أن حلّقت الطائرة في الجو، أو ربما سيقذفوننا منها لنسقط في النيل. تأهبنا لإلغاء الأمر في أي لحظة، ولكننا وصلنا إلى مصر، وقضينا أسبوعاً كاملاً فيها. لا أذكر كيف وصلتُ إلى العزبة ولا أدري كيف كانت لبنى على علم بموعد وصولي فانتظرتني في النافذة كما المعتاد، ولكن ما لا يمكن نسيانه هو اللقاء!

لبنى تعود من السويس مجدداً، يحمل شعرها الأسود رائحة البحر، وعيناها غارقتان في عسل مصفّى. على سلّم بيتنا القديم ألقاها للمرةِ الأولى تسكب حنانها في قلبي!

– اسمرّت بشرتك يا طه.

"واسوّد قلبي يا حبيبتي"، في نفسي أقولها، فلا داعي أبداً لسرد ما حدث لي الآن. مهما حاولتُ إخفاء حزني، كانت تدرك كل شيء وتلتقط مخاوفي ورغباتي بسهولة.

لبنى أنا بشكلٍ آخر؛ في جسدٍ آخر.

بيتنا المزدحم كما هو، أمي تبدو أكثر صلابةً وأبي أشد ضعفاً، وإخوتي مجتمعون. توافد الجيران والأصدقاء. تعلّقت نجية وإنصاف برقبتي باكيتين. احتضنتُ يحيى فدمعت عيناه. جلستُ بين عبد الرحمن وعبد الله الذي عاد إلى البيت بعد طول غياب. اشتدّ عود يوسف وأصرّ على الذهاب معي إلى "زينهم معارك" لسداد الدين. كأنهم يخفون شيئاً عني. قالت أمي: "جدتك شلبية توفاها الله. لم يعد لنا أحد، وأهل فيشا قد نسونا منذ وقتٍ طويل". كل شيء يمرّ سريعاً، وكم هو قصيرٌ لقاء الأحبة، فلم أرتوِ بعدُ من رائحة أمي ولا ضمّة لبنى.

عدنا إلى الخرطوم، فتعرّفنا على المعسكر بصعوبة. غطّت سيول الأمطار الكثيفة كل شيء حتى الدواليب. برز السلك الشائك من تحت الماء. حاولنا الدخول فكانت أوامر القائد بإزاحة الماء بالدِّلاء! استغرق الأمر ساعات طويلة، وفي اليوم التالي أشرقت الشمس المتوهجة فجفّ كل شيء كأنّ شيئاً لم يكن، وانفجرنا في ضحكٍ مختلطٍ بالبكاء لشدة ما عانينا في تلك الليلة.

يدور الزمان وصرتُ عرّيفاً على جماعة جديدة وافدة. كان لا بدّ أن أكدّر أحدهم فأمنعه من النوم وأجعله يرتّب دولابه عشرات المرّات، أو أن أدعك ظهره المشعر بمربى التين في طابور ذنب والشمس تلفحه، أو آمره بأن يسقي النمل أو أذكّره بعائلته الكريمة، ولكنني – يا لعجبي! – لم أفعل.

قبل أن نغادر جبل أولي للمرة الأخيرة أخذني مهدي بصحبة بعض زملائي إلى الحلّة. لم أرَ شيئاً سوى عيون البشر والقردة، رغم المرح

والبهجة ودخان الحشيش المتصاعد، ورغم النكات اللاذعة وحواديت مهدي عن الفيلة وغنائه السوادني. تلك العيون ترمقُني وتتربّص بي. كم أغبط زملائي لقدرتهم الفائقة على النسيان والضحك، وأغبط مهدي الثمل الغائب الحاضر وهو يهلوس مستلقياً على الأرض:

– يا قلبُ، استلقِ بوداعة فيل هندي يتدحرج فوق غرين النيل وتظاهر بالنوم ودع ثقوبك تتّسع كي تسمح بمرور الحياة إلى الداخل. استمتع مثله بالغفلة أمام مكائد صيادي العاج وانعم بحمام شمسي أخير قبل أن يفقد لحمه الأسمر للأبد.

فوق ورقة زبدة نقشتُ رسماً لمهدي يقود قطيعاً من الفيلة، رسمتُ أباه ممسكاً بسنّ فيل ممتطياً إياه، وضعتُ اللوحة على صدره فظلّ يفرك عينيه كل بضع ثوان ثم احتضنني باكياً وقال:

– لـ"أولي" أولِياء، ولكنهم وإن ذكروا الله فقد نسوا أهل الجبل والحلّة.

ثم عاد إلى الأرض ملتحفاً باللوحة يهذي ثانيةً:

– لا تلقي بالحُجُب فوق مسام الروح خشية هروبها، اتركها لتحلّق خارج اللحم. اقتلع كخرطوم الفيل الشجاع شجرتي المتعبة، لا ضير من اقتلاع شجرة قديمة أنهكها الموتى من أسفلها والطيور من أعلاها.

طه وزكريّا

١-١-١٩٧٣

دفعة٦٣.

طابور التخرج.

أقف كنقطة تُكوّن حرف صاد في كلمة "مصر".

دبيب خطواتنا يهزّ أرض الكلية.

زغاريد... زغاريد...

"الملازم الذي سوف يتم تخريجه، معناه أنه ملازم لوحدة لا يغادرها أيّاً كانت الأسباب."

نجلس صامتين في إحدى عربات الجيش، تنقلنا من العباسية باتجاه شمال شرق، تُرى على مَن يأتي الدور؟ مَن يتركنا ويرحل إلى حيث لا يعلم؟ تتوقف العربة ويُنادَى على أحدنا. يسلّم سلاحَ موّدعٍ ثم يهبط في هدوء. نظلّ نشيّعه بنظراتنا حتى تبتلعه الرمال وتلقمه الشمسُ.

أتّقي نظراته المتسائلة، لا يقوى هو كذلك على التحديق في وجهي، كل منا يعلم جيّداً أنها ربما كانت المرة الأخيرة، ربما كانت نهاية الرحلة الشاقة. ما الذي يجب أن أتذكّره يا صديقي وما يستوجب النسيان؟ عندما نوديَ علينا ضمن المقبولين أول مرة؟ أم ذكريات عام كامل في أحضان النيل الأبيض؟ هل أنسى القفزة الأولى بالمظلة وأنا

أراقب جسدك يسقط في الهواء قبلي؟ أم أنسى "علقة الجنينة" في فرقة الصاعقة والتي بدلاً من أن نتلقّاها على أيدي المعلمين لقّناهم إياها فنُقلوا إلى سلاح الخدمات الطبية؟

"كسفريت"!...

وصلت قبلي يا أخي. دوماً ما تسبقني!

حسبتُ وأنا أضمّك أنني لن أراك ثانيةً، أخفيتُ عبرةً ثم تركتُها تهبط بمجرد نزولي من العربة، مشيتُ ولا أدري ما ينتظرني على حافة هذا البحر!

مرّت شهور كسنوات طويلة، يداعبنا فيها الأمل وتأخذنا الأحلام إلى الشاطئ الآخر، ثم تعيدنا الحقيقة المرّة إلى ليالينا الحالكة.

في الإجازة الأخيرة، خرجنا للنزهة في شارع الترعة مع يحيي، اشتريتَ ساعة "بارلوكس" وراديو "ترانزيستور"، أول ما نسمع صوتُ أم كلثوم وهي تصدح بقصة الأمس. توقفنا أمام عربة "عم عربي" الحلواني والتهمنا البليلة المخلوطة بالبسبوسة بنهم كبير. عدنا سيراً فوق قضبان السكة الحديد ووجدتُ تلك البرقية في انتظاري من القوات المسلحة المصرية بضرورة العودة إلى وحدتي. كانت قد وصلتك مثلها أيضاً، فعرفتُ أنها الحرب. من بعد السحور صلينا الفجر في المسجد، تنسّمتُ هواء العزبة فغذّى صدري، أودّ لو أني أحبسه فلا يغادرني ثانيةً. هل هذا السلام بالفعل وداعٌ أخير؟ حصار من دموعهم وصيحاتهم ووجوههم يسيّجني حتى "كسفريت". صوتك كالعادة يصطحبني إلى نهاية الرحلة.

مرة ثانية... مرة أخيرة.

جزيرة البلّاح... اللواء ١٣٦ مشاة ميكانيكي.

سبتٌ آخر، يختلف كثيراً عن كل أيام السبت التي عانيتُ منها منذ جئت إلى هنا، إذ كانت تصل الحافلة الكبيرة إلى النقطة ٥١ الإسرائيلية

على الضفة الشرقية، فتهبط منها الإسرائيليات المتطوعات بالجيش للترفيه عن الجنود بصحبة كميات كبيرة من الطعام. سبعون متراً فقط تفصلني عن هذا الجحيم، عن سبابهم ومناداتهم لي باسمي الذي لا أدري كيف عرفوه. يصعد جندي بصحبة إحدى الفتيات إلى أعلى النقطة القوية، يقبّلها ويطوّق جسدها ويعتصره أمامي بشبق، عيناه ترمقانني، ترقبان غضبي واحساسي بالقهر، ممسكاً بثمرة تفاح يقضمها ويلوّح بها ويصيح بي:

– هل تعرف ما اسم هذه الفاكهة؟ ترى متى آخر مرة رأيت فيها امرأة؟ آخر مرة أيها الخنزير... آخر مرة!

كُلِّفت بالإشراف على حفر خندق مواصلات بطول الجزيرة طوله حوالي ١١ كم، وكانت المهلة المحددة ثلاثة أيام فقط، خبّأنا فيه كل الأسلحة والذخائر والصواريخ المالوتكا (فهد) المضادة للدبابات والقوارب المطاطية اللازمة للعبور.

وصل في حوالي الساعة الواحدة ظهراً عدد من قادة الجيش الإسرائيلي إلى النقطة ٥١، وقضوا وقتاً يراقبوننا بمناظيرهم. عرفتُ ساعتها أنهم موقنون من هجوم الجيش المصري الوشيك.

صدرت الأوامر للكتيبة ٥٣٧ باقتحام المانع المائي لقناة السويس عن طريق القوارب المطاطية واقتحام خط بارليف الحصين وتدمير ما به من أسلحة ومعدات والاستيلاء على النقطة القوية وما خلفها حتى الوصول إلى مسافة من ثلاثة إلى خمسة كيلومترات من الشاطئ، وبالفعل حملنا معداتنا بداخل القوارب واحتضنت مياهُ القناة مجاذيفَنا. أطلق العدو قنابل "الهاون" من كل جانب، ويا لعجبي! عبرت سريتي المكونة من ثلاثة قوارب بأمان دون أن يُصاب أحد. بسطنا السلّم الخشبي على الساتر الترابي المائل، وبدأت عملية الصعود بالأسلحة والمعدات الثقيلة، فيحمل الجندي من جنودي مدفع يزيد وزنه على ٢٠٠ كجم، بينما

عادت القوارب السليمة إلى الضفة الغربية مرة أخرى لنقل بقية القوات.

"احفر أو مُتْ".

هكذا كان يجب أن يحفر كلٌّ منّا لنفسه حفرةً للاختباء فيها. صبّ العدو لعناته فوقنا، وانهمرت قنابل الألف رطل كالمطر فوق رؤوسنا. صحتُ بأعلى صوتي في جنودي وأنا أضحك:

– يضمن كلٌّ منا الآن ميتةً فاخرة، فيستشهد بفعل قنبلة ألف رطل تفجّر المياه الجوفية فتغسل جسده بالماء البارد ثم تحفر له قبراً عميقاً تدفنه فيه بعيداً عن الأيدي العابثة.

قاتلنا بضراوة، استشهد ثلثنا، ونجحنا في الاستيلاء على النقطة القوية. فتحت المبرد فكان التعيين كما هو، وعرفتُ أنه مازال هناك عشرون جندياً في الأدوار العليا من عدد الدجاجات التي بداخلها فيُصرَف لكلٍّ منهم واحدة. فتكنا بهم وصعدنا فوق التلال العالية نصيدهم كالخراف ونوجّه ضرباتنا إلى دباباتهم ومدرّعاتهم بلا رحمة.

من أعلى أبصرتُ ما لا يمكنني تصديقه: أشلاء بشرية منثورة فوق رمال تغطيها الدماء، تطفو بحمرتها فوق زرقة مياه القناة، يتساقط جنودنا الواحد تلو آخر، الميدان حالك السواد. لا وقت للبكاء، الحزنُ في تلك اللحظة ضربٌ من الرفاهية، ما لا يمكنني تصديقه أنني أبصر كل هذا! مازلتُ حيّاً إذاً يا صديقي!

لا أستطيع أن أفهم لماذا فعل "عَبّودة" ذلك؟ عندما رأى دبّابة تتحرك نحونا أخذ الـ *R.B.J* وهبط من أعلى التلّ وظلّ يصيح "اللهُ أكبر... اللهُ أكبر". كان يجب أن يبقى في موقعه. في تلك اللحظة لم يكن هذا عبودة الجندي المقاتل فحسب، كان ذلك الدرويش الذي كنتُ أضبطه في الملجأ الخاص بي يطوف حول نفسه راقصاً على إيقاع تواشيح الذكر المنبعثة من الراديو كاسيت الخاص بالوحدة؛ هو نفسه عبّودة القناوي

الذي اختفى تماماً ولم يتبقَّ منه الآن سوى بقعة داكنة وخوذة وشريط كاسيت لحلقة ذكر مازال في المسجّل.

جُنَّ جنوني وهم يحاولون اقتحام النقطة الحصينة بعد استشهاد عبودة. طلبتُ من الرقيب إلهامي أن يغطّي ظهري وتحرّكتُ بسرعة في خط متعرّج إلى أسفل كي أتّقي ضرباتهم الكثيفة، أتلفْتُ دبابة بقنبلة جعلتها كرة من نار، ولكن دماءً تسيل من رأسي، أسقطُ. كان يجب أن أعود إلى أعلى التل، لا بدّ من العودة يا رفاق... لا بدّ.

عادت الأرض إلى أصحابها، ولكنّ الخطر مازال مستمراً، يأبى العدو التسليم. مرّت أيام لا نبرح فيها مواقعنا، ولكننا علمنا بتحرّك بعض قواتنا إلى المضائق. أدخل السرور إلى قلبي مشاهدة المزارعين في "كسفريت" يصعدون أعلى النخل لجمع التمر في موسم الحصاد. فجأةً سمعت أزيز طائرات العدو تحلّق فوقنا، وبدأنا نتأهّب لمعركة جديدة رغم عدم الاستعداد لخوضها.

ترابض دبابات الصهاينة بين أشجار المانجو في "الدفرسوار"، تطلق قذائفها بجنون، كل شيء يقاوم حتى الثمار التي تعوق مسارها وترفض عبورها. تريدون عبوراً إلى الضفة الغربية أيها الحالمون؟! ومَن سيسمح بذلك؟ تلفظكم الأرض بما ومن عليها.

اشتد الحصار. يهاجمنا العدو بضراوة. ننتظر الإمدادات. أسر اليهود جنوداً ومزارعين عُزّل من السلاح. رأيتُهم يبحثون عنّا في كل مكان كالكلاب اللاهثة. أخفى الفلاحون رجالنا بينهم، خضّبوا أيديهم بالطين والروث لتصير خَشنة كأكفّهم فلا تُعرف هوياتهم. شرعوا في السطو على المحاصيل والزرائب فراح المقاومون يكبّون الجوالات بما فيها على الأرض ويُطلقون البهائم كي لا يظفر بها المجرمون.

بدأ الضباب يحلّ فجأةً مع صوت إطلاق القذائف الأخيرة، سحابات

رمادية كثيفة تطوّقنا. أريد نفساً واحداً، لا أجده، الدخان يحجب كل رؤية ممكنة، لا يريد الصوت أن يخرج، وجسدي أثقل من رمال سيناء كلها. احملوني إلى البحر، واتركوني ساعةً في حجر أمي، افتحوا الأنوار وشقّوا عني هذه الظلمة، أفسحوا الطريق لرائحة المانجو الشهية، حلّوا عني أغلال الجسد وأطلقوا روحي لتشأم في هواء بلادي غير المسموم.

العودة

"سقوطٌ مدّوٍ"، هكذا قال المَلَك عن يميني. انشقّ الهواء أمامي، حتى أنني رأيت ذراته تغلّف قطرات حمراء وقد أدركها شعاع نور ينبثق من باطن العدم. لا أسمع صوت ضربات أمي بيدها فوق الأغطية المفروشة على النافذة وذرات الغبار المضيئة تتناثر من حولها، ما من قطرات ملونة تتطاير من ترعة "أبو خليفة" وتسقط فوق أهدابي، لستُ موجوداً، لستُ هنا أو هناك...

تزحف أحزمة النور تدريجياً لتحتل ظلمةً تملأ البصر. حُملتُ على أجنحة قوية تنثر حبات اللؤلؤ، كل لؤلؤة تُنبت جناحاً جديداً. المَلَكان يشرعان في سؤالي، أقول لهما: "هناك خطأ ما، هل تعرفان أنّي شهيد؟" يَخزني الملك عن يساري بجناح فضيّ، يحدّثني ولا أسمعه، فيقول الملك عن يميني: "إنّا منتظرون لنصطحبك إلى هناك". أقولُ: "إلى أين؟" أصبح لساني ثقيلاً، تجهدني الكلمات، أجيباني! لا أحد يجيب. تبدّلت أجنحة اللؤلؤ بأخرى من رمال، عصفت بها الرياح فتخللتها وضيّعت ملامحها. وجدتُ روحي تسقط ثانيةً والظلامُ يحتلّ بصري من جديد.

هل بإمكان الميّت أن يفتح عيناً؟ أن يرفع جفناً؟

أشعر أن تلك مخاطرة كبيرة، ولكن ما الضرر؟ سأحاول.

لا أستطيع أن أرى جيداً، كل الأشياء تتماهى وتتداخل، بإمكاني تمييز

صوت واحد فقط، أعرفه، أعرفه جيداً.

– ملازم طه... طه... أفق... أفق أرجوك...أعرف أنك حيٌ...

– من؟ شاويش إلهامي! أين أنا؟

– في النقطة الحصينة يا بطل. لا تخف، أنا معك، لن أتركك.

– ما الذي حدث؟

– بعد استشهاد عبّودة، هبطتَ من أعلى التلّة لاصطياد الدبابات التي تهددنا، أصبتَ واحدة بقنبلة انفجرت فيها بعد ثلاث ثوان، وفي طريق العودة إلى أعلى أصابتك قذيفة من الدبابة الثانية. صوّبتُ الـR.B.J على عجلة الإدارة فتعطّلت ووصلت النيران إلى داخلها فانفجرت هي الأخرى، ثم فرّت الدبابة الثالثة. استطعنا سحبك من داخل هذا الجحيم وربطنا جرحك والحمد لله كُتبت لك النجاة، الحمد لله.

– لا أستطيع أن أتحرّك. إنني أفتح عينيّ بصعوبة. اتركني هنا واذهب.

– ملازم طه، انظر، لم أنقذك كي أتركك، ستنهض وتأتي معي وسنعبر إلى الضفة الغربية كما جئنا. سنأخذ طريقاً وعراً بعيداً عن كثافة النيران وبعيداً عن عيونهم. انهض.

احتضن الشاويش إلهامي جسدي بقوة ورفعني إلى أعلى وبدأ يساعدني على المسير. فتّحتُ عيني بصعوبة لأنظر إلى قرص الشمس، صادف أنها كانت تسقط سريعاً في الأفق، لم يكن غروباً، بل اختباءٌ أو أن الشمس تُحرِّض كلينا على ضرورة الاختفاء، هربتْ وتركتْ دماءنا في قلوبنا عالقةً بين السماء والأرض. ليس خوار جسدي وحده الذي يردّني عن المسير. ليس في إمكاني أن أطأ تلك الأرض المخضّبة بدماء إخوتي. إخوتي يرقدون هنا. أنا أيضاً مازلتُ أرقد هنا.

يريدني إلهامي أن أواصل المسير. جرحي ينزف من جديد، جرحي الجديد. أزيز الطائرات، زمجرة الدبابات، خوذة عبّودة وبقعة دم داكنة

بدلاً منه. عيون القردة مازالت تحاصرني من كل جانب، ذيولها تلتفّ حول رقبتي. مِلحٌ على جلدي... ملحٌ على جرحي!

آه يا أمي... اكبسي جرحي بتراب الفرن كما فعلتِ يومَ شجّ رأسي حجرٌ أوقعتُ به طرح النخلة العالية في أرض الجمل.

يهمس إلهامي:

– الملاّحات[1] أمان. تحمّل أرجوك حتى نصل إلى الشاطئ. سنختبئ في هذا التجويف حتى يحلّ الظلام.

جلدي يحترق! لا أستطيع الصراخ. هل سأصل إلى الشاطئ؟ وكيف أعبر وأنا أنزف؟ كيف وأنا أقف بالكاد؟ ستائرٌ سود تُرخَى أمامي، والهواء ينفثُ في أذني كأنها فارغة.

أقبل الليل وإلهامي يجرّني إلى الماء، يهمس في أذني أنّ علينا السباحة ببطء شديد كي لا يكشف اليهود المتربّصون حركتنا في القناة. هل ما يحدث الآن حقيقي؟ في غمارٍ من التدريبات القاسية والليالي الطويلة كنّا نحسب أنهم يبالغون، وأن ما يفعلونه بنا ضربٌ من التعذيب. لم يخطر ببالي أنّي سأسبح بيدٍ واحدة وأنا مصاب وأنزف تحت مظلة الليل، وأني بيدي الأخرى سألملم لحمي المتهتك. كان من المفترض أن أموت. البقاء على قيد الحياة مفاجأة كبيرة لي لم أخطط لها.

لا أرى من القمر إلا شبحاً يطاردني. أرتجف في الماء كذيل سمكةٍ كبيرة تسبح بقربي. لا أذكر كم من الوقت مرّ ولا يهم. يبدو أن النهاية وشيكة على أي حال!

– لن أكتم أنفاسي أكثر. لن أسبح أكثر. اتركني وامضي يا إلهامي.

– حضرة الملازم، ها هي الضفة، وصلنا، وصلنا يا بطل.

---

١ الملاّحات: منطقة مائية شديدة الملوحة في شمال سيناء.

أصواتٌ كثيرة، ضجةٌ كبيرة في الخارج. لا، ليست ضجة، إنها الصلاة. الخطيب يدعو: "اللهم انصر قواتنا... اللهم أهلك أعداءنا"، كل البشر في صوت واحد: "آمين" يهزّ الجدران، ترتجّ له الأرض من تحتي. أريد أن أراهم، سأنهض وأطلّ من تلك النافذة، سأدع دموعي تنهمر الآن، الآن فقط بإمكاني أن أبكي، فرحاً وحمداً وحباً. الطرقات مفروشة بالعباد، صلاة الجمعة المشهودة على الأرض المحرّرة، أرض بلادي.

لا أصدق أن أسبوعاً قد مرّ. مازلتُ حيّاً، ورغم نقلي عدة مرات على مدار تلك الأيام ولكنني أستطيع أن أتذكّر كل شيء. نقلني طبيب الكتيبة إلى مستشفى الزقازيق الجامعي، سمعتهم يهمسون: "يا له من جرح غائر، يحتاج إلى تنظيف قبل أي تدخل جراحي. يبدو أنه نزف كثيراً، لاً بدّ من نقل الدم فوراً"، ثم نقلوني إلى هنا، مستشفى كوبري القبة العسكري. صعد إليّ الطبيب ليلاً وأنا أرتجف من الحمّى، طلب مني النزول في كرسي متحرك بصحبته إلى أسفل حيث أهلي وجيراني ينتظرون ولا يريدون المغادرة إلا بعد رؤيتي. دفع الطبيب الكرسي ورأسي مربوط من كل جانب. رغم الإعياء الشديد وعددهم الكبير فقد التقطت عينيّ أمي من بينهم. بمجرد رؤية نبيّات بدأ قلبي يبحث عن عينيّ لبنى، ولكنها لم تكن موجودة. زاحمت أمي الجميع، وأبي لا يستطيع اللحاق بها، حتى وصلت إليّ، جلست عند قدمي تبكي. أقول لها: "أنا بخير يا نبيّات، بخير يا أمي". تفتّش في جسدي كله، تسأل عن رأسي فيرد الطبيب عني. وجدتُ أبي أمامي... لا أدري أي الأحزان بإمكانه أن يجعلك تبدو هرماً هكذا يا أبي! هل تحبني إلى هذا الحد؟ يصيح الجميع: "حمداً لله على سلامتك". يهمس الطبيب في أذني بأن عليه أن يصعد بي، فطلب من الجَمع الانصراف والمجيء في مواعيد الزيارة تباعاً. صعدتُ ورائحة

طرحة أمي عالقة بروحي، واكتشفت لأول مرة منذ أيام – مرّت كسنوات طِوال – أملاً جديداً يولد في قلبي كي أرى حبيبتي.

وجاءت لبنى، واخضرّت صحراء سيناء في قلبي، كان اللقاء أعذب من ساعات النوم القليلة التي لا أتألم فيها، أكبر من ابتسامة مطمئنة أرقبها على وجوه الأطباء إذ يكشفون جرحي الذي لم أره بعد، أرحب من صدر إلهامي الذي حملني وأنقذ حياتي. لبنى تجلس فوق سريري، إلى جانبي تحتضنني، أشمّ عبق الفقدان في ملابسها، يشبعني الشوق في عينيها ويشمّلني الحنان بين يديها، لا يعنيها أحد كعادتها ولا تلتفت إلى رفيقَيّ في الحجرة ذاتها. في غيابها كانا يغبطانني عليها وكنتُ مغبوناً من دونها. كعادتها أيضاً تفهمني من دون كلمات، قالت: "هيا يا طه لتغتسل"، هي تعلم أن لا أحد بإمكانه أن يفعل ذلك غيرها، لا أستطيع أن أطلبه حتى من أمي نفسها. أجلستني في المغطس الصغير ونظّفتني كطفلٍ مدلّل، من أوساخي وأحزاني ودماء إخوتي المتناثرة على جسدي...

لبنى أنا بشكلٍ آخر... في جسدٍ آخر.

سامحيني يا حبة القلب. الحياة مفاجأة كبيرة لي لم أخطط لها.

بدأت رحلة العلاج، علمتُ أن القذيفة اخترقت الأذن اليسرى وسبّبت تهتكاً في الجزء الملاصق لها من جانب الرأس، فقدتْ على إثرها الأذنُ اليسرى وظيفتها، وذلك هيّن بالنسبة للجرح الغائر في جانب الرأس، لم يكن في إمكاني رؤيته، تنظيفه وتمرير "فتيل" طويل يومياً بعد غمره في صبغة اليود الحارقة يسلبني أنفاسي على يد حامد التمرجي، الذي كان أول من صارحني عندما طلبتُ منه أن يصف لي جرحي، فقال: "هو ككتابٍ مفتوح يا بني".

نُقلتُ إلى مستشفى متخصص في جراحات التجميل لإجراء جراحة وراء جراحة ثم انتهى بي المطاف إلى المعادي العسكري. لم تستطع

لبنى أن تتردد كثيراً عليّ لبعد المسافة وبسبب تضييق أخيها. ازداد حزني خاصةً عندما أبصرتُ رفيق حجرتي الجديد، نبيل، الجندي المقاتل الذي فقد بصره ويده اليمنى إثر انفجار قنبلة. دخلت شابة في زيارةٍ له، لم تنطق بكلمة واحدة، خلعت خاتمها من يدها اليمنى ووضعته بهدوء إلى جانبه وأشارت إليّ كي أبلغه بعد انصرافها. حاولتُ مراراً، رفضت الكلمات أن تخرج من فمي، ثم استجمعتُ قواي وأخبرتُه. انهار نبيل تماماً، بكى كالأطفال، قال لي:

– هل تعاقبني لأنّي أضعتُ خاتمها من يدي المبتورة؟ أم لأن عيني المنطفئة لم ترَ اللصّ الذي سرقها؟

وضعوا الكثير من الزهور فوق أسرّتنا، زارونا وغمرونا بكلمات الشكر والعرفان، فلم يكن بوسعهم أبداً أن يعيدوا ولو شيئاً صغيراً مما فقدناه هناك فوق الرمال... مثل خاتم زواج في يدٍ مبتورة!

"إنّ خمولك سيضلّلك، وشراهتك ستغشك، وإنّ عدم اكتراثك سيولد لك أعداءً، ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً مثلي؟ وهل الشاكي يقف على باب البيت الخامل؟ على أنه لا يوجد إنسان فمه مغلق قد فتحتَه، ولا جاهل قد جعلته يعرف، ولا غبي قد علّمته. إنّ الحكّام هم الذين يقصدون السوء، وأرباب الخير هم أصحاب الفن ليصنعوا أيَّ شيءٍ كائن ويصلوا الرؤوس التي قد فُصلت عن أجسادها."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل السابع

بيت الله

ما عايمة إلا وترسِي
وتيجي برها بالسلامة
ميّه وتلاتين كرسي
سجدت للحجازي سلامة.

أغنية زفاف (تراث مصري)

طَرحة وطُرّاحة

لو كان الأمر بيدي لصنعتُ ثوب العرس من موج البحر، ومن زبده "كورنيشة"، ولرصّعتُ حريره بالأصداف، وطرّزتُ طرحتي من خيط السنّارة كما كانت تحيك أمي طُرّاحة الصيد. لو بيدي لكنت سافرتُ بك إلى مدينتي لنعدّ الكوشة في بيت "سويسي بغدادلي"، ويصوّرنا الخواجة "ملاك" بنفسه كما صوّرني طفلةً من قبل وقال إني سأكون نجمة سينما...

أما عن الزفّة يا طه، فلقد زُفّت العروس بالفعل، يومَ احتفَلت فرقةُ "أولاد الأرض" بك وبزملائك الشجعان، ورأيتُ لأول مرة الكابتن غزالي، ابن السويس مدينتي، أخرج "بطانية ميري" وافترشها وجلس فوقها وقال: هكذا بدأت "أولاد الأرض"... لا أستطيع أن أعبّر عن مشاعري وقتها، كان صوت "السمسمية" شراعاً لقلبي المرتحل وغناءُ أولاد بلدي البحرَ الذي يعيدني إلى هناك! رقصتُ يا طه، رقصتُ لك ومعك فرحاً، كنتَ تغنّي معهم وأنت تراقصني وتغمز لي:

والله لحترجع تاني
لبيتك ولغيطك يا خال
وحتلقى الرمله الخضرا
على طول القنال

فأصفّق وأنا أدور حولك مرددةً مع غناء الكابتن ورفاقه:

وحتلقى شجرك عالي
والفاكهه فيه بتلالي
وبتنده لك تعالالي
أنا غالية ومهري غالي
من دم الرجال

مازلتُ لا أصدّق أنك على قيد الحياة، وأن الله قد مَنَّ عليك بالشفاء بعد كل هذا العذاب. أكثر من عام قضيتَها في المستشفيات والعمليات الجراحية. للجرح الملتئم أكثر من ندبة في وجهك وأعرف أن في روحك ما لم يُشفَ بعد، وأعرف أنك تدّخر دموعك كلها ليوم ينغلق علينا بابٌ واحد وتشكو إليّ ما جرى، لساعةٍ أستطيع أن أحتضنك فيها دون خوفٍ أو ترقّب، دون أن نرتاب في شبحٍ يحملقُ فينا وأنت تضمّني على سورِ ترعة "أبو خليفة"... ستعوضك حبيبتك عن كلِّ شيء.

دقائق ويصل طه ويتحقق الحلم فيطلبني من أبي، دقائق فقط وتزغرد أمي وتدور بالشربات على الجيران، أوشكت أحلامنا أن تتحقق يا حبيبي.

لن يكون بإمكاني استقبالك مثل كل مرة يا طه، هذه المرة فقط، أعدك.

وصل طه، وفتح له أخي فضل، سأحاول التلصّص من دورة المياه دون أن يلحظ أحد، لو أن فضل يبتسم قليلاً ويحاول أن يكون لطيفاً فقط من أجلي! "معلهش" يا طه، أعرف أنه لا يحبك ويغار منك، ولا أدري لماذا! البركة في أبي، أؤمن أنه لن يخذلني اليوم، مسكين، منذ أقعده المرض وأخي هو الذي يتكفّل بنا. تزوّجت سميّة، أختي الكبرى، ولكن مازال لي أخوة يدرسون، أما أنا، وبعد رسوبي عاماً وراء عام في كلية البنات،

قررتُ أن أتركها، كنتُ أذهب فقط كي يكون هناك سبب للخروج من أجل رؤية طه، أما الآن فلم أعد في حاجة إليها.

ما الذي حدث؟ لا أصدّق ما أسمع! فضل يتشاجر مع طه! يقول له إنني مخطوبة! لا أسمع صوتاً لأبي، ماذا أفعل؟

ما الذي يقوله فضل؟ أين أمي؟ أشعر أنني سأفقد الوعي. هل هذا كابوس؟

قلبي يخفق بشدة، يعلو خفقانه على صوت الباب الذي أغلقه فضل بعنف في وجه حبيبي! بداخلي غيظٌ وقهر لا أحتملهما، سأخرج إليه وأساله لماذا يفعل بي ذلك؟ من المستحيل أن تكون تلك هي النهاية، لا نهاية لنا يا طه، أريد أن أخرج ولكن ساقَي لا تحملانني!

– أمي... أمي...

– لبنى! ما بكِ يا ابنتي؟ لبنى... لماذا فعلتَ ذلك بأختك؟ لماذا رفضتَ طه؟

– لا أريد أن يتفوّه أحدكم بكلمة واحدة، أنا حرٌّ هنا.

– ستموت أختك، لا أدري ما حدث لها. لبنى... لبنى...

– ستفيق، أعرف تلك الملعونة وألاعيبها، أكانت تحسبني غافلاً عمّا تفعله؟ أتحسب أنني كنت سأدعها تتزوج منه وكل الجيران يتحدثون عنهما؟ لقد عدتُ إلى الجحيم في السويس لأعمل في معمل التكرير كي أتكفّل بكم ولأهرب من سيرتها. كان أمامي حلٌّ آخر: أن أقتله، ولَكم وددتُ ألاّ يعود من الحرب، ولكنه واأسفاه عاد.

– احمل معي أختك، إنك تقتلها الآن، تقتلها بدم بارد.

– ستفيق، وستتزوج صديقي الذي طلبها مني شاءت أم أبت.

لا أفهم ما يقولون، لا أعي عمّ يتحدثون منذ أكثر من ثلاث ساعات! أي رجل يحاولون إقناعي بأن أتزوجه؟ ألا يعقل هؤلاء أنني زوجة طه؟

إلفه وتوأم روحه وامرأته. لا أستطيع الحياة بدونه ولا أملك أن أتنفس إلاّ منه. كان على وشك الموت فكنتُ كذلك، وإذا كان قلبه نابضاً الآن فهذا ضروري كي أحيا أنا. سنستمر يا طه وسأهرب من هذا الجحيم، انتظر فقط حتى تنام عيونهم وتصمت حناجرهم. زوجة الصياد المخلصة دائماً تنتظر.

– لبنى؟ ما الأمر؟ هل حدث لكِ مكروه؟ هل آذاكِ فضل؟

– لقد جئتُ إليك لكي نهرب. سأذهب إلى أيَ مكان، أي عشة نتزوّج فيها.

– هل جننت؟ كيف تتركين البيت في هذا الوقت المتأخّر يا لبنى؟ كيف تفكرين هكَذا؟

– وهل كان يجب أن أوافق على ما حدث؟ هل علي أن أتزوج صديقه؟

– لبنى، لا أستطيع التفكير، أنا مشوّش، انكسر قلبي، ولكن أيضاً جُرحت كرامتي معه، رفضني أخوكِ.

– ولهذا جئتُ إليك، جئتُ لنتزوج يا حبيبي. هل لديك حل آخر؟

– ليس لدي حلول. هذا أيضاً ليس حلاً.

– طه، إنه مصمم على تزويجي الشهر القادم!

– كل تلك المصائب دفعةً واحدة! لماذا يكرهني فضل هكذا؟

– حبيبي، فلنترك لهم العالم كله ونرحل.

– لبنى، لا أستطيع أن أفعل ذلك. أرجوكِ اصعدي إلى البيت الآن، سنتحدّث لاحقاً.

– أصعد؟ أنا لا أصدّقك، هذا كابوس، بالتأكيد هذا كابوس.

– قلتُ لكِ اصعدي بتلك الحقيبة. أنت مجنونة.

وكأن الزمن قد توّقف، وتلك الكرة الأزلَية قد كفّت تَعَبَاً عن الدوران، أشعر بعري مفاجئ، غير أن زوجة الصيّاد ترى طُرّاحة الصيد جيّداً الآن،

تحدّق في الزريعة المسكينة حيث صعدت بها ثقوبها الضيقة واستكثر عليها الصياد حياةً أطول. ماذا يفعل الإنسان عندما يكون بصدد رغبة عارمة في الهروب؛ الهروب من ذاته؟ كيف يتعامل مع جسد لا يستطيع مغادرته؟

هناك حلول يا طه، هناك حلول.

الحل بسيط: عبوة بوليس نجدة.

– لبنى؟ أين كنتِ؟ هل جننتِ؟ سيقتلك فضل لو رآكِ مع تلك الحقيبة. ستجلبين لنا العار.

لبنى لن تأخذ هذا الفراق بجديّة يا أمي، وأبداً لن تحزن كزوجة الصيّاد الذي خرج غاضباً منها إلى البحر ولم يعد، ستترك له ابتسامتها التي تستصغر كل الكوارث وتمنحه غفراناً يوازي جحود العالم، لأن لا طاقة لها بجرح جديد بعد جرحه النازف الذي كاد يسلبه حياته وحياتها معه، ولأنه دوماً لا مكان للنازفين على أعتاب الموت. كانت لبنى تضمن دائما مكاناً شاغراً في سينما تعرض أفلاماً لا أحد يشاهدها، وكذلك الآن تضمن مكاناً شاغراً في مقبرةٍ نظيفة.

ليلة شتاء

هذا الزمهرير يُرجفني ويحيى يتابّط ذراعي حتى نصل إلى عربة حمص الشام في شارع الفرز، يوصي البائع كي يعدَّ لي كوباً كثيرَ "الحَبّ" وآخرَ كثيرَ الشطّة من أجله. نتناول الحمّص سويّاً ونحن نتذكر كيف كنا نملأ به جيوبنا من "أرض الشركة" المفروشة بحبّاته الصفر المجففة. يدخن يحيى بشراهة وظل يحتفظ بأغلفة علب السجائر لفترة كما كنا نفعل في لعبة "الشيك"، ثم يهديها لأولاد العزبة. اجتهد صديقي طويلاً كي يجعلني أبتسم، فكانت ثومة تردّ عليه من خلال الراديو (الترانزيستور) في طريقنا إلى شارع الترعة: "بس أنا نسيت الابتسام". يتداخل بخار الماء الهارب في زفراتي مع دخانه المتصاعد، شيء ما يحترق داخل كلٍّ منا ويحرقنا معه:

الفقد!..

في ليلة باردة كهذه، كنتُ ضيفاً جديداً على الجبهة، وأم كلثوم تشدو بـ"ليلة حبٍّ" لآخر مرة، وأعرف تماماً أن زكريا مثلي يسهر ويستمع إليها في ذات الوقت. منذ عام، في ليلة باردة كهذه، رحلت كوكب الشرق. كان يداهمنا شعور ما بالخيانة في الخميس الأول من كل شهر عندما نمرّ بـ"عمّ عربي" ونشتري البليلة بالبسبوسة كالعادة، مرة لأن زكريا كان يحبها ومرة من أجل "الست". كم من الأشياء حاولنا ألاّ نفعلها

ثانيةً لأنه لم يعد معنا، فإذا به في نهاية كل حارة واقفاً عند كل منعطف، خطواتنا تمشي فوق خطاه القديمة، ينعكس وجهه في كوب حمّص الشام وابتسامته الصافية لها طعم البليلة بالبسبوسة، فيئسنا... لا فائدة.

لا فائدة من محاولة النسيان إذا سكن الحبيب كل شيء، بدءً بعاداتك اليومية الصغيرة وانتهاءً بلحظة موتك الوشيك التي تعادل عمرك بأكمله.

نعم، كل مرة تحاول فيها تخطّي الأمر ستفتقد روحك التي أودعتها لديها. أحياناً كثيرة ستكره هيئتك وصورتك في المرآة لأنك تفشل في التعرّف على ذاتك. حتى عندما تحدّق في يدك فتنظر إلى فراغ المسافات بين أصابعك ستتألم، فلا أصابع سوى أصابعها خُلقت مناسِبةً تماماً لتملأ هذا الخواء.

ما أطول هذا الشتاء! وكأنّ كل الفصول شتاء.

لماذا يعيدنا إلى الأحبة؟ ولمَ لا نتبادل الأماكن مع الشجر العاري؟ نعيره أوراق الذاكرة الصفراء ويعيرنا أوراقه الصيفية الخضراء كقلوبنا القديمة؟

ما فائدة أن أترك البيت كي أهرب من وجه لبنى الذي بات ينتظرني في كل الليالي إن كان لا يفارقني في النوم أو اليقظة؟ وما فائدة كل ما حدث وسوف يحدث إن لم يكن قرباناً إليها؟ أن أحصل على نوط الجمهورية أو أن أترقّى أو أن أبدأ الدراسة في كلية التجارة كمنحة تقدمها الكلية الحربية لنا؟

لم يكن باستطاعتي أن أظل في البيت بعد ما حدث لحبيبتي، حاولت قتل نفسها ونقلوها إلى المستشفى في الليلة المشؤومة ذاتها. كدتُ أُجنّ وشعرتُ أن أحدهم يسحب روحي مني. هرعتُ إلى هناك وأنا لا أدري ما أفعل. بكيتُ، بكيتُ حتى ظننتُ أنني لن أستطيع البكاء ثانيةً. انتظرتُ حتى رحلوا جميعاً عنها إلا سمية، صارت الفرصة متاحة للتحدث إليها،

للمسها واحتضانها وتقبيلها أيضاً، لطلب الغفران منها، ولكني لم أستطع. كيف أفعل ذلك وأنا السبب في ما حدث لها؟ بأي وجه ألاقيكِ يا لبنى؟ وأي الكلمات أقولها لكِ كي تسامحيني؟

كان الاعتذار الوحيدَ المُرضِي بالنسبة إليها أن آخذها بعيداً كي نتزوج. تعرفين يا لبنى كم خططتُ لذلك وكيف كان حلمي الذي لم أنَم عنه أبداً. عندما رقصنا سوياً في حفل أولاد الأرض على السمسمية وصوت الكابتن غزالي ظننتُ أننا أنهينا حصتنا من الأحزان، أن الله أعادني إلى الحياة من أجلك، ثم اكتشفتُ أنه وهبني إياها لأكملها من دونك! أراد الله أن أحيا كي تتزوجي بآخر! لو كنتُ أدري لما عدتُ من خط النار، لما اتّقيتُ نيران العدو ما استطعت، وما عبرت ثانيةً مع الشاويش إلهامي وهبطتُ في الملاحات وسبحتُ نازفاً إلى الشاطئ الآخر...

سامحيني يا حبة القلب... الحياة مفاجأة كبيرة لي لم أخطط لها!

أبلغتني أمي ليلتها أنها ستُزَفّ إلى صديق فضل. حاولتُ أن أظهر عدم اكتراثي وارتديتُ ملابسي وأنا أدافع البكاء. اقتربت مني نبيّات وجذبت ذراعي فأبصرتْ دموعي، احتضنتني بقوة وهي تواسيني، تمنيتُ أن أعود طفلاً جائعاً في الفجر ينتظر الخبز الساخن يخرج من بين كفّيها، وددتُ لو لم أكبر أبداً؛ لو لم أحب أبداً.

لا أدري كيف مرّت تلك الليلة، أو حتى الليالي والشهور التي تلتها. عامان... عامان يا لبنى! لم أبت في العزبة ليلةً واحدة، حرّمتُ على نفسي نوافذها إذ خلت جميعها من وجهك الدرّيّ، أعود الليلة فقط مع يحيى نمشي كعادتنا على السكة الحديد لحضور زفاف نجية أختي غداً، كرهاً أعود، وكرهاً تتزوج أختي رجلاً لا تريده. ظلّ أبي دوماً لا يفعل شيئاً عندما نحتاجه، ولكنه يصرّ دائماً أن يفرض علينا ما لا نريده. رغم كل محاولاتي لإيقاف تلك الزيجة تمسّك أبي بها، فعاد إليّ شبح الليلة حالكة

السواد مرة أخرى.
نجية تبكي وأمي أيضاً تبكي.
ونبيّات لم تكن لتبكي أبداً إلا لحدث جلل.
والنوافذ مازالت زرقاء... لأن الفقد يقصف آمالنا بلا رحمة.
لو أني أجدها في انتظاري تطلّ كالقمر وكأنّ لا شيء حدث!

في المقهى

– بمَ تحلم يا غريب؟

– (يأخذ نفس عميق من الشيشة) مئة ألف جنيه يا علي، وعزبة حقيقية لا كعزبة بلال أو عزبة الورد، و دستة من النساء، وجبل من الحشيش الفاخر، وشيشة من الذهب وماشة[1] من الفِضة، وأسبح في بحرٍ من الخمر فأسكر ولا أفيق.

– أيها الرجل المتصابي! لقد صارت أسنانُك خضراء!

– بل أسنانك أنت يا "جدّو". أنا لم أتزوج بعد وليس لي أحفاد!

– بعد! وهل هناك بعد يا رجل؟ لقد تجاوزتَ السبعين من عمرك. أضحكتني والله.

– أتدري يا أبا عبد الرحمن ما هي اللذة؟

– قل وأسمِعني.

– اللذة هي أكل اللحم، ولذة اللذة هي ركوب اللحم، أما لذة لذة اللذة فهي دخول اللحم في اللحم.

– (ضاحِكاً وساعِلاً) يا وحيد، ماذا وضعتم في المعسّل الليلة؟ جدك غريب يهذي يا ولد.

---

١ الماشَة (أو الملقط): أداة تُستخدم لوضع قطع الفحم فوق النارجيلة أو الشيشة.

– هل مازلتَ تذكر بيت فكيهة يا علي؟ كم كانت تلك المرأة كريمة معنا، وبناتها أيضاً. لم يكن يحلو لي شرب "المنزول"[1] إلا في بيتها.

– خيّبك الله يا نَجس. لماذا ذكّرتني؟

– وهل أنسى كي أتذكّر؟ ربما لأنني أبحث طيلة الوقت عن بلدي التي كنتُ أعرفها ولكنني لا أراها. كل شيءٍ تغيّر مِن حولنا إلا نحن.

– راح زمننا يا غريب، ورحل الأحباب جميعهم.

– وهل هذا زمن؟ أين الرجال يا أبا عبد الرحمن؟ منذ قامت حرب ١٩٧٣ وعادت الأرض واستشهد خيرة الشباب، وهؤلاء المخنّثون يملأون الشوارع: سوالف وشعور طويلة وقمصان ملوّنة وميوعة... الخلاعة والمجون والرقص... والنساء، آهٍ من نساء هذه الأيام!

– يا ملعون... وهل هذا يضايقك؟

– بالطبع يا أخي يضايقني!

– لا أصدقّك.

– وهل أنت راضٍ عن أحوال مصر؟ التاريخ يعود من جديد يا علي. ما حدث في ١٨ و١٩ يناير ليس إلا تمهيد لشيء أكبر سوف يحدث. لقد أوشك الناس على الانفجار، ثورة مثل ثورة ١٩١٩، ألا تذكر؟

– وهل أنسى تلك الأيام؟ وقتها كنّا نعرف أعداءنا جيّداً.

– لقد رأيتُ بنفسي ما حدث. كانت الجموع كبيرة كأيام الثورة، أعداد غفيرة كمظاهرات خطاب التنحّي، كجنازة جمال، ثم وصلت إلى مصر كلها، عمّال حلوان والترسانة البحرية تماماً مثلما ثار عمال العنابر. زحفت الجماهير وهاجمت استراحة مبارك نائب الرئيس، وحتى أسوان حيث كان الرئيس السادات نفسه هناك. شعرتُ أنْ مازال هناك

١ المنزول: نوع من الخمور زهيد الثمن.

أملٌ في هذا الجيل وربما من بين أظهر أولئك الشباب طويلي السوالف والشعور رجالٌ حقيقيون لن يقبلوا بالظلم، وانتهى الأمر بالانصياع إلى إرادة الشعب وعدل السادات عن قراره برفع الأسعار. بكيتُ وقلتُ كلمة الأسطى حسين الصعيدي رحمة الله عليه:

"يارب ما تدي الشباب غياب."

– وهل صار الوضع أفضل يا غريب؟ لا شيء. من سيءٍ إلى أسوأ، والديون تتراكم على مصر، بينما يزداد الغنيُّ غنىً والفقير فقراً.

– رحمة الله عليك يا ناصر.

– رحمة الله عليه. أحنُّ إلى فيشا يا غريب، وحفلات الشيخ يوسف في بيت الأورفللي باشا...

– أما أنا فأحنُّ إلى مصر؛ مصر التي في خاطري... ولد يا وحيد، هل سأظل أناديك طول الليل؟ حجر للشيشة يا ولد.

– عطشان... أريد ماء يا ولد يا وحيد.

– الماء لسيدك يا ولد. حتى الماء تريدون منعه يا كَفَرة؟ وعن مَن؟ عن واحد من "الشرّابية"، سقاة الناس؟

قرط "عروسة"

يا قرة عيني يا طه!

ما أبهاك يا بنيّ، لم أفرح بأحد من أبنائي مثلما فرحتُ بك، حتى بابنتي إنعام: أول فرحتي.

العوض يا طه... العوض.

شربةُ الماء إذا تحرّقت لها شفتان أكثر جفافاً من الحطب المحترق، الإنصافُ إذا أتى لمظلومٍ من ربه.

تبرق الأنوار الملوّنةً وتتدلى من صوان الخيّامية فوق سطح بيت العروس، جميلة سلوى والجمال مداوٍ يا بنيّ، صَدِّقني. إخوتك يرقصون ويزغردون، يغنّي أبوك يا طه، لم يفعلها من قبل مع أحدٍ منهم:

جددي يا نفس حظك مُنيتِي الهاجر تعطّف
وَبَشير الأنس وافَى وحبيب القلب شرّف
آه يا سلام...
من رمش عينك يا سلام
الجبين ويّا الحواجب
بالدلال احنا رضينا
ده البعاد ده مكنش واجب.

الله يا علي، الله يا سيدي.

اليوم فقط عاد ولدي من الحرب، عاد من الموت ليولد من جديد، اليوم أصدقهم وهم يقولون: ابنك بخير.

قلبي يحدثني بأنه أخيراً قد تماثل للشفاء، التأَم جرحه ظاهره وباطنه، وانتهى هذيان الحمّى التي لم تكن تتركه، حمى العشق يا فلذة كبدي... واهاً على العشق وما يفعله بالرجال الأشداء!

ستسعد يا طه... ستسعد.

أما أنا، فبعد العرس سآخذ حماماً وأتعطّر وأرتدي قرط "عروسة" الذي اشتراه لي طه، "واحطّ باطي على باط الجميل وأنام ، وأدعي على الشمس تطلع بعد ست أيام".

سلوى جميلة، والجمال مداوٍ.

حمام الحمى

كلما طفتُ بها فسمعتُ بكاءهم ونحيبهم تذكّرتُ جدتي وأنا فرخٌ قصير الريش جاحظ العينين أهدلُ بصوت باك في العش، وهي تطمئنني وتقول لي أني آمنٌ في هذا البلد، بل وكلّنا آمنون إلى يوم يبعثون. مضى شهر كامل منذ خرجتُ إلى الدنيا من بيضتي الصغيرة وأنا أستمع إلى حكاياتها المتدفقة، مستدفئاً بإخوتي وظلِّ أمي وأبي عندما تعود الأسراب من الحرم بعد غروب الشمس، تقصّ حكاية نبي الله سليمان وابنه داوود عليهما من كل حمائم الحمى السلام، وكيف عُلّما منطق الطير؛ عن خاتم المرسلين محمّد الأمين صلى الله عليه وسلم عندما صاحت به عصفورة شاكيةً فقال: من فجع هذه بفرخيها؟ قال صحابته: نحن، فقال: ردّوهما. حكت أيضاً عن النملة التي تقسم الحبّة إلى نصفين لتدّخرهما لأيام الشتاء، وعن تاج الهدهد ومنقاره الطويل وعصور مُلكه، وعن الطير الأبابيل وحمامتي غار ثور وعن أجدادنا الصالحين الأوائل؛ عن إخوةٍ لنا في شتى أنحاء الأرض يكافحون قسوة الإنسان والطبيعة. كانت الجدّة تقتطع الأخبار المخيفة من أقاصيص البرج، كان ينفد على صوتها الضوء من عيوننا ويتفلّت من بين أصابع السماء ليقع وراء ما لا ندركه، فتختتم قصتها الطويلة على بقاياه بحديثها الناعم عن الحب.

قصّت جدتي العديد من أساطير العشق بين معشر الحمائم، وتحدثت

عني وَإخوتي كثمرة ليلة حب جميلة بين أمي وأبي، نصحت كعادتها الذكور بكلماتها الشهيرة:

"انحنِ أمام وليفتك واخفض رأسك وانثر ريشَك ثم طف بها طوافاً مقدساً."

ثم هَدَلت إلى معشر الإناث:

"قَبّلي منقار زوجك بحنان، أرخِ جناحيك واجعلي منهما متكئاً له على الدوام."

كبر الفرخ يا جدّة وصارت له وليفة يطوف حولها، تداعب منقاره وتسلم له النفس، فيطير عالياً مصفّقاً بجناحيه فرحاً، تنوح من برج الحمام لو يضيع من عينيها في السرب، يعيده إليها عطر الشوق في أنفاسها مثلما تعود الشمس إلى مشرقها كل صباح.

أسلمتِ الروحَ إلى بارئها يا جدتي قبل أن تشاهدي ما أبصره حفيدك الفرخ الصغير من أهوال. عامان ومازلتُ أذكر ذلك جيداً، مرّت ليالٍ عصيبة أُريقت فيها دماء الحمائم والبشر على السواء في بيت الله الحرام. في الأول من محرم، بعد آذان الفجر مباشرةً، برز رجالٌ أقوياء بالسلاح يقودهم "جهيمان" كبيرهم هذا كما كانوا ينادونه، وكان في السابق ضابطاً في الحرس الوطني، استولوا على الحرم وقالوا إنهم يتّبعون المهدي المنتظر (محمد القحطاني)، قالوا أيضاً إنها ثورة على نظام فاسد وأن العرب قد كفّوا أيديهم عن الصهاينة وعقدوا معهم سلاماً، ولم يبقَ لهم سوى اللوذ بالكعبة المشرفة.

قلتِ لي إن الحجر الأسود كان قديماً أشد بياضاً من الثلج الذي يعتلي قمم جبال السراة التي تسيّج مكة المكرمة، وأنه اكتسب اللون الأسود من سوء عمل بني آدم. من بعد تلك الليالي الدامية كان اللون الأحمر يحتل بصري كلما نظرتُ إلى ياقوتة الجنة إذ لطّخها البشر لسببٍ لا أعرفه.

لكني أعرف الكعبةَ جيّداً، أطوف بها مثلهم، أقف على ميزابها وأسمع همس الحجيج ودعاءهم عند الملتزم، أحطّ على مقام إبراهيم فأقبّل موضع قدميه الشريفتين، أتبرّك بماء زمزم، أنظر إلى بنيانها فكأني أرى الملائكة تشيّدها لأول مرة، كأني أرى فيض النور الذي ينسكب من البيت المعمور فوق كسوتها الشريفة...

أعرف هذا الشاب الباكي المتعلق بأستار الكعبة، نثر حَبّاً منذ ساعات قليلة أكلتُ منه وشبعتُ، رائحة بلاده عالقةٌ بثوب إحرامه الأبيض، عالقةٌ بزمزم والصفا والمروة، هو ذاته عبق الجدة الكبرى "هاجر"، التي قلت لنا قديماً يا جدّة أنها تعني زهرة اللوتس المصرية. آلف تلك الرائحة جيّداً وأتوق دوماً إليها، فلطالما زُفّت كسوة البيت العتيق من أرضها الخصبة، فكانت تُنسَج قديماً من حريرها في جزيرةٍ قبطية اسمها "تنيس"، تقع في بحيرة وتشرب من نهر، فإذا فاض بمائه العذب ملأ صهاريجها وسقى نخيلها وأعنابها طول العام. ظلّت مصر تكسو الكعبة وتتنافس بلدانها على هذا العمل حتى تشبّعت جدران بيت الله من نيلها: نهر الجنة.

ابكِ أيها الشاب، هنا تُغسَل كل الأحزان وتذهب كل المخاوف وتُغفر كل الخطايا. ادعُ مثل الجميع، كلكم يريد الأشياء ذاتها، المال والزوج والذرية الصالحة... والجنة أيضاً، والربُّ أقرب من حبل الوريد. أسمعك تبثّ الله شكواك وأنت تحمده على حجة سعت إليك عن طريق القرعة في الجيش كنتَ تتمنّى لو سبقتك إليها والدتك، تشكره على زوجة صالحة تنتظر أن تضع مولودها الأول منك، تريده ذكراً، وتريد النسيان! هذا أيضاً طلب متكرر هنا.

أنا كذلك أحب الذكور، ولكن لدي حتى الآن ثلاثون ابنة، ستصير كلٌّ منهن جدةً في يوم من الأيام تحكي للصغار الحكايات.

الحمد لله أنني لستُ مَن يقوم بدور القاصّ في برج الحمام، أُشفق

على وليفتي من هذا العمل الصعب. لا أحب أن أحكي، ولا أريد، لأنني أشمُّ على الدوام رائحة الدم تنبعث من الركن العراقي للكعبة، ولا يجب أن يروَّع الصغار.

ليست سوى البداية يا جدة، ستنتقل عدوى الدماء سريعاً إلى الأركان الثلاثة الأخرى: الشامي واليماني والشرقي، حتى أنني أشتمّها من رائحة مصر العالقة بثوب الشاب وهو في طريقه إلى عرفة؛ هناك مَن قُتل اليوم هناك، والقاتل ضابط يشبه جهيمان، وقتلةٌ كثرُ ستعجّ بهم البلاد كلها!

"إنك لا تبصر ما في قلبي، وإنه لإنسانٌ صامت من يرتدّ دائماً عن توبيخك. إنك جشع، وذلك لا ينسجم معك. إنك تسرق، وذلك لا يفيدك. أنت، يا من يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة! أنت، يا من يجب عليه أن يقبض على اللص! ذلك لأن ما يقيم أودك في بيتك ولأن جوفك قد مُلئ. انظر، إنك حاكمٌ يسرق، وعميد قرية يقبل الرشوة، ومفتّشٌ كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب، ولكنه أصبح مثالاً لمجرم."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل الثامن

المدينة

بالحق يا ناس دِيّه مُش بلدي
ولا بلد الوالدين ولا جدي
لا هي بلدي ولا مسكن أجدادي
دي بلاد الغز والشقى يا حادي

أغنية حادي (تراث مصري)

ولادة

عانت أمي طويلاً حتى أخرجتني منها، فليس ذلك بالأمر الهيّن، ولقد كنتُ أنعم في الداخل بمقام وثيرٍ وإن كان في الظلمة. عندما انتهت فترة إقامتي لديها أبصرتُ هذا الشيءَ العجيب: النور! معجزة، لأنها كانت تحدث حتى وأنا مغمضة العينين، رحلة اكتشاف الحواس بالتدريج كانت مدهشة، ولكن تظل مغامراتي مع النور هي الأجمل والأروع.

لم يحضر أبي لحظة ولادتي، ولكنه اشترى من أجلي العديد من الملابس في أثناء رحلة الحج، تفقدتها أمي وقالت إن جميعها يصلح لذكر لا لأنثى. حملني وابتسم لي، ثم دمعت عيناه وقال: نور...

همس لي بأشياء لم يعرفها أحد سوانا، كان يتحدث وأنا أسمعه باهتمام متشبثةً بإبهامه، لطالما سال لعابي فوقه في محاولاتي المضنية لشفط اللبن منه دون جدوى. أما أمي فلم تكن تكف عن تقبيل قدميّ الصغيرتين، وكان احتضانها لي وأنا ملتصقة بصدرها يعيد لي ذكرياتي القديمة وأنا في رحمها. أحاطت بي عائلة كبيرة لم أكن الحفيدة الأولى فيها بالطبع، كان كل منهم يدلي برأيه في ملامحي وتكويني عندما يحملني بين ذراعيه فيدسّ عملات ورقية جديدة لامعة في سترتي الوردية، أو قطع ذهبية تلبسني أمي إياها. تصر جدتي نبيّات أن فمي يشبه فم أبي، أما جدي لأمي، جبر، فيؤكد أنني ورثت استدارة الوجه والعينين اللوزيتين من جدتي

لأمي، زبيدة، بينما يقول جدي علي أن لي صوتاً منغّماً جميلاً كصوته. كنت أسمع جدتي زبيدة تقرأ المعوذتين وتكرر عدة مرات "من شر حاسد إذا حسد" فلم تزل تنصح أمي بإخفائي عن أعين الجيران الحُسّاد. باتت جدتي تفعل معي أشياء لا يقوم بها أحد سواها، فهي التي مسحت على جسدي بدم "الوطواط" فور ولادتي، وهي التي كحّلت عينيّ وكان حارقاً جداً. كانت كثيراً ما تعدّ عروسة من الورق أيضاً وتخزها بإبرة وتذكر أسماء عديدة ثم تقوم بحرقها فوق لوحة الصاج المستديرة فوق البابّور المشتعل أمامها.

كنتُ أحبُّ أن يحتضن أبي أمي بذراعه، وأن يأخذني بين ساقيه فلا يظهر مني سوى رأسي والغطاء الثقيل الناعم يغطينا معاً في الشتاء، نشاهد فيلماً بالأبيض والأسود على التلفاز الصغير ماركة "النصر"، يطعمانني حبوب حمّص الشام الساخن، ثم تداعب أصابعهما خصلات شعري حتى أنام.

أصحو في سرير جدتي زبيدة على أصوات الديكة، فأبصر ذلك البرواز المعلّق فوق الجدار المقابل حاملاً امرأة في ثوبٍ أحمر مطعّم بالبهرج الفضي تغطي وجهها ببرقع وأرنب أبيض يتطلّع إليها بشوارب البيضاء، تصحو فتعدّ لي كوباً كبيراً من الشاي باللبن، أغمس فيه عيدان "البقسماط" الذي ألتذ بتعريته من حبوب السمسم فأمضغه بأسناني قبل وضعه في الكوب، مع الوقت بدأتُ أتمرن على الوقت اللازم ليصير البقسماط المغموس ليّناً ومشبعاً بمشروبي المفضل دون أن يتفتت. ثم تطعم جدتي ذكر البط الأخضر فتدفع بحبات الفول المبتلة داخل منقاره، يملأ بيتَها زبيطُه[1]، تفلته من تحت فخذها فيجري إلى دورة المياه مرة أخرى.

١ الزَّبيط: صوت صياح البط.

أكثر شيء يدهشني فيها يدها، لا أملّ من مراقبتها وهي تصنع من أكوام البامية أقماعاً وتخلصها من الشوك الزغبي الذي حاولتُ الإمساك به ذات مرة فوخز أصابعي. عملية تنقية الأرز بسرعة كبيرة وازدياد حجم التل الأبيض النظيف تدريجياً في الصحن الكبير؛ قوالب الزبدة البيضاء وهي تذوب كالثلج فوق النار وتعبئتها في قوارير من الزجاج خاصة بكل ابنة من بناتها. تلك الأصابع الرشيقة تبسّ الكنافة بسّاً وهي تصبّ السمن فوقها، وتختبر "المِش" وتحشر قطع اللفت والجزر والبنجر والخيار للتخليل، تشوي السمك البلطي الصغير فوق البابّور وتصنع مسحوقاً حرّيفاً لتحشو به الباذنجان الرومي، وتضع اللمسات الأخيرة التي يبدو أنها كانت تضبط كل شيء في حياتنا.

تعود أمي من عملها فتحملني وتهرع بي إلى بيتنا قبل وصول أبي. تعمل أمي سلوى مهندسة، أما أبي فكنتُ أراه يرتدي بذلة عسكرية وأحياناً يبيت في العمل أو يسافر لأسابيع. كانت أمي تفتقده وتبكي وهي تشتمّ ملابسه، ولكنه كفّ عن ارتداء تلك البذلة ففهمتُ أنه لم يعد ضابطاً.

تغيّرت طباع أبي، وحملت أمي ثانيةً، وكانت خلافاتهما في ازدياد. كنتُ أنا مشغولة بأوراقهما القديمة فأقوم بالشخبطة فوقها، كان عملاً مجهداً، أو ببناء بيوت كبيرة من المكعبات، أو بالاستحمام في مغطس بيتنا مع جارتي إيمان، بالإضافة إلى متابعة الزينة الورقية التي يعلّقها جيراننا قبيل شهر رمضان. انشغلتُ أيضاً بشعر هشام الأبيض وعينيه الحمراوين، وبتدوير العجلة الأمامية في دراجتي الزرقاء التي لم أستطع قيادتها أبداً، وبأكل الموز الأبيض فيذوب على لساني قبل قضمه، وبمكعبات السكر التي كنتُ أسرقها خلسةً من المطبخ في الليل وألتهمها تحت اللحاف بسعادة كبرى.

وضعت أمي حملها وجاء أخي أحمد ليزاحمني في كل شيء، في

غرفتي ولعبي وحب والديّ أيضاً. صارت جدتي نبيّات تنادي والدي "يا أبا أحمد" ولم تعد تقول "يا أبا نور" كما في السابق. كان يزعجني بكاؤه المتواصل وأتعجّب من صبر أمي عليه ومن غنائها له حتى ينام! عندما كبر قليلاً صرنا نلعب معاً ثم نتسابق في الشقلبة والقفز وفي أكل "الآيس كريم"، نتشاجر ونتصالح ونشاهد الفوازير ونحملق في التلفاز أمام "توم وجيري" ونغنّي مع "بابا عبده" حتى حفظنا أغانيه عن ظهر قلب...

ذات يوم وجدتُ البيت فارغاً من الأثاث، حتى أنني لمحتُ سواري الذهبي المفقود بفصّه الأزرق ملقىً على الأرض ويبدو أنه كان معلّقاً بين سرير والديّ والحائط، وانتقلنا إلى بيت جديد فكان عليّ توديع كل ما أحببت في هذا المنزل دون أن أدرك ذلك حينها: صوت تلك الآلة صانعة عجين الطعمية التي لم تكن تتوقف ليلاً أو نهاراً عن طحن الفول في محل جرجس؛ سأفتقد عطا الأبكم الذي كان صديقاً لجدي جبر ولم أكن أفهم شيئاً من لغة الإشارة التي يتحدثان بها، ولكني سأفتقد أكثر عشرات الأشكال والأحجام من الأزرار الملونة خلفه وهو جالس أمام ماكينة الخياطة، وإحساسي بأنه يمتلك كنزاً كبيراً؛ محروس الكهربائيّ بوجهه الأحمر وذراعه اليمنى المبتورة من أعلى والقشعريرة التي تصيبني كلما أراه وقدرته على حمل الأجهزة الثقيلة دون أن تظهر عليه علامات التعب؛ إيمان ومغامراتنا معاً في المغطس، وهشام وما تقول عنه أمي كلما سألتُها عن بياض شعره وحمرة عينيه فتقول: "هشام شق القمر"، فكانت جملتها تزيدني حيرةً فوق حيرتي، تماماً كحيرتي عند ذكر كلمة "الله" والسؤال عن معناها.

لا أنكر أن البيت الجديد أجمل، فالشمس تغمر الردهة الواسعة وله نافذة كبيرة بدأت أمي تضع بها بعض النباتات، واشترى أبي بعض قطع الأثاث الجديدة وتلفازاً كبيراً ملوّناً. نسجت أمي بيديها العديد من

المفارش والأغطية، تتركنا أنا وأخي معاً حتى تعود من العمل، أفتقدها وأضم طرحة الصلاة البيضاء الخاصة بها وأبكي. انتظم أبي في عمله فصار يعود كل يوم مع دقات الساعة الرابعة مساءً بحقيبته الجلدية، فنتناول طعام الغداء سويّاً. كان لدينا العديد من القصص المصورة وتحكيها أمي لنا بصوتٍ حنون، فأقلّد رسومها وألوّنها. وجدتُ نفسي أرسم... هكذا، وقبلً حتى أن أتعلّم الكتابة.

رحيل

لا يصدّق علي أنني شختُ، الرجل يظن أن مازال بإمكاني حمل عربة العم أمين الكارّو إلى سطح البيت. سأموتُ يا رجل! فلتترفّق بي!

شكوتُه إلى أولاده، شكوتُ سوء معاملته وكثرة طلباته. لم يعد بإمكانه أداء الصلوات في المسجد، وصارت عظامه نحيلة وجافة كجريد النخل، ويده ترتعش كذبالة مصباح الكيروسين قبل انطفائها، ومع ذلك فخرطوم الشيشة لا يكاد يفارق فمه إلا عند النوم. مَرض مرضاً شديداً ومن شدة سعاله كان السرير النحاس يهتز بعنف من تحته، وعندما أقول له "هذا كله من الشيشة" يغرقني بوابل من الشتائم.

رفع علي عصاه في وجهي، وكاد يضربني. بكيتُ، لم يكن الضرب جديداً، ولكني أشفقتُ على نفسي في هذا العمر أن أُضرَب، وأن يكون أولادي رجالاً ومازال أبوهم يضرب أمهم العجوز. عندما شاهد دموعي يبدو أنه شعر ببعض تأنيب الضمير، فقال: "سامحيني يا نبيّات" فقلتُ كما هو معتاد: "أسامحك يا سي علي".

– (ضاحكاً) تزوجتُكِ يا نبيّات من أجل هذه الكلمة فقط: سي علي. قوليها ثانيةً.

– يا رجل! كنتَ كالجثة فوق السرير منذ ساعة، ظننتُك مت!

– سأحيا، وسأكيدك يا نبيّات وأظل أشاكسك وستموتين قبلي!

– يا ليته يأتي ويريحني! لَكم تعبت وأثقلتني الأمراض، السكري والضغط و...

– كفى أيتها العجوز، لا تتحدثي عن الأمراض. ألا تريدين أخذ حمام يا نبيّات؟

– أي حمّام في هذا الوقت المتأخر؟ اتركني، أريد النوم.

– ولكني أريد أن أستحم الآن، حَمِّميني يا نبيّات.

– (صارخةً) ارحمني يا ظالم، لم أعد صغيرة يا علي. انتظر حتى تأتي ابنتك إنصاف في الصباح.

– لا، لن أنتظر، أريدك أنت.

– الأمر لك يا صاحب الأمر. يارب أرحني، أرحني مما أنا فيه.

– أحضري غياراً جديداً، وهاتِ أقراص النعناع أريد استحلابها وأنا أستحم.

جُنَّ الرجل، ظلَّ علي يغنّي وأنا أدعك جسده بالليفة غاضبةً وأصبّ فوقه الماء الدافئ صبّاً. كنتُ أقف بالكاد على قدميّ، ومفاصلي لا تحملني، بينما هو يُنشد:

مَتّع حياتك بالأحباب
أُنسك أمر
شأن الطرب يشفي الأوصاب
للي حضر
وكِيد زمانك واتهنّى
واشرب وطِيب
والقِي همومك يا نادي الأحباب
سعدك قدر

ثم صمتَ علي، صمتَ ومازال الماء يقطر من جسده ولم أجففه بعد، كل قطرة تهبط في طست الماء الكبير سكّين ينغرس في قلبي، تخرق آذاني التي قويَ سمعُها الضعيف فجأةً، وراح طنينٌ يمتدّ في رأسي ويضرب بجذوره التي كبّلتني من كل جانب، فلم أستطع الكلام ولا الحركة.

مال رأس علي أمامه، وجلده الهزيل الذي أخذتُ في دعكه بكل قوة سخطاً عليه مازال أحمر اللون. صمت أبو العيال وكفّ عن غنائه ولم يعد ينادي كل خمس دقائق باسمي.

علي مات؟! أسلم الروح بين يديّ وأنا أسبُّه في سري!

لا أفهم ما يجري من حولي. يبكون ويصرخون وأنا مازلتُ لا أفهم شيئاً. كان هناك شخصٌ واحد فقط يمكنه أن يشرح لي ما يحدث، أبحث عنه في كل ركنٍ في البيت، أقراص النعناع التي يحبها في سيّالة جلبابه وشيشته تشغل إحدى الزوايا، غطاء رأسه الأبيض تحت الوسادة مع مصحفه ومسبحته، إلا هو لم يكن موجوداً!

جاء غريب هوى محمولاً ليودّع صاحبه، بكى وسمعتُ نحيبه، طلب رؤية طه وقال إن أباه ترك معه أمانة. أخَذَنا علي معه إلى فيشا، أخذه أحبابُه ليلمَّ شملهم مجدداً. بقي غريب أسبوعاً واحداً زارني فيه مرّة واحدة، كان الرجل يهذي، أخبرني أنه يشعر وكأنه عائد "بالبوط"[1] إلى جحيم المطاريد مرةً أخرى يومَ أجبره على ذلك مشرف "شركة كوم امبو" الإنجليزي، قبل المجيء إلى العنابر، ثم لحق بحبيبه. كأن جنازة علي تُرفع من جديد، ولكن بدلاً من أن يخرج نعش غريب هوى من مسجد "أبو العلا" خرج من كنيسة "العذراء مريم".

١ البوط: تمصير لكلمة "Boat"، وكانت تمثل تهديداً من قبل الإنجليز المهيمنين على شركة كوم امبو لأي فرد من المصريين البسطاء العاملين بها، فقد يُطرد منها ويعود إلى القرية بالقارب أو "البوط" حيث المطاريد المسيطرون عليها آنذاك.

عندما تُفتح جبّانة في فيشا لا تنغلق أبداً. مواسم الموت في تلك القرية تنادي رجالها ونساءها. راح عبد الرحمن وراحت عفيفة فلحقا بأبيهما وأمهما. أشعر أن ودودة تلفظني وترفض دخولي معهم. تضيق مدافن الفيشاوية بنبيّات مثلما ضاقت بها قريتها منذ زمنٍ بعيد! بقيَ لي دفتر دوّن فيه علي أغاني الشيخ يوسف المنيلاوي. هذا الدفتر ولو أنني لا أستطيع قراءة ما فيه إلا أنه لا يكاد يفارقني، هو أكثر شيء مُشبّع برائحة حبيبي.

سلوى

هل سيتذكر طه أن اليوم هو عيد زواجنا التاسع؟

لا أظن.

سأفتح صندوقي الصغير كالمعتاد، أعيد قراءة رسائله إليّ أثناء فترة خطوبتنا القصيرة، أحصي عدد البطاقات التي نسخ طه اسمي فوقها بخطّه الجميل، وأتامل رسمه لتلك الكلمة التي لم أزل أنظر إليها حتى أغفر له نسيانه: "أحبك".

لا تستطيع امرأة أن تطلب من زوجها الاعتناء بها، أو التصريح بمشاعره تجاهها، هذا إن كانت لا تزال موجودة بالفعل. على العكس، ستحرص دوماً على ألاّ تُظهر احتياجها، ستُبرِز اكتفاءها وإحساسها بالإستغناء، ستتفقد أبناءها وتستشعر الرضا الذي يسكنها مبدّداً كل سخط محتمل قد تشعله أنثى يلحّ عليها كبرياؤها.

لطالما غفرتُ لطه، أمحو الإساءة فأكتبها "سهوة" وأضحك، وقد أتى يحمل ذنباً جديداً مستعظماً إياه بينما أستصغرُه وأقول له: "أنت المغفور له سلفاً فلا تقلق". على مدار السنوات راقبتُ انطفاء الوهج في عينيه: وهج الاشتياق ووهج انتظار الغفران فيهما، يوماً بعد يوم. تذكرتُ أنني أبداً لم أظفر بإلحاح منه كي أسامحه ولو على سبيل المزاح، بِتُّ أخشى عليه من لحظات أمثّل فيها الغضب منه. ولِمَ أغضب والصفح أيسر من كل

هذا الهراء في حياة قصيرة جداً؟ في كل مرة يأتي متدثّراً بالغفران القديم: "أنتِ أكرم مني"، بعينين واثقتين جامدتين لم يعد فيهما إساءة ولا إحسان.

ماذا يسمّون ذلك: رضا أم استسلام؟ لا يهم، ما يهم هو هذا البيت، هذه الجدران التي تحملنا، سنوات كفاحنا الطويلة التي لا يجب أن تضيع هباءً، ضحكات نور وأحمد وعدم التقصير معهما في شيء مهما بدا صعب المنال...

حاول طه أن يحصل على أقصى استفادة ممكنة من الجيش قبل أن يطلب إحالته على التقاعد، كانت تلك بمثابة حقوق، حدّ كفاف لأب يعول، حصل على بكالوريوس التجارة واكتسب خبرة جيدة في مجال الحاسب الآلي، ذلك الاختراع الجديد العجيب، إضافةً إلى مسكننا الجديد في مدينة نصر والذي حصل عليه بتسهيلات مناسبة. بدأ طه يفهم أن طموحاته لن تتحقق ببقائه في الجيش، وكان لديه شعور أصيل بأنه أدّى واجبه تجاه وطنه حتى أوشك على فقدان حياته. لا أنكر، عندما علمتُ أن طه ضابط شعرتُ بالفخر وأحسستُ أن من العار أن أرفض رجلاً كاد يفقد حياته من أجل أن نحيا نحن. نعم، كنتُ رومانسية ومشفقة بعض الشيء، وكنت على علم أيضاً بأن الحياة مع ضابط خاض حرباً لن تكون سهلة، بل هي مخاطرة. لكني مع مرور الوقت تعلقتُ به وبحكاياته التي لم تكن تنتهي، صرتُ أفتقده وأخشى عليه من مخاطر مهنته. ربما أكثر ما أعجبني في زوجي أنه مغرمٌ بالبناء. من طول بقائه وسط المخاطر ولشدة اقترابه من الموت صار حريصاً جداً على صنع حياة آمنة، من الممكن أن يبذل روحه مجدداً قبل أن يهدد أحدهم وجودها.

ولكن الفقد أورث طه خوفاً ما، يتأهب على الدوام للفقد كأنه مازال على الجبهة، ولو أنه غير مستعد له في ذات الوقت. يبدو مبالغاً في إحاطة نور وأحمد بالمخاوف والهواجس. حكى لي عن المرأة الوحيدة التي

أحبها، كانت تلك مخاطرة أيضاً، لم أستحثه كي يبوح، وعندما أخرج ما في قلبه لم يكن بوسع أي انسان إيقافه فتركتُه ليقول كل شيء حتى أنه صار في كثير من الأحايين يحدّثني كما لو كان يحدث نفسه فينسى تماماً أنه يحكي لزوجته عن حبيبته! باتت زوجته تلك تحاول أن تصدّقه كلما همس لها في نهاية القصة: "كان هذا قديماً، لقد نسيتُ كل شيء يا سلوتي!".

نعم كانت تلك مخاطرة: أن تتزوج امرأة من ضابط، أما أن تتزوج من ضابط متقاعد فهذا يشبه الانتحار.

رغم تركه الجيش بإرادته الكاملة إلا أنه عانى طويلاً من أثر هذا الاختيار، أن يخلع البذلة العسكرية ويتعامل مع المدنيين في مجتمع اختلف كثيراً خلال سنوات الحرب، أن يتخلى عن هالة الطاعة وسحر السلطة، تلقائياً حاول أن يخلق من البيت معسكراً صغيراً يصير هو قائده الأوحد لفترة طويلة.

حاول طه أن يطرق أبواب السفر مثل الجميع، ولكن – لحسن الحظ – كانت تجربته الأولى سيئة. تقدّم للعمل لدى إحدى الشركات الكبرى في الخليج وأجرى مقابلة مع مدير أميركي، وعندما علم أنه ضابط متقاعد دارت مشادة كلامية بينهما لأنه من أصل يهودي وكان ذلك كافياً لإقصائه.

لم يكفّ زوجي عن السعي، عمل في أكثر من شركة ليل نهار، كان يصطدم طه في كل مرة بالآخرين، وبنفسه، بنظام "السمسرة" الذي يسكن كل شيء، "الكومسيونجي" و"شيخ المنصر" و"الفتوة"، تعريفات اللعبة الجديدة الغريبة... كيف لمحارب شريف أن يعمل مع هؤلاء؟ حتى تهيّأت له فرصة عمل في إحدى شركات الطاقة التابعة لوزارة البترول، وهنا، ولأول مرة منذ زواجنا، بدأ طه يشعر ببعض الأمان المادي.

بقدر ما كانت فرحة الطفلين برحلاتنا شبه المنتظمة إلى "السندباد" تسعدني، أراقب انبهارهما الأول بلعبة البساط وبيت الأشباح والأخطبوط والسيارات الكهربائية، بقدر ما افتقدت زياراتنا مع العائلة إلى القناطر الخيرية؛ تكدُّسُنا، ذهاباً وإياباً، في سيارتنا الصغيرة التي استطعنا شرائها من مدخراتنا؛ وشجرة التوت المثمرة في شمّ النسيم حيث أقف على منضدة وأقتطف توتها؛ لهو الأطفال معاً ومرحهم أمام الضفة القريبة وتسللهم إلى الجرف لملامسة الماء ومحاولاتهم المستميتة لالتقاط ورد النيل العائم؛ سنانير الصيد التي يؤجّرونها وشراؤهم لطُعم الدود الذي ينفد قبل أن يصيدوا شيئاً؛ مباريات الكرة التي يشترك فيها طه وأقاربنا في الساحة الواسعة على النجيلة الخضراء ورأس العسكري المسكين الذي شُجّ من أثر ركلة طه القوية للكرة؛ المطر في الشتاء يتساقط من ثقوب سقف الشاليه ونحن نتناول الغداء... تلك الذكريات التي لا تقدَّر بثمن.

بعثر أحمد الكروت واستولت نور على الخطابات في غفلة مني وأنا شاردة. ربما لن يتذكر طه عيد زواجنا اليوم حتى لو ذهب الطفلان بذكرياتنا ليضعاها في حجره وهو يقرأ الجريدة، ولكنه من المؤكد لن ينسى تلك الأيام!

أبوّة

– "هي المدارس إمتى يا نور؟"

قلتُها دون أن أشعر كمَن يسترجع حلماً، باشتياق، بمشاعر متّقدة من الافتقاد. نظرَت سلوى إليّ باستنكار، لا تفهم لماذا يبدو على أبٍّ مُثقل بمصروفات البيت والأولاد شيءٌ من الحنين إلى أيام الدفع والطلبات والشكاوَى، أما نور فضحكت قائلةً:

– "إيه يا بابا، هتروح المدرسة معانا ولا إيه؟"

قهقه أحمد أيضاً، وبدأت سلوى في توبيخهما، أما أنا فمازلتُ منتشياً بصوت ضحكاتهما الرنانة، ولا يمكنني أن أبدّل ابتسامتي العريضة وأنا أراهما أمامي بتقطيبٍ فوق جبيني كي أظهر الغضب منهما. ولكن من الصعب كذلك شرح أسباب فرحتي بقرب بدء العام الدراسيّ، كيف أخبرهما بتلك المشاعر الطفولية؟

عندما نذهب سويّاً إلى متجر يبيع الأدوات المدرسية أشم رائحة الورق الجديد وأجرّب خطوط أقلام الرصاص والحِبر، والتي لم أظفر بمثلها وأنا في مثل عمريهما؛ أراقب حيرة نور وهي تختار من بين مِمْحاة برائحة الفراولة وأخرى بالمانجو، أما أحمد فيبحث عن المسطرة الأطول ليبارز بها زملاءه في الفصل؛ الكتب المدرسية الجديدة تخدش أصابعهما الرقيقة وهما يتصفّحانها؛ الأفرُخ الورقية الصفراء والأخرى المصنوعة من

السوليفان الأحمر وتذكارات طائرات أرض الجمل الورقية الموزايك. في البيت، نجلس في منتصف الرِدهة على الأرض أُجلِّد لهما الكرّاسات كلاًّ منها بلونٍ حسب مادته، وألصق البطاقات الصغيرة فوقها وأكتب الاسم ثلاثي: نور طه علي؛ أحمد طه علي.

من أجل ذلك يبدو أنني خُلقتُ!

ويبدو أن الحياة – المفاجأة الكبيرة التي لم أخطط لها – منحتني ما يستحق كي أحيا من أجله.

الأبوة شيء آخر، شيءٌ متفرّد واستثنائيّ، وحيد لا شبيه له، لا يضاهيه حب آخر، وإن لم يُضحِّ الرجل من أجل أبنائه فلن يفعل ذلك مطلقاً من أجل أي إنسان.

أحاول فقط أن أكون أباً صالحاً يا أبي.

أحبُّ أيام المدرسة، وأحبُّ أن أعود مثقلاً من عملي كواحدة من الغيمات السود في يوم ممطر فأصل إلى عتبة المنزل وأنظر إلى أعلى فأجدهما يراقبان المطرَ الهاطل بغزارة من خلف النافذة الزجاجية، ألمح أصابعهما تتداخل وهي تخطُّ الحروف فوق بخار الماء المتكثّف. أصعد وقبل أن ينفتح الباب كليةً أجدهما في استقبالي، يضمّانني وأضمّهما، تعانقنا رائحة صينية البطاطس باللحم وموسيقى تصويرية مألوفة لفيلم "أبيض وأسود" بدأ لتوّه كالعادة في نفس الموعد.

أما في الصيف فتهلُّ رائحة المانجو الشهيّة ونصطفّ جميعاً نأكلها بنهم، أنزع قشرتها الخارجية بأسناني، أفعل الشيء نفسه منذ كنتُ طفلاً آكلها للمرة الأولى، لا أدع شيئاً عالقاً بقشرتها أو نواتها إلا ونَحَتُّه، ألوك أليافها الطرية بلساني قبل ابتلاعها، وأجترّ مذاق الثمرة الأولى... لا مثيل له!

الآباء الحقيقيون يحبّون الرتابة، يمتدحون الروتين ويتضرعون

إلى الله كي يُبقيَ نعمَه ولا يبدّلها، فيظلّ الأولاد بصحة جيدة ويظل بإمكانهم إعالة أسرهم بالمال الحلال؛ أن تبقى سلوى جالسةً كل مساء تخيط المفارش على "النول" فوق كرسيها المفضّل، وتشكو لي من المخالفات التي تحدث يومياً في رئاسة الحي من رشاوَى وتجاوزات البناء، وتصنع "الكيك" الإسفنجية بالبرتقال كل خميس، وتتفنّن كلَّ عيد فطْر في ضبط عجين الكعك كي لا يصير أنعم من اللازم ويتفتت قبل أَن نلتهمه، وتستقبلنا أمي في بيتها أسبوعياً باشّة الوجه صحيحة البدن تستمع إلى إذاعة القرآن الكريم، وتطعم نور وأحمد أقراص النعناع وتقدم لهما الترمس المملح. الآباء الحقيقيون يتمنّون أن يحافظوا على إبهار أولادهم، من المحبط جداً أن يفقد أب القدرة على إبهار أولاده كساحرٍ مفلس كشَف الجمهور حيله كلها.

لا أكفُّ عن السعي، وأشعر بالخوف كلما تخيّلتُ أي عجز محتمل أمام مطالب طفليّ، أبحث عن عملٍ إضافيّ، أبحث عن فرصة للسفر. الكل يفعل الشيء نفسه في هذه الآونة. الكل يريد الهجرة إلى بلاد النفط.

النفط وما يدرّه النفط من مال ودماء!

لا أكاد أصدّق ما أرى وأقرأ وأسمع. صدام حسين اجتاح الكويت! لماذا؟ ألم تكفِه حرب واحدة فخاض الثانية غير مبالٍ بالعواقب؟ لماذا هذا الخراب وهذا الشّقاق؟ هناك ما يُحاك في الظلال يا أولاد قحطان وعدنان، وهناك أمهات وزوجات يمتنَ حسرةً وقلقاً على ذويهن المغتربين في البلاد.

عاد سلفي حافيَ القدمين من الكويت، ارتمى في حضن امرأته التي كادت تفقد الأمل من عودته. كنتُ أواسيه وأنا أبتلع ريقي شاكراً الحظ العسر الذي لفظني خارج دائرة النار تلك.

الضابط المتقاعد يشاهد عن بعد الحرب الدائرة، لا يتوق أبداً إلى

ساحة القتال، لأنه لن يقتل صهيونيّاً تلك المرة، كان سيقتل أخاً له.

كل تلك الحروب لم يُقتَل فيها طغاة أشعلوها.

ولكن ما يشغل بالي، هل نحن بالفعل في منأى عن الخطر؟

بدأ العام الدراسي، وقمنا بكل الطقوس كالمعتاد، ظهر الحماس على نور وأحمد وكنتُ أشعر ببعض الاطمئنان كلما رأيتُهما منسجميَن في المذاكرة أو اللعب أو مشاهدة الكرتون، حتى وجدتُ أحمد يدندن في يومٍ بعد عودته من المدرسة:

ومادام يا ربي... خلقت لي دمعي
من حقي أبكي... من حقي أبكي
إنشاالله أبكي دم

بُهِتُّ، وشعرتُ بطعنةٍ نافذة في قلبي. حاولت سلوى إخفاء دموعها، وحاولتُ أنا استيعاب ما أسمع وأرى، حينئذٍ فقط أيقنتُ أننا داخل خط النار. الكل يدور في مدار واحد حول شمسٍ واحدة. تماهت كل الحدود في تلك اللحظة عندما غنّى أحمد.

مرّت أعوام دراسيّة أخرى، نشوة البدايات تتناقص بالتدريج، يأكل الخوف مساحة الأمان المتبقية في المسكن الدافئ شتاءً ويزحف الموت من تحت حزام الزلازل... العالم كبيرٌ جداً ومليء بالمخاطر، لم أعد أحلم بكوابيس الحرب، ولا بالقردة التي تهرع خلفي بالسلاح تريد قتلي. الرجل في الأربعين من عمره يحلم بأن بيته على قمة بركان "فيزوف"، لا وظيفة له سوى مراقبته قبل أن يثور، يدفع حممه بجسده قبل أن تصيب الأولاد.

العالم كبيرٌ جداً ومليء بالمخاطر، ولم يعد بمقدور الضابط المتقاعد

رؤية عدوه بوضوح، العدو الذي يقتل الأبرياء في شوارع المدينة في عزّ الظهر! بدت كل تحذيراتنا للطفلين ساذجة وغير منطقية، ما الفائدة وأمثالهم يُقتَلون فوق مكاتبهم الصغيرة داخل مدارسهم؟

نور رسمت صورة الشهيدة شيماء، واستخدمت الكثير من اللون الأحمر في اللوحة، تمشّط خصلات شعرها القصيرة إلى الأمام مثلها. نور بالطبع لا تعرف مَن الذي قتلها ولا تعي حتى ماذا تعني كلمة قتل... بعد!

أحمد

كنتُ أشعر بالحرج الشديد عندما قررتُ أن أسأل أستاذي مدرس اللغة العربية عن تلك الأشياء التي أشعر بها ولا أجد لها تفسيراً، ورغم أن الأستاذ أسامة بالنسبة إلي بمثابة أخ كبير وصديق، ولكن حينما يتعلّق الأمر بياسمين أفقد السيطرة على نفسي وأخشى أن أقول مالا يجب قوله. كنتُ أودّ أن يحدّثني بالحقيقة؛ يُبصّر قلبي التائه؛ يتلقّف جسدي قبل أن أقع من أعلى هواجسي وظنوني التي ستفتك بي حتماً...

أريدك أن تخبرني يا مُعلّم، لماذا هي من دون كل الفتيات يخفق قلبي عندما أراها؟ لماذا أشعر بالذوبان عندما تنظر في وجهي وتبتسم؟ ولماذا أكره المدرسة بما فيها لو غابت ولم تأتِ؟ قل لي ما هو ذلك الشعور الذي يؤجّج فيك الرجولة والضعف معاً؟

بدا "حليم" فجأة محقّاً في كل ما غنّى، صارت أغنياته جميلة جداً ومفهومة وموجعة حدّ البكاء. هل هو الحب فعلاً يا مُعلّم؟ أم هو كما يسخر الكبار دوماً فيقولون "لعب عيال"؟ لستُ مهيّئاً لإجابة تكسر قلبي وتحطّم أحلامي خاصةً وأنا أصدّق شعور ياسمين المتبادل... لو أنها فقط تمنحني دليلاً!

لا تعزف ياسمين بتلك الروعة إلا في وجودي. راقبتُها عدة مرّات من خلف الباب ولا أحد في حجرة الموسيقى سواها لأنها تصل مبكّرة وتظلّ

تعزف على البيانو حتى يرنّ جرس طابور الصباح. عندما تراني ترتبك وتصمت قليلاً ثم تستأنف عزفها بحماس أكبر. في كلِّ مرة أسألها: "ماذا تعزفين؟" تقول إجابة مختلفة. كم هي بارعة وجميلة خاصةً إذا لمست أصابعها مفاتيح البيانو البيضاء، وتزداد بهاءً عندما تنقر المفاتيح السوداء فيبرق بياضها الشاهق فوق هذا العاج المنهك. تتدلّى ضفيرتها الحمراء الطويلة وراء ظهرها؛ ترتعش وتهتز مع كل نغمة. ياسمين تحب شوپان بشكلٍ خاص، وتتمرن بانتظام في مدرسة متخصصة للعزف على البيانو، كأنها تحيا في عالم آخر وكأني في هذا العالم خُلقتُ من أجلها!

أتمنى أن تفهمني يا معلّمي الحبيب، أقسم لك أنني أراها في كل شيء، حتى في تلك اللوحة التي كانت ترسمها أختي نور. كدتُ أشهق! كانت ياسمين ولا أحد سواها! جالسة وقد نثرت شعرها الأحمر الطويل فوق صدرها، تنظر إلى أعلى تتطلّع إلى شيءٍ يستحوذ عليها تماماً. سألتُ نور: "مَن تلك التي ترسمينها؟" قالت: "مريم المجدليّة"، قلتُ: "ومن هي مريم المجدلية"؟" فقالت: "امرأة صالحة ذُكرت في الإنجيل وكانت من تلاميذ المسيح وقد شفاها بعدما أخرج منها سبعة شياطين".

سبعة شياطين يا معلّم! ياسمين يسكنها سبعة ملائكة ولم يخرجوا منها بعد!

على مدار عام ادّخرتُ مئة جنيه من مصروفي وكنتُ أنوي أن أشتري لها هدية في عيد ميلادها، ثم علمتُ برغبتها في حضور حفل الألفية عند سفح الهرم، فشعرتُ أن الفرصة أتت أخيراً لأصطحبها خارج المدرسة؛ أن نخرج سويّاً أنا وياسمين... هل يتحقق هذا الحلم فعلاً؟

استجمعتُ قواي وتمرّنتُ أمام المرآة كي أقول لها: "ياسمين، أنا عازمك على حفلة الألفية". أدّيتُ امتحاني وأنا أردّد نفس الكلمات بين السطور في ورقة الإجابة، انتظرتُها على باب اللجنة والقلق يأكلني، ثم

ظهرت كالشمس بين صديقاتها في يوم غائم ملبّد بالغيوم. ذهبتُ في إقدام نحوها فانسحبت الفتيات واحدةً تلو الأخرى، ودعوتُها بنفس الكلمات ولكن بكثيرٍ من اللعثمة. ابتسمَت وما أعذب ابتسامة ياسمين يا معلّم! قالت: "هستأذن بابا".

"هستأذن بابا" تعني أنها وافقَت يا أستاذي، كنايةً عن رغبتها في المجيء كما علّمتني في البلاغة، وتعني أشياء كثيرة أخرى. "هستأذن بابا" تعني أنني حتماً لو أعطوني جناحين الآن سأطير كأرقى كائن حي في مملكة الحيوان مثلما كتبتُ في ورقة الإجابة منذ دقائق، أما في الكيمياء فمعناها أن هناك رابطة تشاركية قوية صعبة الكسر بيني وبين ياسمين، تعني أنني سأستحضر احتمالات الدالة كافّة وأنا أرسم علاقة طردية بين "هستأذن بابا" و"الخروج مع حبيبتي".

حبيبتي... نعم حبيبتي!

ووافق والد ياسمين، بل وتطوّع كي يوصلنا ذهاباً وإياباً، بينما وافق أبي بصعوبة! وبعد إلحاح وضغط! كانت حبيبتي ترتدي تنورة قصيرة "كاروه" تصل إلى منتصف ركبتيها وسترةً وردية من تحتها قميصٌ أبيض، ولأول مرة أراها بشعرها ينسدل فوق كتفيها لا يقيّد حركته طوق. كنتُ مأخوذاً بالموقف، والكلام لا يريد أن يخرج، أريد أن أصرخ: "هذه حبيبتي".

وقفنا طوال الحفل، صفّقنا، صرخنا، هتفنا، أمسكتُ بيدها وعبرتُ بها وسط الزحام إلى الأمام، كان عطر ياسمين يملأ أنفي، وفي كثير من اللحظات كنتُ أشك أنني نائم. مع كل حلم من أحلام الشمس الاثني عشر كنا نحاول أن نفهم ما يريد Jean Michel Jarre قوله من خلال تلك الموسيقى الغريبة. كنتُ أنظر إلى وجهها فأجدها مغمضة العينين، أسألها إن كانت الموسيقى تعجبها إلى هذا الحد فتقول إنها تشعر وكأنها جزء

من الإيقاع. قالت ياسمين: "الإيقاع كل شيء"! أعجبنا ظهور المزمار والناي والربابة والدفّ والتنافس بين عازف الطبلة بجلبابه وعازف الإيقاع الفرنسي. دمعت عينانا سويّاً في اللحظة ذاتها عندما أدّى منشد لا نعرف اسمه تواشيح. التفتت إلي ياسمين دامعةً: "لازم تحفظ ده وتغنيه". طرنا مع أطراف التنّورة الملوّنة في رقصة شعبية عجيبة. شعرنا بالفخر عندما قال Jean إنه أراد الزواج من أم كلثوم وقتما سمع صوتها طفلاً في فرنسا لأول مرة، ونظرنا إلى بعضنا البعض لما صرّحت الشمس بحلمها السادس: "أرادت الشمس ذاكرة فأعطتنا الصوت". شعرتُ أنني في حلم فعلاً وأنني في جولة مع ياسمين عبر آلة زمن. عرَضت الشاشات العملاقة رسماً للإله أنوبيس يسير بعرض المسرح الكبير، وارتدى الراقصون أقنعة مشابهة لوجهه. خرجت جماعات البطاريق من الصحراء في حلم الشمس الثلجيّ، وبرقت الأضواء الحمراء عندما قالت الشمس إنها أرادت الشجاعة فمنحتنا الدماء، ثم عاد أنوبيس مرّةً أخرى ليفتح بوابة حلم "الحريّة" الثاني عشر والأخير.

عدتُ إلى البيت وأنا أحمل لمسة يدها الأخيرة، عطرها الياسمينيّ، وصوتها وهي تناديني باسمي بتلك الهمزة الواضحة فوق حرف الألف يا مُعلّم. عدتُ مشبّعاً بفكرة الحلم الثالث العشر: عندما أرادت الشمس الجمال وَهَبَتنا ياسمين! دخل أبي حجرتي محاولاً أن يظهر الغضب مني لتأخري، فوجدني أجمع خصلات شعرها الحمراء المتعلّقة بسترتي الصوفية، فابتلع غضبه وابتسم ولم يتفوّه بكلمة واحدة.

كنتُ أعرف أن أبي أحبَّ قبل أن يتزوّج أمي، قالت لي نور ذلك، وكنتُ أنتظر يوماً يحكي لي فيه قصته، ولكنه لا يقص علينا سوى حكايات العمل، دوماً ما يذكر كلمة حروب ومؤامرات وسرقات ووسائط، يتحدث عن رجال مخنّثين ونساء غير شريفات...

في تلك الليلة جاءتني حبيبتي في الحلم. مخجلٌ أن أقول لك ذلك، ولكني أبصرتُ جسد ياسمين عارياً بنهدين ناتئين وحَلَمتين حمراوين كَلَون شعرها تماماً، وقد وقفت هكذا أمامي تعزف فوق سبعة أشعة من الضوء.

ملائكة ياسمين السبعة وحلم الشمس الثالث عشر وسنوات عمري السبعة عشر... كلها دون العشرين!

عَكَارة

أنهت نور عامها الجامعي الأول بتفوق، أصرّت على الالتحاق بكلية الفنون الجميلة رغم كل محاولاتنا أنا وسلوى معها. كنتُ حزيناً لأنها لم تحقق أمنيتي في أن تصير طبيبة، حُلمي القديم ظلَّ يراودني طوال تلك السنوات. ولكن لا بدّ أن أعترف: أشعر بسعادة غامرة كلما رأيتُ لوحاتها المدهشة، كلما اكتشفتُ مع الوقت كم نحن متشابهان: تفضيلها للرسم بالفحم، خطوطها، عنايتها بأدق التفاصيل، عندما تتحدث وعندما تطرق وحتى وهي تكوي ملابسها منذ الصغر بنفسها.

نور أنا بشكلٍ آخر... في جسد آخر!

أراقبها وهي جالسة بجوار جدتِها زبيدة تستمع إليها، تسألها عن كل شيء كأنها سوف تؤرخ له، ترسم يدَيّ جدها جبر بتعارجيهما، ظاهرهما وباطنهما، تقضي وقتاً طويلاً لدى جدتها نبيّات، نور مولعة بحكايات الجدّات، طفلةٌ تنتظر نهايةً تُشفي فضولها... صغيرةٌ أنتِ يا فتاتي على كل تلك الحكمة!

كانت نور سبباً في معرفة حكاية قصّتها أمي لأول مرة. قالت لها إنها، حينما كنتُ رضيعاً، وضعتني فوق السرير النحاس وصعدت كي تخبز فوق سطح بيتنا. كانت تترك الباب مواربا. في ذلك اليوم هبطت بالخبز الساخن لتجد ديكاً أحمر مملوكاً لجارتنا فوق السرير يوشك أن يفقأ

عيني! ومنذ ذلك الحين وأمي تصطحب كل رضيع لها إلى أعلى ولا تتركه وحيداً أبداً، تغلق الباب جيّداً وتكره الديكة بشدة. بينما كبرتُ أنا وشرعتُ في مطاردة عفريت الديك الأحمر في حارة فابريكة البسكويت!

آه يا أمي! أصبحتُ مثل ترس في آلة كبيرة، لا يملك أن يتوقف من تلقاء نفسه، توشك أضراسه أن تنبريَ من كثرة الدوران، ساعتها فقط سيخلون سبيله ويُحلوّن قيوده ليستبدلوا به ترساً آخر.

كنتُ أحسب أن استقامتي تجعلني بالضرورة في مأمن من الأضرار. في الحقيقة، حدث معي العكس تماماً. لَكَم استفزهم كوني مستقيماً، وكوني أعمل لساعات طويلة داخل الشركة وخارجها ضمن قلة من الزملاء أصحاب الخبرة كي نقدّم مشروعات تسهم في ترشيد الطاقة، نبني نظماً معلوماتية قد تُباع بآلاف الجنيهات من خلال شركات البرمجيات الكبرى، فلا نجد سوى التجاهل بينما يُحتفى بمشروعات بعض الحواة لا ترقى حتى إلى مستوى "الهجص"[1]. فقط كنتُ أريد أن أعمل، وهذا وحده في هذا البلد يبدو شيئاً غير منطقي ولا مبرر له! تلقّيتُ من رؤسائي رسائل عديدة مفادها: "كفّ عن تلك الأحلام فلن تتحقق"، ولكني – لسوء الحظ – لم أكفّ.

صبرنا على "جيران السَّو"، مديراً وراء مدير ووزيراً وراء وزير، فاكتشفنا مع مضي الوقت أنّ "مِن 'بنبي' لـ'فهمي' يا قلبي لا تحزن". كنّا نسقط تحت براثن الأمراض المزمنة يوماً وراء يوم من كثرة الضغط النفسي الذي نلاقيه؛ نشاهد بأعيننا المال المنهوب يخرج لمجموعة مختارة من المنافقين والراقصات وكيف يدير هؤلاء الشركة فعليّاً. تعرضنا لظلم كبير

١ الهَجْص: كلمة عامية دارجة تعني الكذب أو الخداع، أصلها "هَقْص" بالهيروغليفية وتعني الجهل والمحدودية.

وقع علينا فتبرع زميلنا الأكبر، فؤاد، بالدفاع عنّا أمام المدير. بعد دقائق، ولم يكن قد غادر مكتبه بعد، أصيب بأزمة قلبية وتوفّاه الله قبل أن تصل إليه سيارة الإسعاف.

شعرنا بالإحباط الشديد بعد تلك الحادثة. نمضغ المرارة والحسرة ونحن نسمع الضحكات ترنّ في مكاتب ثلة "المحاسيب". جلستُ أفكّر: تُرى كم رجلاً يموت كمداً في مصر لأنه لا يستطيع أن يحتمل الظلم أو لأنه يطالب بحقوقه أو لعجزه عن إعالة أسرته؟

أنقذتني أسرتي من اليأس، ربما لأنه يتحتّم علي كأب ألا أفقد الأمل أبداً. ربما تهاونتُ في بعض حقوقي ولكن لم يكن بوسعي أن أتهاون في حقوق أحمد ونور، كانت لهما أيضاً معاركهما الخاصة. حاولتُ في كل مرّة أن أساندهما حتى النهاية. صارحني أحمد بحبه لزميلته ياسمين، كنتُ أريد الضحك بشدة ولكن سرعان ما تلاشت رغبتي تلك عندما تذكرتُ أنني كنتُ في مثل عمره تقريباً وقتما أحببتُ لبنى. عادت إليّ الذكرى التي لا أريد لها عودة وأنا أنصحه بألاّ يتخلى عن حبه مهما حدث. وجدتني أقول له ما لا يجب قوله كأب. شعرتُ في تلك اللحظة أنها ربما كانت فرصة مواتية لإصلاح ما أخطأتُ فيه من قبل.

أما سلوى فكانت في سعي دائم للنقل من رئاسة حي إلى أخرى. حماسها المتّقد لتصنع تغييراً ما يشتعل في البداية، فكثيراً ما تصنع المفارش لمكاتب زملائها ونقلت بعض التحف الصغيرة من منزلنا إلى هناك؛ تأخذ نبتة ريحان أو نعناع من شباك المطبخ إلى حوض مهمَل؛ تواظب على طعام الإفطار مع زملائها، قد تطبخ في وقتٍ متأخرٍ من الليل صينية "مسقّعة" أو تخبز فطائر "صيامي" لأخذها معها صباحاً. بتُّ أراقب سلوى تتنقل من مكان إلى مكان وكل ذلك يخبو فيها تدريجيّاً، فتشتري لفافة زهيدة الثمن من البلاستيك الرقيق بنقشٍ مطبوع فوقه بدلاً من مفارشها، وتفطر

سريعاً قبل أن تغادر البيت. كانت تنمو مشاعر أخرى وتتأجّج مع الوقت لديها: تنتظر يوماً ترى فيه نور عروساً فتشتري لها كل ما تصادفه من مستلزمات، ومهما بدت الفتاة ساخرة من اهتمام سلوى المبكّر والمبالغ فيه بشأن زواجها الذي لم يحدث بعد، لا تكفّ عن الشراء أبداً.

التمستُ لسلوى العذر، كُنَّا في بحث مزمن عن الفرحة، ولو وجدناها لم تكن تكتمل حتى النهاية. حاولنا مراراً التخلص من تلك "العكارة" التي أصابت كل شيء: سواد الهواء الملوّث بالسموم، وبياض الماء المعكّر بالكلورين، وحمرة الليالي القمرية الملطخة بالدماء...

البهجة التي تسكن قلبي وأنا أستمع إلى ثومة تغنّي "يا ليلة العيد" سرعان ما تتبدّد بخبر سيئ يحلُّ مع "دخلة" العيد! احترق قلبي من الأسى وأنا أشاهد الجثث المتفحمة إثر احتراق قطار الصعيد، في ليلة عيد الأضحى؛ ليلة العيد يا ست. في الحقيقة لم تكن جثثاً بل كانت كومةً من الفحم الآدمي، أكثر من ٣٥٠ ضحية أرادوا فقط قضاء العيد مع ذويهم، لطالما عاش هؤلاء كومةً مهمَلة في "سبنسة"[١] الحياة. بكيتُهم بحرقة، بالطبع أقل كثيراً من حرقة النيران التي التهمتهم ومن تلك التي ستلتهم القتلة المسؤولين عن موتهم!

لم نكد نفرح بالتحاق أحمد بكلية الطب حتى شهدنا سقوط بغداد في أيدي الأمريكان. مشاعر الفخر بابني الوحيد وهو يحقق لي حلمي القديم تكدّرت وأنا أرى جيشاً عربياً ينهزم تحت أقدام الولايات المتحدة؛ الغولة المستأسدة على البشر أجمعين؛ عارٌ يجلبه الطغاة على شعوبهم، العراق ثانيةً، وفي "صِدَام" دائم بفعل هذا "الصَدّام" الأخرق الذي بكيناه يوم شاهدناه في حوزتهم يلتقطون معه الصور كصيدٍ ثمين!

١ سبنْسَة: العربة الأخيرة في القطار.

بعد تخرّج نور جلسنا أنا وسلوى نحلم بيوم تتزوج فيه، نخطّط له، ونبحث المبلغ الذي يمكننا تخصيصه من أجلها، ولم نكن نمتلك منه شيئاً بعد. بدأت أفكر في عملٍ إضافي مرةً أخرى. في غمار الأماني، وصلتُ إلى ذروة حنقي وغضبيٍ عندما طلب المدير منا إعداد دراسة وافية عن إمكانية تصدير الغاز الطبيعيّ. تحمّسنا للغاية واستطعنا أن نصل إلى نتائج هامة تفيد بتعذّر تصدير الغاز الطبيعيّ وتوصي بضرورة تحقيق الاكتفاء منه داخلياً أولاً، وهذا لا يعطي الفرصة الكافية لتصديره، ودعّمنا ذلك بوثائق من الدولة تدل على صحة ما توصلنا إليه.

قامت الدنيا ولم تقعد، لأن الدراسة وصلت إلى مكتب الوزير الذي ثار بشدة وشكّك في الوثائق المقدّمة، ثم انتشر الخبر سريعاً بأن هناك توصية من رئاسة الجمهورية بضرورة تسهيل تلك المهمة وهي تصدير الغاز إلى إسرائيل!

أصابني الذهول! شعرتُ بملوحةٍ حارقة في حلقي! كأني أسبح في الملاحات مرة أخرى والملح يكويٍ جرحي النازف من جديد!

كان عقابنا ضِعفين: قامت الحكومة المصرية بتصدير الغاز إلى إسرائيل فَشَروه بثمنٍ بخس، ثم ألغوا إدارتنا وشتتونا فألقوا بكل واحدٍ منا في مكانٍ آخر داخل الوزارة أو خارجها!

ظللنا على موعد مع حوادث الفقد المؤلمة، نتأهب كلما انخرطنا في احتفال، فأيقنتُ أننا لسنا مؤهلين لإدارة الأزمة ولا الفرحة أيضاً. آخر عهدي بالعيد كان وقتما أصرّت أمي على تأدية الحج وكنتُ مشفقاً عليها بشدة، طمأنني قليلاً أن أختي إنعام ستسافر معها، ولكي تقتصد في النفقات قرّرت السفر ذهاباً وإياباً عن طريق البحر. سلّمتُ عليها وقلبي يكاد ينفطر قلقاً ومفارقةً لها. ضمّتنا نبيّات وقالت: "سأزور النبي أخيراً يا أولاد علي". وبعد تأدية المناسك، وهما في طريق العودة وعلى متن

عبّارة الموت، السلام ٩٨، غرقت السفينة بمَن فيها؛ بأمي وأختي! طفت الجثامين فوق البحر الأحمر والسلطات المصرية غارقة في نوم عميق. أمي وأختي ومعهما ألف روح على الأقل يتنازع عليهم البحر وأسماك القرش.

ما أقسى هذه البلاد! وما أرخص الدم المصري! ما أفظع أن تدور على المشارح لتتفقّد وجوه الضحايا لعلّك تجد أعزّ الناس بينهم، هل هو أهون أن تجدهما الآن أم أن يبلّغوك أنهما مفقودتان فإما ابتلعهما البحر أو أكلتهما أسماك القرش؟

لم أتجاوز هذا أبداً، ولم أعد لسيرتي الأولى مرةً أخرى. متُّ حيّاً، فلم يتغيّر شيء ببقائي، ولن يُستحدث شيءٌ من العدم بفنائي. تخرّج ابني وصار طبيباً كما كنتُ أحلم، ولكن لم تعد هناك طاقة للفرح. حتى الأخوة والأصدقاء القدامى لم يكن بوسعي رؤيتهم. لن يفهم ذلك أحد، أحياناً قد نكره رؤية الأحبة لأنهم لا يذكّروننا سوى بأحبة رحلوا. هذا الضياع سيجعلك تكره حتى نفسك التي تحمل كل تلكَ الذكريات المؤلمة، فتكتشف أن ذاكرة الفقد أقوى بكثير من ذاكرة اللُّقيا.

احتفظ أحمد بدفتر جده المملوء بأغنيات يوسف المنيلاوي، والذي كان ينام في حضن جدته. أما نور فلم تتعافَ مما حدث وطلبت أن تحتفظ براديو جدتها كذكرى وحيدة منها. إذاعة القرآن الكريم فقط وعلى مدار أشهر هي كل ما نسمع من حجرة نور. يصدح المنشد بتواشيح ليلة القدر في رمضان، ففاضت عيناي بالدمع:

"أفرُّ إليكَ منك، وأين إلاّ إليك يفرُّ منك المستجير؟"

ضاقت بنا الأرض بما رَحبت، لم يعد هذا الكون المهترئ يتّسع حتى لقدمين في جسد واحد.

"وقد قال الفلاح هذا الكلام للمدير العظيم للبيت 'رنزي بن مرو' عند مدخل قاعة المحاكمة، فأمر حاجبين بجلده بالسياط، وقد أثخناه ضرباً بها في كل أجزاء جسمه. عندئذ قال الفلاح: 'إن ابن مرو لا يزال ماضياً في غيّه وإن حواسه قد عميت عمّا ينظر وصمتت عمّا يسمع وانحرفت عمّا يُتلى عليه. انظر، إن مثلك كمَثَل بلدٍ لا عميد له أو جماعة لا رئيس لها أو كعصابة أشقياء لا مرشد لها!'."

خنوم أنوب، **شكاوى الفلاح الفصيح**

الفصل التاسع

الميدان

أمانة إن شفت العضم
مرمي في الطريق
دايسه عليه جزم الكلاب
ابقى لمّه ونضّفه
اشفق عليه ولفلفه
وادفنه تحت التراب
يمكن يكون عضم أخوك
يمكن يكون عضم أبوك

أغنية سِمْسمية (أولاد الأرض)

مِسْك

أعرف تلك الشوارع جيّداً، أحفظها عن ظهر قلب، حتى إنني أستطيع أن أحصي عدد أعمدة النور والمطبّات فيها؛ أشكال العمارات بطُرُزها المعمارية المختلفة. الأمر لا يتعلّق فقط بكوني فنانة، ولكن هو ذلك العشق الذي لا يمكنني التعبير عنه.

الشارع رجلٌ حنون يضمّ أرضه. الشارع مفردة لا مثيل لها، فهو الذكر الجريء البادئ والنهاية الشافية بعد تيه طويل.

الشارع مُشرِّعٌ وضع قوانينه الخاصة للسالكين، وإن لم تكن خبيراً بها فلن تصل أبداً إلى الوِجهة التي تريدها.

الشارع شاعرٌ وشريعة.

أخذني لأزور كل ميادينها. فتح لي البوابات الموصدة. علّمني اللهجة الصعيدية والسيناوية وجعلني أغني بالنوبية. انتظرتُ السمك في الشِّباك وأنا في فلوكة في بحيرة قارون أستمع إلى أهزوجة صيد: "من صغر سنّي وانا ريّس وبداري... ريّس موانى وأجيب الفن من بالي"، وأخذتُ كورنيش الإسكندرية ذهاباً وإياباً سيراً وأنا أتصور بوابتَيْ الشمس والقمر. نمتُ في أكواخ سيوة الدافئة، وصعدت جبل سانت كاترين لمشاهدة الجليد في الشتاء. ذبتُ وهم يعزفون على السمسمية في السويس. رسمتُ في كل بقعةٍ قلبي على الجدران، بعثرتُ روحي بينها؛ فتلك أفضل الطرق

كي لا تَضِيع.

الشارع المظلوم... سِمة الفساد والإفساد في قاموس الآباء والأمهات.

الشارع المنسيّ بأشجار البونسيانا العتيقة أخيراً تذكّرتموه؟!

تأخرتم كثيراً.

لطالما انتظركم عامل النظافة الذي يصحو أولاً ويهشُّ العدم؛ البستاني الذي يرعى الحدائق ويجمع الزهر الذابل في كومات صغيرة بمحاذاة الرصيف على هامش الحياة، وتلك العجوز التي تبيع الذرة المشوية ليلاً، وذلك الذي يبيع البطاطا الساخنة ويلفّها بالصحف؛ الرجل الذي أشعل في نفسه النيران أمام مجلس الشعب؛ انتظركم أطفال الشوارع يتنازعون فيما بينهم على زجاجات المياه المعدنية الفارغة وعلب الصودا الصفيح، ومع القطط والكلاب على ما لم يفسد بعد من الطعام المُلقَى في القمامة وهم يدفعون الجوع والقيء!

تأخرتم كثيراً.

انتظرتكم أنا أيضاً، وكانت أغنية "سعاد ماسّي" في أذني كلما أتيتُ إلى هنا:

واتوحّشت واتوحشت واتوحشتك
شبعت الويل
واتوحّشت ريحة مسك الليل
اتوحشت الطرقان اللي حِفضوني
اتوحشت حتى اللي كرهوني
وريحة تراب كي تصب شتا
يبان لي طريق طويل بلا بيك انت

عيش... حرية... عدالة اجتماعية.

قانون الشارع الأزليّ.

أما أنا فهتافي هنا على الجدران. أرسم قلبي كالمعتاد وأترك دمه يجفّ فوق الحائط. رسمتُ بحراً وسمكة قِرش برأس مبارك. رسمتُ عربة قطار الصعيد السوداء تمشي على قضبان حمراء. رسمتُ وجوه رجال الحكومة على صخرة "الدويقة" الضخمة وقد سقطت في حِجر الدلتا. رسمتُ مريم العذراء محتضنةً المسيح وقد رفعت كفّها بعلامة "توقف". رسمتُ "الباندا" الحزين رافعاً لافتة مكتوب عليها اسم خالد بأحمر قانٍ: "كل القضاة زايلين والمتّهم خالد".

اتفقنا أنا وأحمد على ألاّ يترك كلانا البيت، بحيث يمكث أحدنا باستمرار مع أبي وأمي. لم نخبرهما بالطبع بالحقيقة. يقوم أحمد بإسعاف المصابين مع العديد من الأطباء والمتطوعين في المستشفى الميداني الذي كان يعجُّ يوماً بعد يوم بالقتلى. أول شخص أبصرتُه يستشهد أمامي كان يوم جمعة الغضب فوق كوبري قصر النيل، ثم سقط الصغار تباعاً تباعاً: هذا حمى ظهري وأنا أركض، وهذا كان يقف في وسط الميدان يُلقي قصيدة "البتاع"، وتلك كانت تسقي الثوار ماء... لم أكن خائفة وربما كنتُ في قرارة نفسي أتمنّى الموت. مع أول نَفَس جذبته بعد إطلاق قنبلة غاز في وجهي، وبعد ممارسة أسوأ تجربة تنفسيّة على الإطلاق، نسيتُ كل مخاوفي وودّعتها إلى الأبد.

أعترف: الحياة مفاجأة كبيرة لي لم أخطط لها!

لن تخاف بعد اليوم لأن الثورة بثّت فيك القوة، لأنها تمنحك حياةً أخرى في جميع الحالات، سواء عشت أو مت.

صدقت يا "روسّو": "من حق المرء أن يجازف بحياته من أجل الحفاظ عليها".

في الشارع أكتشف أنني لستُ وحيدة ، ولستُ الوحيدة!

ملايين يا بلادي. آه وأنتِ تزدادين بهاءً في هذا الشتاء، تغتسلين بدموعنا، تمرحين مرح فراشة خرجت لتوّها من الشرنقة الخانقة، تُصَلّين بالشموع وتسجدين في خشوع...

رحل الطاغية غير مأسوفٍ عليه.

نعم، فعلها جيل الفيسبوكً وتويتر.

وأخيراً كان بإمكاني أن أنعم بصحبة أخي في اليوم الأخير. حملني أحمد، أنا وياسمين خطيبته، واحتفلنا وسط الجموع، فكأني أرى جدتي نبيّات ومعها الشهداء ينثرون فوقنا من الجنة أمطاراً من المسك.

بكينا أنا والشارع، ورسمتُ مِسك الشهداء "جرافيتي"!

يَاسمِين أحمد... Just revoluted

أروع شيء قد يحدث لأي فتاة هو أن تصادف رجلاً يكون على استعداد كامل للموت من أجلها. لطالما أخبرني أحمد بتلك الكلمات منذ الصغر، يكتب خطاباً بلون ورائحة الخوخ ويدسّه في يدي بعد آخر حصة في الفصل، أفتحه عندما أعود إلى المنزل وأقرأ: أحبك وسأموت من أجلك!

كنتُ إلى جانبه في المستشفى الميداني، أفعل أي شيء قد يفيد، أذهب لإحضار ما يطلبه هو وزملاؤه، أقول له باكيةً: "إنني أشعر بالعجز، فما حيلة الموسيقى وسط كل هذا الموت؟" فيقول وهو منهمك في خياطة جرح: "الإيقاع هو كل شيء. ألا تذكرين؟ أنتِ التي علّمتني يا ياسمين".

في جمعة الغضب، سقط المئات من الشهداء. كان الجرحى يتوافدون كسيل الرصاص الكثيف، وكانت المرة الأولى التي انتحبتُ فيها أثناء عملي. كلَّ مرة أحاول فيها إنقاذ أحدهم يُسلم الروح بين يدي لخطورة إصابته. شعرتُ أنني مجرد حانوتي يهيّئ الموتى لقبورهم. انهرتُ تماماً وجلستُ أبكي بين الجثث لا أدري ما أفعل. ضمّتني ياسمينتي إلى صدرها، طلبت مني أن أكمل وأنها ستفعل أي شيء من أجلهم.

لا أصدّق أننا مررنا بكل هذا. كم عاماً عشنا يا أحمد؟ هل ثلاثون؟ أم ثلاثمئة؟ كُنّا بالأمس نشاهد أول موديل تظهر منفردة في "ڤيديو

كليب" والأخرى التي كان لها السبق في الظهور ببذلة رقص مغطاة عند منطقة البطن، ونستمع إلى "تترات" مسلسلات من ألحان الشريعي وياسر عبد الرحمن وأصوات الحجار والحلو وأنغام وحنان ماضي، "أرتام" وإيقاعات صلاح الشرنوبي النمطية التي فَرَمتْ أغلب الفنانين، وسرقة حسن أبو السعود من نفسه؛ تركيب كلمات عربية على ألحان غربية شهيرة؛ نكد محمد محي ومحدودية محمد فؤاد على إحساسه، وألبومات عمرو دياب المتشابهة، وإختلاف منير تماماً تماماً...

ولع الشباب بالبلياردو لسبب غير مفهوم، وظهور أول بنطلون "سترتش" موصول بالكعبين، والفرحة التي استقبلنا بها ظهور أول بنطلون "سترتش" بدون الوصلات، خصلة الشعر المنسدلة على جانب الوجه مع لم باقي الشعر، وموضة "الكاريه" القصير...

حريّة مول، وظهور البيتزا، وحلم السفر إلى الخارج...

في الميدان، كأننا سافرنا إلى الداخل، شاهدنا مصر أخرى أو تُراها كانت هي مصر طوال الوقت ولكننا لم نكن نعرفها!

بالتأكيد لقد فقدنا عقلنا يا أحمد، أن نقرر الزواج في مثل هذه الأيام! ولكن، إن كنتَ تريد الحق، أنا أعشق هذا الجنون، وأفكّر في فعل أشياء معك لم يفعلها أحد سوانا: سيكون العرس في الميدان، ونتفق مع المصوّر ليلتقط لنا صوراً مع جرافيتي محمد محمود والدبابات؛ أن نرتدي "ماسك" الغازات ونبرز علامة النصر، وبدلاً من الجملة الشهيرة "Just married". "Just revoluted"!

"حلم الشمس الثالث عشر" أصبحت زوجتي. ياسمين بملائكتها السبعة في أحضاني، بشعرها الأحمر الطويل، بأصابعها البيض وابتسامتها البريئة، بتلك العينين المتطلعتين كأنما تنظر إلى إله، ألمسها وأتنفسها وألثمها، أضحك وأبكي في صدرها، تطلب مني الغناء فأفتح دفتر جدي

وأختار أغنية من أغاني الشيخ يوسف بشكلٍ عشوائي، فكانت أغنية الليلة الأولى:

وهواه وهو أَلِيَّتي وكفى به قسماً أكاد أجلُّه كالمصحفِ
لو قال تيهاً :قِف على جَمر الغضا لوقفتُ ممتثلاً ولم أتوقّفِ
أو كان من يرضى بخدي موطئاً لوضعتُهُ أرضاً ولم أستنكِفِ

تنهض عاريةً لتُحضر البيانو الديجيتال الخاص بها، ترفع غطاءه الخشبيّ الداكن وتعزف... تعزف. ياسمين تعريفاً: متلازمة الموسيقى والعشق والجنس. قد أكون أنا الرجل الوحيد الذي يصل إلى الذروة من عزف امرأة؛ من عزف ياسمين.

جميلةٌ أنتِ كثمرة خوخ طازجة مخملية الملمس، فوّاحة وندّية بشقٍّ رقيق يُثَنِّي كلَ شيءٍ فيها، قضمها فيه من الليونة ما لا يُدمي أسنانك كتفاحة، ولكنه عَسِر بقدر ما يجعلك تجاهد قليلاً وأنت تمضغها في البداية، يذوب لحمُها قَليل الألياف – تدريجياً – على درنات لسانك، لاذعة وحلوة، ألوانها متداخلة كأعمار متعددة، نتوءات نواتها تصدم حافة أسنانك فتمهّد لك نهايةً ما ،لا يمكن أن تؤمن بقرب مجيئها، فتجترّ مذاقها وتحنّ إلى قطيفتها المشبّعة برائحتها عندما لامَسَت أنفك أول مرة...

جميلةٌ أنتِ كالثورة.

لو أردتُ وَصفاً مختصراً لأحمد فسوف يكون "حُضْناً"؛ ضمّة عاشقٍ صوفيّ لا تسكُن أشواقه ولا يغادره وهجُ البدايات. نظرته إلي أول مرّةٍ كآخر مرة. حب العمر. ربما لم يكن في استطاعته أن ينيَ لي بيتاً، فعل والده ذلك بدلاً منه، ولكنه الآن يبني لي وطناً.

أُطلَقت "النينجا" من السجون لمحاربة "الساموراي" الشرفاء حرب شوارع، وفضائح اللحى "المضروبة" جليّة مهما حاولت التخفّي في

تحالف مع الشيطان. ينمو الشبّيحة والمتحرّشون والفاسدون القدامى والجدد كعفن الخبز فوق أمانينا، وابني ينتظر جواً أفضل للحضور في الخريف القادم، ضيفاً جديداً على الدنيا يخرج من رحم ياسمين، وأنا عيني على شيئين: بطن زوجتي وثورتي.

كان عليّ استيعاب حلم الشمس الحادي عشر جيّداً: حَلُمَت الشمس بالشجاعة فأعطتنا الدماء. ويبدو أنّ لا وجود لمعركة أخيرة، فمتى اشتعلت جذوة حرب، لا تنطفئ نارها أبداً. كانت الحكمة تخبرنا كلّ مرّة: هل تريد أن تنشر فكرة؟ اقمعها إذاً. هل تريد أن تتخلص من ثلة معارضين؟ ضُمَّهم إلى حزب.

الباندا الحزين

يزحف هذا اللون الداكن على فرائي الأبيض بشكلٍ مرعب. لم أولد أبداً بكل هذا السواد. اليد التي رسمتني بالغت في إبراز الهالتين السوداوين حول عينيّ. اليد التي رسمتني نقشت سمكةَ قرش مخيفة بالقرب مني وصخرةً هائلة من فوقي وقطاراً أسودَ متفحّماً أمامي.

لستُ حزيناً إلى هذا الحد، ولو أن هذا الحزن هو الشيء الوحيد الذي نتشابه فيه أنا وهذا الشارع. الحزن، ذلك الشبح الذي يصرع الكائنات الحيّة بالطريقة ذاتها، ينتزع وهج الحياة ويمتصّ العزم قطرةً قطرة، وعندما يواجه الروح يغمرها بظلاله السود فيمحو إشراقها ويطمس طاقتها.

ولكني حزين، لأنني أعرف. الشاهد الوحيد على الجرائم والمذابح والانتهاكات والاعتقالات هنا هو نحن. الصامتون فوق الجدران. الشاهد الوحيد على الخسّة وفقدان معاني الإنسانية، في هذي البلاد الغريبة التي لا أحد فيها يُصدّق الضحية!

في خريفٍ بديع كهذا يودُّ الباندا الحزين لو كان الآن في غابته المفضّلة بعيداً عن القتل، يقضم الخيزران وسوق البامبو الشهيّة، لا يضطر إلى مواجهة عينَيّ قاتلٍ ينظر إليه مباشرةً ولا عينَيّ مقتولٍ قبل مفارقته للحياة.

توجعني يدي المرفوعة بتلك اللافتة وتوجعني الحقيقة التي أخفيها.

في صباحٍ عجّ بالمتظاهرين، جاءت صانعتي وألقت عليّ السلام وهي

تهتف، طبطبت على كتفي المرفوعة ومسحت على عينيّ وما حولهما بأناملها الرقيقة، رسمَت صورة شاب اسمه مينا ورحلت. انتظرتُ عودتها يوماً بعد يوم ورقعة السواد تستمر في الزحف على لوني الأبيض. جاء شابٌّ وكتب دامعاً في الرقعة الصغيرة المتبقية على الجدار:

الثورة مش حِكر لا ملكك ولا ملكي
مِلك اللي يومها سند ضهره على السونكي
واللي الرصاصة شالت عينه ولم يبكي

تناقص الضوء تدريجياً، غابت الشمس، وسُدّ الشارع بحاجز خراساني متين. عادت صانعتي في يوم آخر، رسمت شيئاً واحداً، مَحَتْ بريق عيني اليُسرى وسكبتْ فوقه بياضاً جديداً. صنعت نور غطاءً أبيض اللون لعيني كما أنه أخفى الهالة السوداء تماماً، جذبت فمي يميناً ويساراً في ابتسامة فلم أعد الباندا الحزين، ولكنها همست لي وكأنها تودّعني:

"ليس في إمكاني أن أطأ تلك الأرض المخضّبة بدماء إخوتي. إخوتي يرقدون هنا. أنا أيضاً مازلتُ أرقد هنا."

كانت نور تشبه العديد من الثوار المتجوّلين في هذا الشارع، كلهم بعيونٍ مفقوءة بيضاء مبتسمين!

هاشتاج: موتوا بغيظكم

يظلُّ الجزء الأصعب في المأساة دائماً أنك قد تتجاوزها، بينما يفشل في ذلك المقربون منك، فتراها كل يوم في عيونهم لتتمنى لو أنك كنتَ قد فقدتَ العين الأخرى أيضاً، فلا تدري ما تفعل: أتواسي روحك أم تواسيهم؟

أسمع بكاءهما في آخر الليل يهمسان، يظنان أنني لا أسمع شيئاً: "عين البنت راحت".

راحت وراح معها كثيرون يا أمي، وبقينا نحن ليوجعنا فقدهم.

"عفريت الديك الأحمر فقأ عيني يا ستّي".

ربما خسرتُ عيناً ولكني لم أخسر شرفاً أو ابناً أو حياةً أو... وطناً – ذلك أهون بكثير.

مازال بحوزتي قلم فحم... ويد... ووجدان... ولا أسعى لأكون أيقونةً يهتف باسمها أحد، أو لأجني المال من الحوارات واللقاءات كما فعل كثيرون وانتفعوا من "سبّوبة الثورة"، غير أنني لن أصفّق لجواد "كاليجولا" إذا عيّنه عضواً في المجلس ولن آكل التبن والشعير على مائدته.

أعي جيّداً ما يشعر به أبي اليوم، ٣٩ عاماً مضت على تحرير الأرض، على خوض الحرب المجيدة، الحرب الوحيدة التي حضرها ضابط

الجيش المتقاعد، الذي لولا العناية الإلهية لكان شهيداً. هكذا وُلدتُ عندما قرر الله أن يُنجيَه من قذيفة الدبابة الإسرائيلية التي اخترقت إحدى أذنيه في مشهد يشبه أفلام "ماتريكس" وتركت له بها صمماً وخلّفت لي حياتي أنا وأخي.

سيارة مكشوفة يطلّ منها رأس الرئيس المدني المنتخب محمد مرسي محاطاً بالحَرَس في زيّهم الأسود، يتلفّتون حول الرجل المنتشي بهتاف جماهير حاملي بطاقات حزب "الحرية والعدالة" في ستاد القاهرة الدولي.

بدأت النكات في الظهور على الفيسبوك فور بدء الاحتفال، يبدو أنني سأضطر مرغمةً إلى متابعة الخطاب كي لا أبدو كحمقاء لا تفهم "الألْش"[1] الذي سيملأ صفحات الأصدقاء في غضون دقائق.

المناداة المأثورة: "أيها الأخوة والأخوات" زاد عليها "الصلاةُ والتسليمُ على خير الأنام". "الإيمان حلو مفيش كلام"، سأكتبها "ستاتوس"... لا داعي... ثقيلة الظل.

"طارق الزمر ونصر عبد السلام وصفوت عبد الغنيّ ضمن وفد حزب العدالة والتنمية مدعووّن لحضور الاحتفال بذكرى العبور الذي نفّذه الجيش المصري بقيادة الرئيس الراحل محمد أنور السادات الذي اُغتيل في الذكرى الثامنة لنفس المناسبة والذي نفّذت وخطّطت لقتله الجماعة الإسلامية"... هذه النكتة أفضل. سيضحك جميع الأصدقاء لا ريب، وستحظى بمئة "أعجبني" على أقل تقدير.

إخواني يكتب على الفيسبوك: "مئة يوم من إنجازات الرئيس محمد مرسي، وكله بالأرقام. افتح هذا الرابط..."، مرسي مبتسماً مسترسلاً في الخطاب:

---

١ الألش: النكتة.

"قالّك صلاة الجمعة بتتكلف ٣ مليون جنيه. يعني الركعة بكام على كده؟... صلاة الجمعة ولا بتكّلّف ولا مليم... دول الحرس بتوع الدولة... وبنروح نصلي ونرجع... هي صلاة الفجر بتتكلف كام؟... لا ملهومشي دعوة دول بصلاة الفجر..."

الإخواني معلّقاً: "سيموت حمدين كَمَداً إذا استمع إلى تلك الكلمات... إدّي يا مرسي كمان وكمان". هاشتاج # موتوا بغيظكم.

يستمر الرئيس مخاطباً الشعب، وتأخذه دَروَشة الأداء المسرحي كعادته ويبدأ في رفع الكُلفة ويتحدث بالعاميّة. نعم، "بالشِّعبي" النافذ إلى قلوب البسطاء من المصريين. خطاب العبور المؤثر، الذي استمر أكثر من ساعتين، لم يذكر فيه الرئيس المدني المنتخب اسم السادات ولو مرة واحدة، ولو على سبيل المجاملة.

ألمح أبي جالساً أمام التلفاز صامتاً يتظاهر بقراءة الجريدة اليومية. أعلم تلك الشجون التي يؤجّجها ذلك اليوم، هل زادت أشجانك اليوم يا أبي؟ تقول لي دائماً أن الجرح في أذنك لم يعد يؤلمك ولكنك بكيت يوماً عندما قصصتَ عليّ كيف دفنت جنوداً في الفصيلة بيديك، كيف فقدت صديقك زكريّا، كُنّا نبكي على شهداء رفح؛ الجنود الذين قُتلوا غدراً وهم يتناولون طعام الإفطار في رمضان. قلت إن كل الذكريات الأليمة عادت مرة أخرى. الشعور الدنِس بأن تلك الأرض محتلة عاودك من جديد. أعلم أنك تكره الغدر... والظلم... والفقر.

انتهى مرسي من خطابه وانفضّ مولد الفيسبوك من "الألش" المعتاد، فأدرتُ مذياع جدتي على إذاعة القرآن الكريم لأغسل همومي، فكأن المذيع يخرج لي لسانه بمديح خطاب زعيم الأمة العظيم! فما كان مني سوى أن أستمع إلى مسرحية إذاعية على البرنامج الثقافي "كُلٍّ بطريقته الخاصة" وأكمل كتاب علي شريعتي **النباهة والاستحمار** وأعيد قراءة تلك

الجملة مرّات ومرات:

"الاستحمار هو طلسمة الذهن وإلهائه عن الدراية الإنسانية والدراية الاجتماعية وإشغاله بحق أو بباطل مقدس أو غير مقدس..."

آهٍ يا بلادي!

علي الصغير

يمرح علي الصغير بالبالونات الملونة في الشرفة، يطارد إحداها إلى أعلى فارداً ذراعيه الصغيرتين، يُمسك بأخرى ويهرع بها إلى الداخل منادياً بتلك الكلمة التي يخفق قلبي كلما ناداني بها ولم يصح نطقه لها بعد: "جدّو". أضمّه إلى صدري فكأني أضم العالم بأكمله. جذبني حفيدي من يدي يريدني أن أدخل معه الشرفة فرأيتُ البالونات تزاحم بعضها بعضاً وقد كُتب فوقها جميعاً: إرحل.

نلتفّ جميعاً حول أكلة شهيّة صنعتها سلوى، نحتفي بعلي وهو يمسك الملعقة بصعوبة متظاهراً بتناول الحساء وهو يقلّد أحمد. تُخبر سلوى ياسمين أنها كلما قرأت لأحمد ونور قصة "حساء الزّر"[1] طلبا منها بعد عدة أسطر أن تقوم بإعداد حساء ساخن وتضع فيه مكعّبات اللحم. بعد الغداء بقليل نصطف لتناول المانجو ونغرق في الضحك عندما يفعل علي الشيء نفسه، فيلطخ وجهه الصغير بأليافها أثناء الأكل، ثم تحتضنه نور وتلقّنه نطق كلمة "مصر" وهي تشير إلى العلم، فيقولها بحماس مثلها وهو يَقلِب الصاد شيناً فنضحك ونضحك...

في صبيحة اليوم التالي قرّرنا جميعاً الذهاب إلى التحرير. كانت

١ حِساء الزِّر (Button soup): قصة إنجليزية للأطفال.

الجموع حاشدة، ملايين من البشر تطالب برحيل الرئيس، كانوا يهتفون وكأن هناك ما يجثم فوق صدروهم. لم تكن عيني على أحد سوى نور، تُراها بماذا تشعر؟ وكيف تستطيع أن تقاوم تذكارات هذا المكان الذي فقدت فيه عينها؟ المكان الذي فقدت فيه أصدقاءها؟ وجدتُها تهتف بقوة وقد انضمّت إلى زملائها في حشد يضمّ مصابي ثورة ٢٥ يناير، كانت تبتعد، تمضي إلى الأمام...

"يارب ما تدِّي الشباب غياب."

بكيتُ وعلي في حضني، وعاد الجدّ المتقاعد وقد تجاوز الستّين من عمره إلى يوم وقف فيه هنا حاملاً صورة ناصر بعد النكسة ولم يؤدِّ امتحان الإعداديّة بعد. تلك التجاعيد التي تملأ وجهه الآن وتحيط بعينيه الزرقاوين تتأملان تلك البلاد الفتيّة التي لا يبدو عليها الهرم أبداً. أكتشف أن قصة حياتي هي ذاتها قصة بلادي، مهما حاولوا تشويهنا أو إقصاءنا. أحمل أبي الذي مهّد ورصف تلك الشوارع بوابور الزلط؛ صنع طريق الثورة؛ مضى يهتف ضد الإنجليز، وأحمل أماً عانت الفقر والحرمان ثم ماتت في بطن سفينة غارقة. لي جدٌّ وجدة زرعا هذه الأرض، ولي أولاد وقفوا في وجه الطغاة يصنعون مستقبل الوطن.

تمرّ أيام قليلة ومازالت الذئاب تُكشِّر عن أنيابها، يحرقون مصر من جديد، يستهدفون الكنائس ويُشعلون بها النيران التي تكاد تأكل قلوبهم حقداً وغلاً. بعد عَزْل أكثر رؤساء مصر خَرَقاً وخرَفَاً، فكّرتُ أنّ الوقت قد يكون مناسباً الآن لتأدية الأمانة، الشيء الذي كنتُ أشتمُّ رائحة أبي فيه فأؤجل إيصاله لأصحابه.

أخذني أحمد إلى فيشا، تأمّلنا الغيطان الشاسعة والجِنان الساحرة، ووجوه الأطفال، نبحث بينهم عن أحدٍ يُشبهنا، تحمل عيونهم أخباراً

كثيرة عن السنوات الطويلة الماضية. رأينا مقام سيدي البهلول وذهبنا إلى المدافن لنقرأ الفاتحة على أرواح الفيشاوية الراقدين تحت التراب، ووجدنا بيت جدي القديم؛ الدار الذي بناه لسرورة قرينة فتاة هيت، وقبل أن ندخله عرّجنا أولاً على كنيسة السيدة العذراء: السبب الذي أتى بي إلى هنا.

تأمّلتُ الأسقف المنقوشة الرائعة، تذكّرت الدكتور عدلي ونقوش كنائس شبرا التي كنتُ أرسمها على الجدران. نور أيضاً مولعة بالرسم على الجدران! طلبتُ مقابلة القمص وقصصتُ عليه الحكاية القديمة؛ حكاية اللوحة الأثرية المصنوعة من النحاس الأصفر التي وجدها راعي الكنيسة إيليا منذ زمنٍ طويل. استطاع أبي وأخوه أن يحصلا على تلك اللوحة أثناء عملية التنقيب بجوار سور الكنيسة، واحتفظ أبي بها طوال حياته دون علم أحد، ولكنه في أيامه الأخيرة تركها مع صديق عمره المسيحيّ غريب هوى، الذي بلّغني بعد وفاة والدي بوصيته بإعادة الأثر إلى الكنيسة مرةً أخرى.

تأثر القمص من الحكاية وطلب أن يرى اللوحة، فتأمّلها دامعاً ثم قبّلها وقال إنها تحمل الوصايا العشر بالقبطية القديمة، وراح يحكي لنا كيف تلقّاها موسى عليه السلام في جبل حوريب، وحين سُئل المسيح عليه السلام: أي عملٍ صالح أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ أجاب: احفظ الوصايا.

طلبنا من القمص قراءة اللوحة، فقال مترجماً عن القبطية:

لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.
لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ

الأَرْض. لاَ تَسْجُدْ لَهُنّ وَلاَ تَعْبُدْهُنّ.
لا تحلف باسم إلهك باطلاً.
أُذْكُرْ يَوْمَ السّبْت لتُقَدّسَهُ.
أكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمّكَ لكَيْ تَطُولَ أَيّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الّتِي يُعْطِيكَ الرّبُّ إِلهُكَ.
لا تقتل.
لا تزن.
لا تسرق.
لا تشهد شهادة زور.
لاَ تَشْتَه بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَه امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمّا لِقَرِيبِكَ.

كأني أرى الكون كلّه لأول مرّة كتلةً واحدة بلا حدود فاصلة، كأني أرى جذور الشجرة التي تفرّع منها كل شيء.

الحياة، تلك المفاجأة الكبيرة التي لم أخطط لها، مازالت تفاجئني!

أما الآن فلا أريد سوى شيء واحد، أريد الإقامة بجوار صاحبي زكريّا بالقرب من "كسفريت" حيث كانت معركته الأخيرة؛ أشتري مزرعة مانجو صغيرة في الإسماعيلية؛ أنعم برؤية أحفادي وأولادي؛ أدعو الأهل والأصدقاء للتلاقي في الخميس الأول من كل شهر نستمع إلى حفلٍ للستّ مجدّداً؛ تصنع لنا سلوى الكيك الإسفنجية بالبرتقال كما المعتاد، وأرى نور بصحبة فارسها ليستريح هذا القلب المُثخن بالجراح.

أحلم بيومٍ أجلس فيه على كرسيٍّ هزّاز ويأتيني علي فيحكي لي عن

الفتاة التي يحبها كما فعل أبوه، وأحكي له حكاية حبي الأول ولا أقول له أبداً أنني أضعتُهُ.

لا أريد أن يضيّع أولادي أحلامهم.

أمر رنزي بن مرو، المدير العظيم للبيت، اثنين من الحجّاب أن يذهبا ويحضرا الفلاح خنوم أنوب، فقال له رنزي: يا أيها الفلاح، جهّز نفسك على أن تسكن معي.

قال الفلاح: هل سأعيش معك فآكل من خبزك وأشرب من جعتك إلى الأبد؟

فأمر رنزي بقراءة شكاوى خنوم أنوب من لفافة بردي جديدة وأمر بإرسالها إلى الملك بنكاورع، وقد سُرّ بها وأرسل إلى رنزي: "اقضِ أنت بنفسك يا ابن مرو"، فأمر المدير العظيم حاجبَيْن ليحضرا تحوت نخت، فأُحصيَت كل أملاكه: قمحه من الوجه القبلي وشعيره وحميره وخنازيره وماشيته، وأمر بإعطاء بيته للفلاح خنوم أنوب.

فقال الفلاح : "مثل اقتراب الظمآن من الماء، ووصول الشفة التي تتحرّق إلى اللبن، كمثلِ الموت الذي يُتاق إلى رؤيته عندما يأتي متباطئًا".

خاتمة قصة **الفلاح الفصيح**

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm